

مكتبة
الإسلامية
مكتبة
الإسلامية
مكتبة
الإسلامية

تاريخ التمدن الإسلامي

٩ أكتوبر ١٩٧٢

تأليف

عرجى زيدان

منشء الهلال

الجزء الخامس

يبحث فى نظام الاجتماع وطبقات الناس والآداب الاجتماعية والمعيشة العائلية وحضارة المملكة وآثار المدنية وأبهة الدولة ومظاهر العظمة والفخامة

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

استاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهلال

مقدمة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي هو آخر أجزاء الكتاب . فنحمد الله لاننا وفقنا الى اتمام هذا العمل الشاق ، مع ما يعتوره من العقبات ويحتاج اليه من اعمال الفكرة والمراجعة لما توخينا فيه من التحقيق والتدقيق ، ولا سيما بعد أن عمدنا الى ذكر المراجع في هوامش الصفحات ، مع الاشارة الى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها . ولا يخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين اجزائه . ولكنه أماننا من الجهة الاخرى على الايجاز في بعض الاماكن ، اكتفاء بالاشارة الى خلاصة الموضوع واحالة القارئ في استيفائه الى المصدر الاصلى لئلا يخرجنا ايراده الى التطويل

على ان كثرة الموضوعات وتعدد فروعها وتداخلها ، قد حملنا أحيانا على ايراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله . وانما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الأدلة واحكام البرهان ، بتنسيق المقدمات ونتائجها وتفاديا من ارجاع القارئ الى بعض الاجزاء السابقة ، وان كنا لم نعمد الى هذا التكرار الا عند الضرورة ، لان وجهتنا الاولى في كتابتنا انما هي بسط العبارة وايضاح الموضوع ، حتى ينجلي للقارئ كأنه مجسم . على اننا كثيرا ما احلنا المطالع الى مراجعة ما سبق ذكره في اماكنه

والجزء الذي نحن بصدده أكثر سائر الاجزاء طلاوة وأقربها الى أفهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ، لانه يبحث في مثل ما الفوه من العادات والآداب مما تلذ مطالعته وتتوق النفس الى معرفته ، من الابحاث الاجتماعية والموضوعات العمرانية والاحوال العائلية ، مما يريده الناس عادة بقولهم « حضارة » أو « مدنية » ، وهو في الحقيقة بعض ظواهرهما على ما تبين لك في الاجزاء السابقة (*)

(*) يفرق الباحثون اليوم بين الحضارة والمدنية ، فالاولى تقابل مصطلح culture ويراد به أي تحسين في احوال البشر . واول من استعمل هذا اللفظ في ذلك المعنى هو الالمان ، فقالوا kultur وأرادوا به كل ما يوفق اليه الانسان من تحسين في احواله بالتجربة والتفكير . اما المدنية فيراد بها ما يصل اليه البشر من تقدم باجتماعهم بعضهم الى بعض . فرقى الانسان مثلا في عصور ما قبل التاريخ يسمى حضارة ولا يسمى مدنية ، اما رقيه بعد ان نشأت المجتمعات فيسمى مدنية - وقد قال ابن خلدون ان الانسان مدني بالطبع ، أي ميال الى الاجتماع بغيره للتعاون على شئون العيش ، ومن هنا تنشأ المدنية . وقد استعمل الاستاذ جرجي زيدان مصطلح « التمدن » وهو صحيح بنطبق على موضوع كتابه ، ونحن نقول اليوم « الحضارة الاسلامية » لان لفظ الحضارة يشمل المدنية ايضا ، في حين ان المدنية لا تشمل الحضارة

فموضوعات هذا الجزء سهلة على المطالع ، ولكنها شاقة على المؤلف ، لخلو كتب القوم من أمثالها على الاسلوب الذي تطلبناه في هذا الكتاب . ولو بحثت فيما كتبه أسلافنا في التاريخ والادب والعلم وغيرها ، ما رأيت لأحدهم فصلا ولا جملة ولا فقرة في نظام الاجتماع مثلا أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية أو الحضارة أو الأبهة ، الا ما قد يرد عرضا في أثناء النوادر أو الحكم أو التراجم أو الوقائع مما استعنا به في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة (*)

وأبحاث هذا الجزء تنتظم في أربعة أبواب كبرى :

(١) نظام الاجتماع

(٢) الآداب الاجتماعية

(٣) حضارة المملكة

(٤) أبهة الدولة

فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس ، ولذلك قدمنا الكلام بفصول في طبقاتهم قبل الاسلام في جزيرة العرب وما يحقق بها من البلاد العامرة في الشام والعراق ومصر وفارس وأفريقية ، ثم طبقاتهم بعد الاسلام وما طرأ عليها من التغيير في أيام الراشدين فالامويين فالعباسيين . وبسطنا الكلام في نظام الاجتماع في العصر العباسي ، فقسمنا الناس الى طبقتين كبيرتين : الخاصة والعامرة ، وجعلنا الخاصة أربع طبقات : الخليفة ، وأهله ، وأهل دولته ، وأرباب البيوتات . وأضفنا الى الخاصة طوائف من الناس يصح إلحاقهم بها سميناهم « أتباع الخاصة » وهم : الجند ، والاعوان ، والخدم . ويدخل في طائفة الخدم : العبيد ، والجواري ، والخصيان . وبينما ما كانت عليه كل طبقة أو طائفة في عهد ذلك التمدن

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين : الاولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائحهم أو هممهم الى اللحاق بالخاصة ، كأصحاب الفنون الجميلة وأهل الادب والشعر والغناء وأرباب التجارات الثمينة والصناعات العليا . . وذكر ما كان يكتسبه هؤلاء من الاموال المتدفقة من خزائن الدولة . وأما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الأمة ، وينقسمون الى فئتين : الاولى أهل القرى وهم السواد الأعظم ، والثانية عامة أهل المدن وهم أكثر سكانها ، ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى ، وبينهم طوائف العيارين

(*) وبما كان هذا الحكم صحيحا في الوقت الذي ألف فيه المؤلف كتابه ، اذ لم تكن الاصول الخاصة بالنظم ووجوه الحضارة الاسلامية قد نشرت بعد ، أما الآن فالمادة في هذا الموضوع وفيرة في كل ناحية من نواحي الحضارة والتنظيم السياسي او الاجتماعي ، وسترد الاشارة الى أهم اصول هذا الباب في تعليقاتنا على هذا الجزء

والشطار والمخنثين وغيرهم ، وذكرنا تاريخ كل منها (**)

(**) لتقى الدين احمد بن على المقرئى المؤرخ المصرى عبارة غاية فى الاهمية فى طبقات الناس وطوائفهم فى مصر على أيامه أوردها فى كتاب « افانة الامة بكشف الفضة » الذى فرغ من تأليفه سنة ٨٠٨ هجرية (نشر الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيبان ، القاهرة ١٩٤٠) وهو من أحسن ما كتب المسلمون فى الاجتماع والاقتصاد ونظام الدولة ، نوردها هنا على تواليها لاهميتها ولشابهة ما جاء فيها بمذهب المؤلف فى هذا التقسيم الاجتماعى :

١. الناس باقليم مصر فى الجملة على سبعة اقسام : القسم الاول اهل الدولة ، والقسم الثانى اهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البز ، ويلحق بهم أصحاب المعاش ، وهم السوق ، والقسم الرابع اهل الفلح وهم اهل الزراعات والحرف سكان القرى والريف ، والقسم الخامس الفقراء وهم جبل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والقسم السادس أرباب الصنائع والاجراء أصحاب المهن ، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السؤال الذين يتكفون الناس ويعيشون منهم

فاما القسم الاول ، وهم اهل الدولة ، فعالمهم فى هذه المحن على ما يبدو لهم ولن لا تأمل عنده ولا معرفة بأحوال الوجود له ، أن الاموال كثرت بأيديهم بالنسبة لما كانت قبل هذه المحن ، باعتبار ما يتحصل من خراج الاراضى ، فان الارض التى كان مبلغ خراجها قبل هذه الحوادث مثلا عشرين الف درهم صار الآن خراجها مائة الف درهم . وهذا الظن ليس بصحيح بل قلت اموالهم بالنسبة الى ما كانت عليه اموال امثالهم من قبل : وبيان ذلك أن العشرين الف درهم فيما سلف كان مالكم ينفق منها فيما أحب واختار ، ويدخر منها بعد ذلك ما شاء الله ، لانها كانت دراهم ، وهى قيمة الف مثقال من الذهب او قريب منها . والآن انما ياتيه بدل تلك المائة الف درهم فلوس ، هى قيمة ستمائة وستة وستين مثقالا من الذهب ، ينفق ذلك فيما يحتاج اليه فى اليوم من لحم وخضر وتوابل وزيت ونحوه ، وفيما لا بد له من كسوته وكسوة عياله ، وما تدعو اليه الحاجة من خيل وسلاح وغيره ، مما كان يشتريه قبل هذه المحن بمشرة آلاف من الفضة ونحوها . ولولا تساوى العالم من الخاصة والعامة بتفاوت ما بين سعر البيعات الآن وبين سعرها قبل هذه المحن لبينا ذلك ، ولا بد من الاملاخ بطرف منه ان شاء الله تعالى : فاهل الدولة لو ألهموا رشدهم ، ونصحوا انفسهم لعلموا أنهم لم يتلهم ربح البتة بزيادة الاطيان ، ولا بفلاء سعر الذهب الذى كان أصل هذا البلاء وسبب هذه المحن ، بل هم خاسرون ، وإن ذلك من تلبيس مباشرهم لتلهم ما يحبون من اغراضهم ، ولا يحقق المكر السوء الا باهله

وأما القسم الثانى ، وهم مياسر التجار وأولو النعمة والترف ، فان التاجر اذا استفاد مثلا ثلاثة آلاف درهم فى بضاعته ، فانما يتعوض عنها فلوسا او عشرين مثقالا من الذهب ، ويحتاج الى صرفها فيما لا غنى له عنه من مؤنته ومؤونة عياله ، وكسوته وكسوة عياله . فهو لو تأمل لاتفصح له انه لما كان أولا يستفيد فى مثل هذه البضاعة ألف درهم مثلا ، انها تغنى عنه فى كلفته أكثر مما تغنى عنه هذه الثلاثة آلاف درهم من الفلوس بكثير . فالبائس لعيانته يزعم انه استفاد ، والحقيقة انه انما خسر ، ولسوف مما قليل ينكشف له الغطاء ، ويرى ماله قد أكلته النفقات ، وأتلفه اختلاف النقود ، فيعلم فساد ما كان يظن ، وكذب ما كان يزعم ، ومن يضلل الله فما له من هاد

وأما القسم الثالث ، وهم أصحاب البز وأرباب المعاش ، فانهم فى هذه المحن يعيشون مما يتحصل لهم من الربح ، فان أحدهم لا يقنع من الفوائد الا بالكثير جدا ، وهو يعيد ساعات من يومه ينفق ما اكتسبه فيما لا بد له منه من الكلف ، وحسبه الا يستدين لبقيته حاجته ، ويقنع كما قال الاول:

على اننى راض بأن أحمل الهوى واخلص منه لا على ولا لينا

وأما القسم الرابع ، وهم أصحاب الفلاحة والحرف ، فهلك معظمهم لما قدمناه من شدة السنين وتوالي المحن بقللة رى الاراضى . وفيهم من أرى ، وهم الذين ارتوت اراضيتهم فى سنين المحل ، فنالوا من زراعتها اموالا جزيلة عاشوا بها هذه الازمنة ، على أن فيهم من عظمت ثروتهم، وفخمت نعمته ، ونال ما أربى على مراده ، وزاد على ما أمله ، والله يقبض ويسيطر واليه ترجعون

وأما القسم الخامس ، فهم أكثر الفقهاء وطلاب العلم ، ومن يلحق بهم من الشهود ، والكثير من أجناد الحلقة ، ومن شابههم ممن له عقار أو جار من معلوم سلطان أو غيره ، فهم ما بين

وأما الآداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية ، فذكرنا مناقب البدو كالعصبية والانفة والوفاء والسخاء والنجدة والأريحية والعفة ، وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجاً بتقدم القوم في معارج الحضارة ، وذكرنا الاسباب التي بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسي . وبسطنا الكلام في آداب هذا العصر بسطاً وافياً ، لأنه هو المراد بهذا الباب ، فقسمننا الكلام فيه الى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية ، فبيننا عفتها وانفتها في الجاهلية وأوردنا أمثلة ممن اشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأى ، وكيف تبدلت أحوالها في عصر الترف بما أدخله عليها الرجل من الجوارى والسراى ، حتى ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها . وأفردنا فصلاً لأسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب . وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصولاً في الطعام واللباس والماوى، فأجملنا تاريخ كل منها في أيام الجاهلية وما أحدثه فيه ذلك التمدن

ثم أتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة ، فقسمناه الى قسمين : أولهما العمارة (**) أو العمران ، وثانيهما الثروة والرخاء . والعمارة اما في المدن أو في القصور ، فأتيننا بأمثلة من عمارة أهم المدن الاسلامية ، وأشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها . أما الثروة فيدور الكلام فيها على أبحاث في ثروة الخلفاء والامراء وما تقتضيه من التأنق في الطعام والتنعيم باللباس والتزين بالاثاث والرياش والمجوهرات ونحوها . ثم القصف وما يلابسه من التسرى وعقد مجالس الغناء والشراب . ثم السخاء وقد نظرنا فيه من أيام الراشدين الى العباسيين ، وكيف تدوج القوم في مقدار الصلة ونوعها . ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والأدبية ، والمسكر وخلصصة أقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وانغماس الخاصة فيه ، فضلاً عن العامة وما نتج عن ذلك من التتهتك والاسراف والفحشاء

ميت أو مشتهى الموت ، لسوء ما حل بهم . فان أحدهم اذا أتته مائة درهم مثلاً فان ما يأخذ عنها فلوساً أو ثلثي مثقال ، ينفق ذلك فيما كان ينفق فيه من قبل عشرين درهماً من الفضة . فلحقهم من أجل ذلك القلة والخصاصة ، وساءت أحوالهم ، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويمفو عن كثير

وأما القسم السادس ، فهم أرباب المهن والاجراء والعمالون والخدم والسواس والحاكمة والبنائة والفلة ونحوهم ، فان أجرهم تضاعف تضاعفاً كثيراً ، إلا انه لم يبق منهم إلا القليل لموت أكثرهم ، بحيث لم يوجد منهم الواحد الا بعد تطلب وعناء ، والله عاقبة الامور
وأما القسم السابع ، فهم أهل الخصاصة والسكنة ، ففنى معظمهم جوعاً وبرداً ، ولم يبق منهم إلا أقل من القليل . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون « ص ٧٢ - ٧٥

(**) تطلق « العمارة » الآن كمصطلح على المنشآت من المباني وما جرى مجراها ، وهى تقبل لغظة architecture في الانجليزية والفرنسية

أما أبهة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء وأحوالهم ، من سداجة الراشدين وتقشفهم الى بدخ العباسيين وأبهتهم . وقسمنا البحث في هذا العصر الى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواقبهم واحتفالاتهم وعلاقاتهم بالدول المعاصرة وملابسهم وألعابهم وملاهيهم . ويتفرع القول في مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمناظرة وغيرها . فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلاس فيه وشروط الاستئذان في الدخول والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك . وقسمنا ملاهيهم الى فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمى البندق وارتباط السباع وغيرها

وذيّلنا هذا الجزء بجدول أسماء الكتب التي ذكرت في هوامش الاجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه ، فضلا عن فهرس هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد في تحرى الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما يبلغ اليه الامكان ، فان أحسننا فذلك قصدنا وأقصى مرادنا ، وان أسأنا فعن غير عمد منا وما العصمة الا لله وحده .

نظام الاجتماع

نظام الاجتماع في المملكة الاسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية في ابان التمدن الاسلامي ، وبيان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلاقاتهم بعضها ببعض . ولزيادة الايضاح نمهد بالكلام عن نظام الاجتماع على عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تينك الملكتين ، وما كان من تأثير الاسلام في ذلك النظام ، وكيف تدرج في الارتقاء من ايام الراشدين فالامويين فالعباسيين ، ثم نبسط القول في نظام الاجتماع في العصر العباسي

طبقات الناس قبل الإسلام

ويقسم الكلام في ذلك الى وصف طبقات الناس (١) في الشام والعراق (٢) في مصر (٣) في افريقيا (٤) في بلاد فارس (٥) في جزيرة العرب

١ - طبقات الناس في الشام والعراق

نريد بهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي (١) ، وسكان هذه البقعة اكثر امم الارض اختلاطا في اجناسهم واديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالت عليها من اقدم ازمنة التاريخ . وللعلماء ابحاث طويلة وآراء متضاربة في احوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من ابحاثهم أن اقدم من عرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين ، وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند ما بين النهرين شمالا شرقيا الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الاحمر غربا وشواطئ اليمن وحضرموت جنوبا فخليج فارس وبحر عمان شرقا ، وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب

والساميون ثلاثة فروع كبرى :

(١) الآراميون ، وهم القبائل السامية الشمالية . كانت مواطنهم فيما بين النهرين والعراق وسوريا الاقسما من شواطئها

(١) أى أن المراد ما بين دجلة والفرات ثم بلاد الشام بحدودها التاريخية وقبل تقسيمها الحالي ، أى من آسية الصغرى الى مشارف الجزيرة العربية

- (٢) العبرانيون ، وهم القبائل السامية الوسطى . وموطنهم في فلسطين وشواطئ سوريا
- (٣) العرب ، وهم القبائل السامية الجنوبية . ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سيناء (*)

الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية ، وانقسموا بتوالي الأجيال الى أمم اشتهرت في التاريخ ، أهمها أمة السريان فيما بين النهرين والعراق ، والكلدان في أعالي سوريا . وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السرياني والكلداني .

والعبرانيون يراد بهم أبناء ابراهيم عليه السلام ، وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية .

وأما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ، ومن

(*) كان لفظ الساميين يطلق على اهل الاقاليم التي تعرف اليوم بالشرق الادنى ، عدا مصر . وقد لاحظ العلماء ان هذه الشعوب تتشابه في الكثير من خصائصها الذهنية والجسمية ، فاللغات التي يتكلمونها متقاربة وقواعد هذه اللغات متشابهة وعاداتهم الاجتماعية وأفكارهم السياسية وأساليب حياتهم متقاربة . ولهذا فقد أطلق عليهم اسم واحد هو الساميون ، وتسميتهم بالساميين ترجع الى التوراة التي تجعل شعوب العالم ثلاثة انحدرت عن أبناء نوح وهم سام وحام ويافت . وقد ظل هذا القول مقبولاً عند عامة المؤرخين حتى العصور الحديثة ، وأخذ به نسبة العرب ومؤرخوهم ، بل ان إيرنست رينان أيد هذا القول في كتابه المعروف عن تاريخ اللغات السامية الذي نشره سنة ١٨٥٥ في باريس وأحدث به ضجة كبرى ، فقلد قال بالاصل المشترك للساميين وأيد قوله بتشابه لغاتهم وطرائقهم في التفكير ونظرتهم الى جزئيات الاشياء دون كلياتها وتأثرهم بالفهيمات ومعيلهم الى البساطة في التفكير وقولهم بالوحدانية ، ثم قال ان هذه الخصائص العقلية والجسمية ترجع الى عوامل بيولوجية متأصلة في طبيعتهم وورثوها عن أصلهم الواحد الذي تحدروا منه ، ومضى يقارن بينهم وبين الآريين ، ونشأت نتيجة لذلك نظرية الآرية والقول بامتيازها على غيرها من الاجناس ، وهو قول دفع اليه التعصب الاوروبي والنزوع الى الاستعمار والرغبة في ان يستقر في اذهان الناس ان الجنس الابيض اسمى من غيره وأن له الصدارة والقيادة ، وأن الناس لهذا ينبغي أن ينقادوا له ويسيروا في ركابه ، وقد بلغت هذه العصبية الآرية ذروتها على ايدى الالمان وخاصة النازيين . غير انه تبين بعد ذلك ان هذه كلها ان هي الامزاجم وخسرات لا يؤيدها الواقع او البحث العلمي ، فان شعوب العالم مختلط بعضها ببعض اختلاطاً يصعب معه القول بوجود شعب نقي الدم ، وأولئك الذين يسمون بالساميين ان هم الا خليط من شعوب واجناس كثيرة تلاقى في منطقة الشرق الادنى . ثم ان الاختلاف في اتجاهات التفكير عند الشعوب لا يرجع الى اختلاف في تركيب دماء أفرادها، بل ان ذلك متأثر بالبيئة الجغرافية والاجتماعية وظروف التاريخ وعلى هذا فالشعوب التي تسمى سامية ليست شعوباً نقية الدم متحدرة عن اصل واحد من أقدم الأزمنة ، وانما المراد بها شعوب تعيش في بيئات جغرافية متشابهة ، وهذه البيئات الجغرافية أوجدت ظروفاً اجتماعية متقاربة ، وقد خضعت هذه الشعوب لظروف تاريخية واحدة ، فكانت النتيجة ان تشابهت لغاتها وصور مجتمعاتها واساليب تفكيرها وربما أمكن القول برجوع اللغات السامية الى أصل لغوي واحد ، فالعبرية والعربية والآرامية والنبطية والسريانية ترجع كلها الى لغة أصلية تسمى السامية القديمة Ursemetisch يقال انها نشأت في قلب الجزيرة العربية ، ثم حملتها موجات الهجرات البشرية من داخل الجزيرة الى خارجها

فروعها أو أخواتها الحميرية والحبشية . وأقرب القبائل العربية الى الشام الأنباط ، وكان لهم شأن في أثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره
فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في اقدم أزمنة التاريخ ماهرة بشعوب سامية تتقارب نسبا ولغة . أما قبل نزول الساميين فكانت مقاما للأمم لا يعرف اصلها ، وكان الساميون اقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها ، وأخذ أولئك في الانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهالك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب : السريان ، فالكلدان ، فالفينيقيون ، فالعبرانيون ، فالأنباط . وخالطتهم أمم شتى غير سامية ، اقامت بين أظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم ، غير بقايا الشعوب الأصلية مما يطول بيانه ، ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعا وعاشت أديانهم وآدابهم وعاداتهم

على أن مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الأمم القديمة ، كالحثيين والآشوريين والفرس ، فكانوا يتناوبون فتحها أو اكتساحها وتتقاطر شعوبهم اليها . ولكن الأمر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر ، فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد ، وأوغل فيها وغرس في نواحيها بذور الحضارة الاغريقية ، وقد اختلطت هذه العناصر الاغريقية بعناصر الحضارات الاصلية في هذه البلاد ونشأ عن ذلك ما يعرف بالحضارة الهيلينية Hellenistic وتوافد اليها اليونان وأقاموا فيها واختلطوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطة الرومان . ولكن العنصر اليوناني مازال متغلبا عليها ، وأكثر تغلبه على سواحل بحر الروم . ويضعف شأنه في الداخل تدريجا ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ، ولا سيما اليهود فانهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين على نحو ما كانوا عليه في أيام داود وسليمان ، الا ما أصاب لغتهم من التغيير في أثناء السبي ببابل ، فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية أو الكلدانية ، وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين . أما من بقى من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم ، وأكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين وأعلى سوريا الى فلسطين

الأنباط (*)

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر

(*) تحدث المؤلف عن هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه « العرب قبل الاسلام » ، وقد علقنا على طبعته الجديدة بما فيه الكفاية

اليوناني ، وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي . وكان هناك في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد أمة عربية عرفت بالانباط أو النبط ، كان مقامهم وراء فلسطين غربا جنوبيًا على أنقاض الادوميين ، في بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia Petraea ، ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية الى الآن وفيها الابنية المنقوشة والتماثيل المنحوتة ونحوها . حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق.م بقيادة انتيجونوس وكان الانباط عشرة آلاف مقاتل . وذكر ديودورس أنهم يجتنبون الزراعة رغبة في الرحلة ، ويعيشون على اللحوم والالبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل ، وانما شرابهم الماء يحلونه بالبن وهو كثير عندهم . وكانوا يتجرون بالمر والاطياب يحملونها من شواطئ البحر الاحمر وبلاد العرب ، وبالخمر أو القار يحملونه من البحر الميت الى مصر ليستخدمه المصريون في التحنيط . وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك الا على يدهم ، والا فانهم يهاجمون القوافل وينهبون التجار . ثم تغلب عليهم البطالسة وقهروهم ، فتباعدا عن حدود مصر ونزلوا حوران ، ونبع منهم في القرن الاول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون اريتاس (الحارث) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيفا وأربعين سنة . ثم صار الانباط حلفاء الرومان في القرن الاول للميلاد ، وامتدت شوكتهم في اثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الاحمر

وظلت مدينة بطرا مركزا تجاريا بين الشرق ومصر ، حتى اكتشف الناس الطريق من القصر الى قفط على النيل فأخذت بطرا في التقهقر ، وكان الانباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب وركنوا الى الزراعة واووا الى المنازل وانغمسوا في الترف ، فجاءهم تراجان الروماني سنة ١٠٥ م فحاربهم واخضعهم واذلهم فذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم واخذوا الى الدعة ، واختلفوا بأهل البلاد الاصليين من السريان أو الآراميين ، وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات ، ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الامة هناك يتكلمون اللغة الآرامية أو السريانية ، لغة أهل العراق وما بين النهرين ، فحسبوا الانباط والعراقيين أمة واحدة فأطلقوا عليهم جميعا اسم «الانباط» ، والذي انفق عليه المحققون أن انباط بطرا وما يليها عرب ، وانما تكلموا الآرامية على اثر اختلاطهم بأهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم . ويظن علماء التوراة أن النبطيين ينسبون الى نباطوط من آباء التوراة (*)

(*) انظر من ذلك كتاب

René Dussaud. Les Arabes en Syrie avant l'Islam, (Paris, 1907).

ولما ضعف الأنباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق أجيال جديدة من العرب ، اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم أهل البادية ، أو ينصروهم فى الحروب التى كانت تنشأ بين تينك الدولتين قبيل الاسلام . فأقام حلفاء الروم فى جهات حوران وهم الغساسنة ، وأقام حلفاء الفرس على شاطئ الفرات فى الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ، ودافع كل منهما عن أصحابه . فكانوا مع بداوتهم وسداجتهم عونا قويا لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احدهما على الأخرى . ولنحو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم فيما بين النهرين والعراق ، وفيهم بطون من اباد وربيعة ولخم وتنوخ

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الأصليين ، وهم السريان فى الشمال والشرق ، واليهود والسامريون فى الجنوب ، وبقايا الأنباط فى الغرب ، يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل اباد وربيعة بين النهرين ، ويتخلل هذا المجموع شتات من أمم أخرى كالجراجمة فى جبل اللكام (١) والجرامقة فى الموصل (٢) وأخلاق من مولدى اليونان والرومان على الشواطئ ، ومولدى الفرس والأكراد فى الشمال . وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب أو الجنس أو اللغة ، فأصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينية ، كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة (**) وغيرهم . وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين احدهما بالآخرى ، والحزب الدينى عبارة عن حزب سياسى يستخدم فى تأييد الدولة ، فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق ، وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها ، والكلام فى تفصيل ذلك يطول

نظام الاجتماع فى الشام والعراق

أما موقف الأهالى من الحكومة فكان على غير المألوف بيننا ، لبعده النسبة

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٦٣ وما بعدها

(٢) مختصر تاريخ الدول لابن العبرى ، ص ١٣١

(**) يقال ايضا ملكائين نسبة الى ملكا ، وهم الذين على مذهب الدولة . اما اليعاقبة فهم المخالفون لمذهب الدولة ، ويقال لهم المونوفيزيون أى أصحاب القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ، وقد سمو اليعاقبة نسبة الى يعقوب البردعى الذى فنن مذهبهم وصاغه فى صورة ثابتة ، فنسب المذهب اليه ، وهم عامة أهل مصر ومعظم أهل الشام . أما النسطوريون فممنسوبون الى نسطوريوس ومذهبهم أميل الى مذهب اليعاقبة ولكنه يختلف عنه . والموارنة هم الذين يقولون بطبيعتين منفصلتين للسيد المسيح ، ومذهبهم قريب الشبه من الكاثوليكية ، بل هم اليوم معدودون ضمن الكاثوليك

بين الحاكم والمحكوم في تلك الايام ، ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن أهلها لغة أو دينا أو جنسا . فالرومان كانوا يعدون البلاد وأهلها ملكا لهم يتصرفون فيهم كيف شاءوا ، وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدون من توابع العقار ، فينتقل العقار من مالك الى آخر ، وفلاحوه معه يسمونهم **Serfs** أى الأبقان (جمع قن) ، الا الذين تسمو بهم همهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة أو الأدب أو التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين : طبقة الخاصة وهم الملك وأهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم ، والعامه أهل البلاد الأصليون وأكثرهم الفلاحون أو الأكره

فخاصة أهل الشام في العصر الروماني حكمها وهم البطارقة ، والبطريق غير البطريرك (**) . وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من أشراف المملكة الرومانية ، نشأوا مع مدينة روما وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية ، وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل ، فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق راوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع أهلها الا أهل السطوة والهيبة ، فعهدوا بذلك الى البطارقة ولوهم المستعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر ، وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليما ، على كل اقليم بطريق معه الجند كانه حاكم مستقل (١) . وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهى من الشمال الشرقى الى الفرات ، ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها ، وانما جعلناهما في كلامنا عن الأهالي ، لانهم وأهل الشام من أصل واحد كما رأيت

٢ - طبقات الناس في مصر

ان سكان مصر اقل اختلاطا بغيرهم من سكان الشام والعراق ، ومع ذلك فقد توالى الهجرة الى مصر من اقدم أزمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة أكثرهم من الفاتحين الغرباء ، فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام الأمر فيها هاجر اليها أهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح (***) . فيأتون على أن تكون

(*) البطريق هو النبيل ، وهو لفظ **patricius** اللاتينى ، أما البطريرك فهو **patriarch** ومعناه الاصلى أبو الاسرة أو شيخ القبيلة ، ثم استعملته الكنيسة للدلالة على القس الكبير أو شيخ القساوسة ، ثم أصبح رأس الكنيسة في المشرق في مقابلة البابا وهو رأس الكنيسة الغربية

(١) راجع تفصيل ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب

(**) هذا القول في حاجة الى تعديل، اذ من الثابت ان الفراعنة مصريون أصلا وقرعا، وهم ملوك مصر القديمة وهم من أهل البلاد توالى اسرهم على حكم البلاد من أيام الاسرة الاولى وأول فراعنتها مينا أو نارمر . وكان يحدث اذا غزا قوم من الاجانب مصر وأرادوا أن يقيموا لانفسهم فيها ملكا أن يتحجبوا الى الناس بادعاء المصرية وأخذ لقب الفرعون كما حدث أيام الهيكسوس وغيرهم ، وهذه الحالات معروفة ، وهى قليلة بالنسبة الى سلسلة الفراعنة المصريين الطويلة

اقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال ، ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا تمضى بضعة أجيال حتى يختلطوا بالسكان ويصيروا جزءا منهم ، كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين أنهم لا يزالون يميزون عصبيتهم على عصبية سائر رعاياهم ، حتى ينتقل الأمر من أيديهم الى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم ويندمجون في جملة الوطنيين . ناهيك بمن يأتى مصر للتجار أو الاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء

وكان الفاتحون يترفعون غالبا عن الاختلاط بسائر أفراد الأمة ، فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من أهل السيادة ، ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة ، وتقاطر اليونان في أيامهم بكثرة ، وكانوا يقيمون في الاسكندرية أو غيرها من العواصم ، واكثرهم من الجند أو التجار أو رجال الدولة لإدارة الحكومة . وكذلك كان شأن الرومان ، فانهم تولوا وادى النيل ستة قرون ، والروماني يجتهد في أن يميز نفسه عن المصرى لغة ومذهبا وخلقا ، وكانوا يقيمون في المعازل والحصون أو المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام

فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين :

(١) الرومان أو الروم ، وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والأجناد وبعض رجال الدين

(٢) الأهالى وهم الأقباط الاصليون ، يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة أو الخدمة أو غيرها ، من أهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية ، وكان بين الحكومة والأهالى فاصل آخر مذهبى ، فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون ، والأقباط على مذهب يعقوب البردعى وهم يعاقبه (*)

٣ - طبقات الناس فى افريقية

يريد العرب بافريقية البلاد الواقعة فى شمال افريقيا ، حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش (***) ، وهى فى الأصل مستعمرة سامية لبعض

(*) فى الفصول الاولى من كتاب « فتح العرب لمصر » يقدم الفريد بطلر صورة طيبة للمجتمع المصرى قبل الفتح الإسلامى . انظر ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٤٠
 (***) يطلق العرب « افريقية » على ما يعرف الآن بتونس فقط ، اما بقية الشمال الافريقى فكان يشتمل على المغرب الاوسط وهو يقابل الجزائر الحالية ، والمغرب الاقصى وهو يقابل المملكة المغربية الحالية (مراكش)

النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون ، بنوا فيها مدينة قرطاجة أو قرطجنة وأنشأوا دولة تعتبر شرقية باعتبار أصلها وأن كانت غربية في موقعها ، لأن أهلها ساميون ولغتها من أخوات اللغة العربية (**) . وقد حارب القرطاجنيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة ، فقطعوا إليهم البحار وجبال الألب حتى حاصروا روما وكادوا يذهبون بدولتها ، ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الأرض عما نعرفه ، ولكنهم أخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى أفنوهم وخرّبوا مدينتهم ، وتوالى على قرطاجة بعدهم أمم شتى كالرومان والوندال وغيرهم

أما أهل البلاد الأصليون فقد كان معظمهم قبل القرطاجنيين أقواما من الجنس البربري يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو . ولما ذهب القرطاجنيون وخلفهم الرومان وجدوا أهل تلك البلاد طبقتين ، أحدهما حضرية تتوطن السواحل فيما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة ، والآخرى تسكن الجبال والبادية ، فسماوا الأولى الموريتانيين والثانية النوميديين . وكان النوميديون من القبائل الرحل الأشداء فلم تقو الدولة الرومانية على اذلالهم بل كانوا كثيرا ما يهاجمون حاميتها في المدن ويعودون إلى جبالهم . ذلك كان شأنهم مع من فتح أفريقية بعد الرومان ، وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا أفريقية وأهلها طبقتان : الأولى أهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم من الأمم الفاتحة كالروم والوندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا ، والثانية النوميديون وهم لا يزالون على بدائنتهم وظلوا ممتنعين في جبالهم إلى أواخر القرن الأول للهجرة ، وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون في كتبهم ، ولهم شأن كبير في تاريخ الإسلام (***)

(*) لم تمتد دولة الفينيقية في أفريقية إلى أبعد مما يعرف اليوم بتونس ، أما الباقي فقد كانت سواحله بأيدي الرومان ونواحيه الداخلية يسيطر عليها البربر

(**) كان سكان المغرب قبل الفتح الإسلامي ثلاث طوائف : الأولى الروم أو البيزنطيون ، وكانوا يحكمون أفريقية (تونس) وربما امتد سلطانهم إلى بعض أجزاء من سواحل المغرب الأوسط والأقصى . وكان عددهم قليلا ، ولكنهم كانوا على درجة كبيرة من التحضر وكانت ديانتهم المسيحية ، وكان مركزهم الرئيسي ميناء قرطاجة . والثانية طائفة الأفارقة ، وهم جماعات من أهل البلاد خالطت البيزنطيين - والرومان قبلهم - وأخذت حضارتهم ولغتهم ودينهم ، وربما تزوجت معهم ، وكانوا قلة في البلاد ولكنهم كانوا يتولون الوظائف الكبيرة ويقومون بالتجارة وشؤون المال ، ومن هنا فقد كان لهم دور عظيم في تاريخ البلاد قبل الإسلام . والطائفة الثالثة هي البربر وهم أهل البلاد الأصليون والغالبية العظمى من سكانها ، وهم جنس أصيل قديم ينقسم بصفة عامة إلى قسمين كبيرين : الأول البربر المستقرون ، سكان السهول الساحلية وبعض الأراضي الصالحة للزراعة في الداخل ، ويسمون بالبربر البرانس ، والبربر الرحل الذين يسكنون البوادي والجبال ، ويعيشون عيشة قريبة مما كان عليه العرب الجاهليون ، ويسمون البربر البتر . ويمثل القسم الأول وهم البربر البرانس الصنهاجيون ، أما الرحل البتر فيمثلهم الزناتيون ، وكانت الحروب مستمرة بين زناتة وصنهاجة قبل الإسلام وبعده . أما الموريتانيون والنوميديون الذين يذكروهم المؤلف ، فأسماء أطلقها الرومان على سكان البلاد وهم البربر ، وكان الرومان يطلقون على سكان

٤ - طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي ، ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان وأذربيجان وأرمينيا وغيرها ، وهي تحوى شعوبا شتى من أمم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد أن طال العهد عليها . ولكنها تمتاز على أى حال عما يجاورها من سكان العراق والشام امتيازاً كلياً في الجنس واللغة والدين : أما الجنس فسكان بلاد فارس أكثرهم من الجنس الآرى وهو غير الجنس السامى الذى عمر الشام وما وراءها كما تقدم ، أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية أخوات لغات أوروبا وهي غير اللغات السامية ، وأما الدين فالمذهب الذى كان شائعاً في تلك البلاد قبل الإسلام هو الزردشتية أو المجوسية في حين أن ديانة أهل العراق والشام كانت النصرانية واليهودية

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الإسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد ، فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد فى حوزتهم ، فاقسما أمراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف ، حتى قام أردشير بن ساسان سنة ٢٢٤ م فجمع كلمتها بالسيوف وتوالى عليها أهله الى ظهور الإسلام ، وهى الدولة الساسانية

فلما ظهر الإسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين : العامة والخاصة . أما العامة فأهل البلاد الأصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قروناً بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الأتراك والديلم . وكانوا يسمون عند ظهور الإسلام « الطاجية » ، ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماماً (١) ولكنهم يريدون بها طبقة العامة ، والطاجية ضخام الأجسام أقوىاء الأبدان

وأما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجال الدين والأشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك وأهله تأتي طبقة الشهاجرة « شهريجان » أو الشهاجرة (٢) وهم أشراف السواد وأرباب الدولة كالبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين - وأحدهم دهقان - وينتسبون الى الملوك القدماء من

السواحل المغربية اسماً عاماً هو الماورى *mauri* جمع *maurus* وهو اللفظ الذى أتى منه *maure* الفرنسى و *moor* الانجليزى و *moro* الآسيانى بمعنى مغربى أو مسلم وربما عربى ، فأطلق الرومان اسم موريتانيا ، أى بلد الماورى على بعض نواحي الشمال الأفريقى ، وقد عرب العرب هذا اللفظ الى مرطانية ، وكان الرومان يقولون *Mauretania Caesariensis* أى مرطانية القيصرية وهى تعادل الجزائر الحالية تقريباً ثم *Mauretania Tingitana* أى مرطانية الطنجية ، وهى تعادل شمال المغرب الأقصى . أما النوميديون فهم عند الرومان سكان نوميديا وهى جبال الأطلس الوسطى

(١) الهلال ، ص ٩٩ سنة ١٣ (٢) السعودى ١٢٣ ج ١ .

الدول السالفة ، وهم أصحاب الأرض وفي أيديهم أكثر البقاع التي يستغلونها على رقاب الطاجية والدهاقين خمس مراتب ، وقد يتولون الامارات ويتعاطون الحكومة كأمرأ بخارا (بخارا خدا) فقد كانوا عند ظهور الاسلام من الدهاقين ، وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة (*)

وكانت مملكة فارس - عند ظهور الاسلام - فى حوزة الدولة الساسانية ، تقسم الى عمالات يتولى كل عمالة أمير يسمونه «مرزبان» ، وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود . على أن بعض العمال كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال فى أحكامهم ، ولا سيما فى الامارات البعيدة ، وكان بعضها مستقلا استقلالاً

(*) جاء فى كتاب « إيران فى عهد الساسانيين » تأليف آرثر كريستنسن Arthur Christensen (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٥٧) ص ٨٤ وما بعدها عن طبقات الناس فى إيران قبل الاسلام ما يلى :

« لقيت أحوال الحياة العامة والتنظيم الإدارى للدولة الساسانية تغييراً مختلفاً فى القرون الأربعة التى دامت فيها الامبراطورية التى أسسها أردشير ، ولكن الهيكل الاجتماعى والإدارى الذى أنشأه أو أكمله مؤسس الأسرة الساسانية قد بقى حتى نهايتها فى الأمور الكبرى وتذكر الأوستا الحديثة ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين (آثروان Athravan) وطبقة رجال الحرب (راثستار Rathaestar) وطبقة الزراع (واستريوفشويانت Vastryofsouyant) وهذا تقسيم إدارى يسمو الى الزمن الغابر . وتشير فقرة واحدة (ى - ١٩ - ١٧) الى طبقة رابعة هى طبقة الصناع (هويتى Huité) . ثم نجد فى أيام الساسانيين تقسيماً جديداً الى أربع طبقات . فقد أصبح الكتاب (ديبهران = دبيران) الطبقة الثالثة . وكون الصناع والزراع الطبقة الرابعة . وهكذا كان التقسيم الاجتماعى متمشياً مع الوضع السياسى فكان هناك الطبقات الأربعة الآتية أيام الساسانيين : ١ - طبقة رجال الدين (آثروان) ، ٢ - طبقة رجال الحرب (ارتشتاران) ، ٣ - طبقة الكتاب ، كتاب الدواوين (دبيران) ، ٤ - طبقة الشعب (الفلاحين - وستريوشان - والصناع - هوتخشان)

وقد قسمت كل طبقة الى عدة أقسام ، فرجال الدين منهم الحكام (دادور) والعباد ، وطبقتهم الأقل درجة والأكثر عدداً هى المغان (جمع مغ) والزهاد والسدنة الهيريدان (جمع هريد) ثم علماء مختلفون يشغلون وظائف خاصة ، ثم المراقبون (دستوران) ، والعلمون (مغان - اندرزبد) وتتكون طبقة المحاربين من الفرسان والرجالة ، ولكل من القسمين رتبة وموظفوه المختصون به وتنقسم طبقة الكتاب الى كتاب الرسائل وكتاب المحاسبات وكتاب الاقضية والسجلات والشروط وكتاب السير ويدخل فيهم الأطباء والشعراء والنجمون

وأخيراً فان الشعب كان يشمل الزراع والرعاة والتجار وسائر أهل الحرف . ولكل طبقة رئيس ، فعلى رأس رجال الدين الموبدان موبد ، وعلى رأس رجال الحرب إيران سياهيد ، وعلى رأس الكتاب إيران دبيريد (يسمى كذلك دبيران مهيست) ، وعلى رأس الطبقة الرابعة وستريوشا نسالار (وبعبارة أخرى وستريوشيد أو هتخشيد) . ولكل رئيس عارض تحت إشرافه ، مكلف بإحصاء أهل الطبقة ، ثم مفتش عليه ان يتحقق من معرفة دخول كل فرد ، وأخيراً معلم (اندرزبد) « لكن يلقن كل فرد حرفه او عملاً او علماً منذ الطفولة »

وهناك تقسيم اجتماعى آخر ظهر فى الأيام الأولى من الدولة الساسانية ويرجع من غير شك الى ما ورثته هذه الدولة عن دولة البرت . نجد هذا التقسيم فى النقش المسطور بلفتين فى حاجى آباد ، حيث يذكر الملك شابور الأول رمية سهمه المشهورة التى رميت فى حضور أمراء الدولة (شهرداران) ، ورؤساء أو أفراد العائلات الكبيرة عامة (واسبوان) والعظماء (بزركان) ، والأحرار أو النبلاء (آزادان) . وليس من اليسير تحديد الصلة بين هذا التقسيم الذى لا يشمل غير الطبقات الممتازة ، والتقسيم الآخر الذى يتعلق بالشعب عامة ، فان هذه الصلة لم تكن واحدة دائماً . وبالجملة فان نظام الطبقات كان غامضاً جداً

والاضطراب والتضارب الظاهران فى التقسيم الاجتماعى والسياسى للأمة بتصلان مباشرة بما كان بين نظامى الاقطاع والسيادة المركزية المطلقة التى ورثتها الدولة الساسانية عن دولة البرت ، وهذا الخلاف بين هذين العنصرين فى الاقطاع وسيادة الشاهنشاه ، هو المميز للتطور الاجتماعى والسياسى منذ أيام أردشير بابكان الى عصر الأكاكرة » . ص ٨٤ - ٨٧

تاما ويتخذ كل أمير لقباً خاصاً به ، مثل « رتبيل » لقب أمير سجستان ، و «رنجان» لأمير سمنجان ، و «جيفويه» لصاحب طخارستان ، و «اصبهيد» لصاحب بلخ ، و «باذان» لمرو الروذ ، « شهرك » للطالقان ، و «أخشيد» لصاحب فرغانة - وقس عليه * على أن بعض الولايات ، كمر و سرخس و طوس ، كان يتولاها المرازبة

وأكبر نفوذاً وسطوة من أشرف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية ، ويسمى المسيحيون المجوس ، واسمهم عند الفرس الموبدان واحدهم «موبد» ، وهم كالأساقفة عند النصارى ، رئيسهم يسمونه « موبد موبدان » مثل رئيس الأساقفة ، وكان نفوذهم فى الدولة يفوق نفوذ الملك (١) ومنهم القضاة أو من يقوم مقامهم فى الحكومة بين الناس

وكان فى بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة أو صفة يقيمون فى بلد أو ينتقلون فى البلاد ، كالأساورة والسيابجة والزلط والأحامرة ونحوهم (٢)

ه - طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت أن سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الأراميين والعبرانيين ، ولكنهم لم يصبهم ما أصاب اخوانهم فى العراق والشام من الاختلاط ، لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحدق بها من البوادرى التى يعسر سلوكها على الجيوش . وقد هم بها الأشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل ، حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الأحباش قسمها الجنوبي (اليمن) وعجزوا عن الحجاز ، فاستنصر اليمانيون الفرس فنصروهم وأخرجوا الأحباش وحلوا محلهم واختلطوا بأهل اليمن وعرفوا بالأبناء الأحرار

على أن بلاد العرب كانت ملجأ النازحين من الشام أو مصر أو العراق ، فراراً من ظلم أو ضغط أو امتناعاً على الحكومة لسبب من الأسباب * وأكثر الأمم نزوحاً إليها اليهود ، لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى أن اضطهدهم الروم فى عهد طيطس وغيره - وهاجر اليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والأحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد . ومع ذلك فإن العرب ظلوا مستقلين بأنسابهم وعاداتهم وآدابهم * ويقسمون باعتبار النسب أو الوطن الى : قحطانية أو يمنية ، وعدنانية أو حجازية * وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومصرية ، وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم فى الجزء الرابع من هذا الكتاب

(١) Le Christianisme dans l'Empire Perse, 6

(٢) البلاذرى ٣٨١

نظام الاجتماع في عصر الراشدين

بينما في الجزء الرابع ما أحدثه الاسلام من التغيير في العصبية العربية ، وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الاسلام ، كالمهاجرين والانصار وأهل بدر وأهل القادسية ، وما اقتضاه النسب الهاشمي أو القرشي من العصبية الجديدة ، ومنهم طبقات الاشراف من العلويين أو العباسيين وأبناء الانصار والمهاجرين ، على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات (١) وما يلحق بذلك من طبقات التابعين وتابعي التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كآل الزبير وآل أبي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح . فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الاسلام (**)

وعندما سار العرب لفتح الشام والعراق كان أول من لقيهم على حدودها العرب أبناء لغتهم وأهل عصبيتهم ، ولما أوغلوا في هذين البلدين استأنس أهلها باللسان العربي لقربه من لسانهم الآرامي أو السرياني، مع بعد لسان حكاهم يومئذ الرومي أو الفارسي عنهم - فكان ذلك من جملة ما مهد لهم أسباب الفتح . أما طبقات الناس الاصلية في هذين القطرين فقلما أصابها تغير في عصر الراشدين ، لأن المسلمين لم يكونوا يخاطونهم ولا يدخلون في شيء من أحوالهم الادارية أو الدينية أو السياسية ، وانما كان همهم اقتضاء الجزية والحراج وحماية من دخل في ذمتهم من أهل الكتاب . فكانوا يقيمون في مضاربهم أو معاقلمهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري - الا من دخل في حوزتهم من الأرقاء بالأسر أو السبي ومن أعتقوه قصار من الموالى (***) وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب .

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب

(*) يريد المؤلف بذلك ان الاسلام احدث تغييرا حاسما في التنظيم الاجتماعي للعرب، فبعد ان كان الناس قبائل تتفاضل فيما بينها ويتفاضل أفرادها فيما بين بعضهم البعض بحسب مقاييس الشرف والرياسة في الجاهلية ، نشأت مراتب جديدة للناس تقوم على السابقة في الاسلام والامتياز في الميادين الجديدة التي فتحتها امام الناس من سياسية وعلمية . والبيوتات الاسلامية التي يذكرها بيوت عربية في نفس الوقت ولكنه يريد ان يقول ان اساس ظهورها وامتيازها كان الاسلام قبل العروبة

(**) يصدق هذا الكلام على مصر وفارس ولكنه لا يصدق تماما على الشام والعراق، فقد بدأ اختلاط العرب بأهلها بعد الفتح مباشرة ، وقد ذكر المؤلف ما يؤيد ذلك عندما قال ان الكثير من سكان الشام قبل الاسلام كانوا من العرب ، وكذلك كانت قبائل عربية كثيرة ضاربة على حدود العراق وما بين النهرين ، فمن الطبيعي أن يبدأ اختلاط العرب بأبناء عموماتهم في هذين القطرين بعد الفتح مباشرة . وقد درس دوسو Dussaud في كتابه الذي أشرنا اليه من العرب في الشام قبل الاسلام خطوات هذا الاختلاط ، وقد ألف كوسان دي برسيفال كتابا شاملا عن العرب قبل الاسلام تحدث فيه عن عرب الشام والعراق وشبه جزيرة سينا وصحراء مصر الشرقية حديثا وأفيا نشير على من يطلب الاستزادة في هذه الناحية بقراءته :

Caussin de Perceval. Essai sur l'histoire des Arabes avant
l'Islamisme. 3 volumes, 2^e éd. Paris, 1920

وهم المسلمون من غير العرب ، ولهم شروط وأحوال تخالف ما للعرب على ما بيناه في الجزء الرابع

نظام الاجتماع في عصر الأمويين

كانت قصبة الاسلام على عهد الراشدين في المدينة بجوار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فنقلها الأمويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة ، وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم ، فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر في أقصى الشرق . وركبوا بحر المجاز (مضيق جبل طارق) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى منتصف غالة وهي ما يعرف الآن بفرنسا ، ونصبوا أعلامهم على أعظم مدائن الفرس والترك والروم والاسبان والافرنج ، وهددوا القسطنطينية . وحولوا الاحتلال المؤقت الى السيادة الدائمة ، وأقاموا دولة الاسلام في هذه الاقطار وأيدوها بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية ، وبعد أن كانت تلك الدواوين يتولاها أهل البلاد غير المسلمين جعلوها في أيدي المسلمين . وضربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس ، ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلا من الصور والرموز . ونقلوا طراز الدولة من اليونانية أو الفارسية الى العربية - فال ذلك كله الى انتشار العرب في الارض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية .

وقد استمسك العرب بعصبيتهم خلال العصر الاول الذي تلا الفتح، وفرقوا بين أنفسهم وبين الموالي تفرقة واضحة . وانقسموا هم أنفسهم الى قحطانيين وعدنانيين . وظل العرب في أيامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وسذاجتها وآدابها

طبقات الناس في العصر الأموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين ، فكان الناس طبقتين كبيرتين : المسلمين وغير المسلمين . والمسلمون طبقتان : العرب وغير العرب وهم الموالي . وظل غير المسلمين، وهم أهل الذمة من القبط والانباط والروم والفرس وغيرهم ، على ما كانوا عليه قبل الاسلام - الا من دخل منهم في خدمة المسلمين من الأطباء والكتاب والمترجمين فقد نشأت منهم طبقة جديدة من أهل الذمة لم تكن قبل الاسلام . هذا الى ما حدث في أثناء الفتوح الأموية والحروب الأهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر ، كانتقال السبابة والزط الى سواحل الشام في أيام معاوية، ونقل الحجاج لجماعة من زط السند الى العراق واسكانه اياهم بأسافل كسكر، وسبى عبيد الله بن زياد خلقا من أهل بخارا وانزله اياهم بالبصرة . ولما بنى

الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فأقاموا فيها وتناسلوا (١) فضلا
عن كانوا يصطحبونهم أحيانا في حملاتهم البعيدة للفتح أو الغزو، فقد يكون
في الحملة جماعات من البرابرة والانباط والاقباط والجرامقة والجراجمة (٢)
فهؤلاء اذا فتحوا بلدا أقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا بأهله

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية في أيام الأمويين كانت في بدء انتقالها من
حالتها القديمة في عصر الروم والفرس الى حالها الجديد الذي ستكون عليه في
العصر الاسلامي. ولم يتم ذلك الانتقال وتكيف هذه الهيئة الاجتماعية بشكلها
الخاص بالاسلام والتمدن الاسلامي الا في العصر العباسي ، لترفع الأمويين عن
الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقاء على البداوة . ومع أيغال جنودهم في
بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر والمغرب والاندلس فانهم قلما اختلطوا
بأهلها أو اقتبسوا منهم أو قلدوهم في شيء من عاداتهم وأخلاقهم ، الا ما
اتخذوه من الحرس والبريد والسريين على ما يأتي بيانه . أما العباسيون فنظرا
لتغلبهم بالموالي على الأمويين فقد جعلوا مقامهم بين أشياعهم الفرس ، فبنوا
بغداد على الحدود بين الفرس والسريان ، أو بين الآريين والساميين ، أو بين
المجوس والنصارى ، وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال
الدولة ، فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية

(١) البلاذري ٣٨٤

(٢) البيان والتبيين ١١٤ ج ١ وابن الاثير ٣٥ ج ٥

نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة انما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي، عندما نضج الشمدن الاسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن ، وكان على اتم أشكاله في مدينة بغداد قسبة العالم الاسلامي ، فهي أوضح أنموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر كان الناس في العصر العباسي طبقتين : الخاصة والعامة ، تحت كل منهما طبقات وأتباع وفروع سيأتي تفصيلها :

طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات : (١) الخليفة (٢) أهله (٣) رجال دولته (٤) أرباب البيوتات (٥) توابع الخاصة

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية (١) فأحر بمن كان هذا منصبه أن يعظم الناس شأنه ويتقربوا اليه بالطاعة وبذل الخدمة والتزلف بالمدح والاطراء * وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواقبهم والآداب المتبعة في مخاطبتهم وغير ذلك في باب أهبة الدولة من هذا الجزء

وأهل الخليفة هم بنو هاشم ، وكانوا أرفع الناس قدرا بعده ويسمونهم الأشراف وأبناء الملوك (٢) فاذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي، وسائر الناس دونهم على الوسائد أو البسط ، الا هو فانه يجلس على السرير * وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال ، فضلا عما ينالونه من النعم والهدايا بحسب ما يتراءى للخليفة في أمرهم ، فاذا خاف تطاول أحدهم للملك أثقل يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء - تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم * وكان الهاشميون في أوائلها عونا كبيرا في تأييدها، يتولون الاعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأى والسياسة * فلما تأيدت أصبح الخلفاء يخافون مطامع أهلهم ، فأخذوا يبذلون لهم الاموال ، فمن أعجزهم كف أذاه بالمال عمدوا الى الفتك به - باشر ذلك أبو جعفر المنصور وسار الخلفاء على خطته ، فكانوا يعطون أهلهم الرواتب الباهظة والهدايا

(١) راجع الجزء الرابع
(٢) المسعودي ١٧٧ ج ٢ وغيره

الفاخرة ويسهلون عليهم أسباب القصف واللهو ليشغلوا بذلك عن طلب
الملك وتعجز همهم عن النهوض

فكان الهاشميون في الغالب من أهل السعة والرخاء ، يتمتعون بشرف
الملك ولا يحملون أوزاره وأعباء تبعته ، فانغمس أكثرهم في الترف وانهمكوا
في الشراب والغناء وأبتنوا القصور الشام والحدائق الغناء ، واستكثروا من
الجواري وجمعوا اليهم المغنين والقيان وقربوا الشعراء والأدباء وأكثر مقامهم
في البصرة ، بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولاء الخليفة عملا أو
جندا * واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان، فقد بلغت أمواله
نيفا وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور ، وكانت غلته ١٠٠٠٠٠ درهم
في اليوم (١) وبلغت ثروة خنثة بنت عبد الرحمن الهاشمي مالا يسعه الديوان (٢)
ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم

وأما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم
من أرباب المناصب العالية * وكان أكثرهم في ابان الدولة العباسية من الموالي
وخصوصا الفرس ، كالبرامكة وآل سهل وآل وهب وآل الفرات وآل الخصيب
وآل طاهر وغيرهم * وكانوا يختلفون نفوذا وسطوة باختلاف الخلفاء وثقاوت
أدوار التمدن ، ولكن الوزارة كانت على الاجمال من أوسع أبواب الكسب على
ما بيناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب

أما أهل البيوتات فهم الأشراف من غير الهاشميين ، ومرجع شرفهم الى
اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي أو بقريش ، وكان الخلفاء يراعون جانبيهم
ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم * على أن هذه
الأنساب كانت أكثر نفعا لأصحابها في عهد بني أمية منها في أيام بني
العباس ، ولا سيما بعد ضعف العنصر العربي بقتل الأمين * فلما أفضى
الامر الى المعتصم قطع رواتب الأشراف في جملة ما قطعه من أعطيات سائر
العرب ، وربما أعيد بعضها بعد ذلك على غير قياس

اتباع الخاصة

وللخاصة أتباع أخرجوه من طبقات العامة بما خصوهم به من أسباب
القربى والخدمة وهم أربع طبقات : (١) الجند (٢) الأعدان (٣) الموالي (٤) الخدم
فالجند فرق كثيرة تختلف أصلا ونظاما على ما فصلناه في الجزء الاول من
هذا الكتاب ، وقد يتبادر الى الذهن قياسا على المألوف عندنا أن الجند رجال

(١) السعدي ١٨٨ ج ٢

(٢) الاثليدي ١٥١

الخليفة يأترون بأمره . وقد يكون بعضهم كذلك ، لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الآن ، لأن بعض الخاصة من الوزراء والعمال كانوا يجندون رجالا ينفقون عليهم من أموالهم ، وقد يتساعون غلمانا ويربونهم للاستعانة بهم على أعدائهم وقت الحاجة ويسمونهم بأسمائهم . وقد يذهب الوزير أو العامل وينتقل جنده الى غيره ويبقى معروفا باسمه . فاجتمع في بغداد من الأجناد طوائف كثيرة تنتسب الى أصحابها، كالساجية والنازوكية والبيلىغية والهارونية ، وفيهم الأتراك والفرس والبرابرة والأحباش والاكراد . ومن هذا القبيل الفرق العزيبية والأخشيدية والكافورية في مصر مما لا يحصى ، ومن تلك الفرق ما هو من قبيل الضابطة أو نحوها كالشاكرية، أو مجرد حماية القصور أو غير ذلك (*)

أما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ، ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق أو الاصدقاء اليوم ، فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والاشرف رفاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يفتضونها . ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة أو الأمير ، وهم غير الندماء أو الشعراء وإنما هم رجال من أهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة أو الأمير أو الشريف بمجالسته ، فيفاوضهم في شؤونه ويركن اليهم في مهامه وتكون لهم الدالة عليه ، وربما كان بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذرى قرابته

وأما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، وبيننا أحوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد

الخدم

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الأرقاء السود والبيض من الذكور والاناث ، وقد اصطلحوا أن يسموا الأرقاء البيض مماليك والسود عبيدا، ويقسم الكلام في الخدم الى ثلاثة أقسام : الأرقاء والحصيان والجواري

(*) لا يطلق الخدم الا على عسكري صاحب الامر من خليفة او عامل او أمير على ناحية . أما من يقتنيهم غير صاحب السلطان من الرجال فيقال لهم الغلمان ، وكان كبار الناس والإخفاء يتخذون الغلمان لحراستهم وحماية بيوتهم . وفي العصر العباسي الاول لم يكن يباح للقادة أن يستكثروا من غلمانهم الخاصين بهم أو يتخذوا لانفسهم جندا الا اذا كانوا عمالا على النواحي ، ومع ذلك فقد كان جندهم في هذه الحالة الاخيرة يعتبر جندا للدولة ، فاذا عزل عن الولاية لم ينتقل جنده معه . وخلال العصر العباسي الثاني ، عندما صار الامر للقواد ، أصبح كل منهم يحرص على ان يكون له جند خاص ، بل اجتهد بعضهم في أن يكون جند الدولة الذين يقودهم وكانهم جنده خاصة ، وكان يأخذ رواتب جنده من خزانة الدولة ويفرقها فيهم ، واذا كان عاملا على ناحية أعطى جنده ارزاقهم من الخراج ، واذا تأخر عطاء الخدم طالب لهم به . ومعظم انواع الاجناد الذين ذكرهم المؤلف هم اجناد قادة عسكريين او عمال نواح ، أما فيما يتصل بمصر فإن العزيبية هم جند الخليفة العزيز بالله الفاطمي والأخشيدية جند محمد بن طنج وأولاده والكافورية جند كافور الاخشيدي ، أي أنهم كانوا فرقا من جيش الدولة

١ - الأرقاء

فى الجزء الرابع من هذا الكتاب فصل عن الرق فى الإسلام ومصاـدره وأحكامه ، وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم فى الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء ، فنأتى فى هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع

قلنا فيما تقدم عن طبقات الناس قبل الإسلام ان العامة من أهل البلاد الأصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يثنون تحت نير الاستعباد ، وبعضهم أرقاء فعلا ولا سيما الأقبان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك . فهؤلاء العامة جاءهم الإسلام رحمة لا أنهم تحولوا من الرق الى الحرية أو الى العهد (**) ، فمن أسلم صار حرا له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن ظل على دينه دخل فى ذمة المسلمين يدافعون عنه ما أدى الجزية، الا من حاربهم وأسروه فهو ملك لهم يتصرفون به كيف شاءوا . ولكن أكثر الذين حاربوا المسلمين فى صدر الإسلام من حامية البلاد وهم الجنود من الروم أو الفرس لم يكونوا من عامة أهل البلاد المظلومين . فمن دخل من الحامية فى أسر المسلمين صار ملكا لهم ، وكان للمسلمين بعد ذلك أن يطلقوا سراحهم أو يعتقوهم ، ولكن الغالب أنهم كانوا يدخلون الإسلام ويصبحون فى جملة الموالى ، وقد زعم بعض أمراء بنى أمية استعباد أهل البلاد المفتوحة عنوة أو اعتبار المسلمين غير العرب من الموالى ، ولكن الشريعة الإسلامية لم تجز لهم ذلك ، فأنكره العلماء وذوو الرأى فلم يلبث أن رجع عنه من أراد من القواد ورجال الدولة . وقد كانت تصرفات أولئك القواد والأمراء من بين الأسباب التى دفعت الى الثورة على بنى أمية . فلما قامت الدولة العباسية تلاشت هذه النزعات نهائيا

كثرة الاسرى والارقاء

وتكاثرت الاسرى فى أثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالالوف ويباعون بالعشرات - اعتبر ما كان من ذلك فى الصدر الاول وما تبعه من الفتوح البعيدة فى أيام بنى أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ فى افريقية ٣٠٠٠٠٠ رأس من السبى ، فبعث خمستها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبى أعظم من هذا (١) وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط

(**) يريد أنهم أصبحوا معاهدين للمسلمين ، والمعاهدون هم أهل الذمة ، فكان يقال : لهم عهد الله ورسوله ، أو لهم ذمة الله ورسوله
(١) نفع الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤

وأعيانهم (١) وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها (**) وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠٠٠٠ نفس (٢) وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن اينال سببا المسلمون ١٠٠٠٠٠ رأس غير الدواب (٣) . وفي جملة غنائم الحرب ، فضلا عن الأسرى من الرجال ، جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة * وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم - ذكروا أنه بلغ من كثرة غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالاندلس أن بيع الأسير فيها بدرهم والسيوف بنصف درهم (٤) والبعر بخمسة دراهم ، وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين ، غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفه كل سنة من تركستان (٥) وبلاد البربر وغيرها

معاملة الأسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامير قسمتها على القواد ، بعد ارسال الخمس إلى بيت المال ، ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطيء القاهرة فينزلون الأسرى ويطوفون بهم القاهرة ، ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الذكور ، فينظرون فيهم فاذا استرابوا في أحد قتلوه ، ومن كان شيخا لا ينفع ضربوا عنقه وألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة * ومن بقى يضاف الرجال منهم الى من في المناخ، ويمضى بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة ، بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل * ويدفع الصغار من الأسرى

(١) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤
 (**) هذه المبالغ من اختراع القصاص والرواة ، وقد نقلها الكثيرون من محققى المؤرخين دون تدقيق او نظر ، ومن المعروف ان مؤرخى المسلمين عامة لا يدققون في الارقام ، بل كانوا اميل الى الاخذ بالمبالغ فيه منها على اعتبار أن ذلك يكسب التاريخ طلاوة وغرابة * وقد اخذ ذلك ابن خلتون عليهم في الفصل الاول من مقدمته المشهورة ، وأورد أمثلة من مغالط المؤرخين واهامهم في الارقام والاعتداد . أما ما يذكره المؤلف عن سبى موسى بن نصير رواية عن نفع الطيب للمقرى فأصله في فصول من كتاب الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة خاصة بموسى بن نصير ، ويرجح أن هذه الفصول ليست جزءا من الكتاب وانما هي قطعة من تاريخ قصصى لموسى بن نصير كتبه احد احفاده المعروف بمعارك النصيرى

(٢) ابن الاثير ٤٦ ج ١٠

(٣) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩

(٤) نفع الطيب ٢٠٩ ج ١

(٥) المقرئى ٣١٣ ج ١

الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم اذ ذاك «الترابي» وقد يرتقى أولئك الصبيان الى رتب الامراء (١) (*)

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصورة خاصا بالمسلمين ، بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر ، فمن يقع من المسلمين في أيدي أعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية في فكك الأسرى يبذلون في سبيله المال أو يعطون أسرى عندهم على سبيل المبادلة • ومن هنا نشأ ما يعرف « بالفداء » في تاريخ العلاقات بين المسلمين والروم ، لان الحرب كانت سجالا بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضا ، فاحتاج الجانبان الى تنظيم عملية فداء الأسرى ، فكانوا يتفقون على اللقاء في موضع معين لتبادل الأسرى ، فيتبادلونهم واحداً بواحد ، حتى إذا زاد عند أحدهم عدد من الأسرى افتداه الجانب الآخر بالمال • وكان الأمويون يفتدون أسراهم أحيانا وعلى قلة ، النقر بعد النقر ، في سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود • وأول فداء منظم وقع في أيام بنى العباس على يد الرشيد كان سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة في أثناء ١٥٠ سنة • وتزايدت عناية المسلمين في فكك أسراهم حتى أصبح أهل الروع من الاغنياء يقفون المال على فككهم (٢)

أما الروم فقلما كانوا يفتدون أسراهم بالمال ، ولعل السبب في ذلك أن أولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيما من رعاياهم أو أجنادا من الغرباء المأجورين وليس من الروم أنفسهم ، أما المسلمون فهم غالبا المهاجمون ، فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللقيف واذا غلبوا فمن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقا منها بين الروم ورعاياهم وأجنادهم • على أن المسلمين كثيرا ما كانوا يأبون المال بدل الأسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها فادت أسيرا من الافرنج بمال ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الأرقاء عند المسلمين

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أو مائة أو ألفا ؟ حتى الفقراء من عامة الجنود كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) وكان للفارس في عصر

(١) القريري ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١

(*) الاستاذون جمع استاذ ويراد بهم في المصطلح الفاطمي المربون الذين يربون الخدم والرقيق في تصور الخلفاء ويعنون بشؤونهم

(٢) القريري ٧٩ و ١٩١ ج ٢

(٣) المسعودي ٢٢ ج ٢

الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه أو بضع عشرات إلى مائة (١) فكيف بالأمراء والقواد؟ حتى في صدر الإسلام، فإن الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله (٢) فاعتبركم يكون عددهم في أيام الشروة والترف، فقد كان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشى في ركابه مائة عبد أو بضع مئات أو ألف عبد (٣) وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والى خراسان سنة ٢٨٩ هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاية خراسان قبله مثله

اصناف الأرقاء

وكانوا إذا تكاثروا الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيبا يتولى النظر في شئونهم يسمونه الأستاذ . على أن الغالب في الغلمان إذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندا يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال . فقد كان عند الأخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة القان . وأكثر فرق الجنود عند الأمراء من غلمانهم ، وأصلهم من السبى والأسرى أو يتعاونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجنود ، وربما بلغ تمن المملوك ألف دينار

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فمنهم الفراش والطباخ والحازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابى وغيرهم (٤) ومنهم الوصيف والمملوك ، وفيهم التركي والفارسى والبربرى والزنجى والصقلبى بين مجلوب ومولد من الذكور والانات مما لا يحصى

وإذا زادوا عما يحتاجون اليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم ، وكان يفعل ذلك أهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء ، فانهم تأنقوا في تزيينهم بأنواع اللباس المزخرفة مما لم يسبق له مثل . وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد فإنه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان ، وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم زينة الجوارى . ثم صار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠٠ غلام أو مملوك ، وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترک والطبرية وغيرهم ، والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافرريقية . والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذى ثار بالبصرة ، وهم غنم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة ، وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا

(١) المقرئى ٦٥ ج ١

(٢) الدميرى ٤٩ ج ١

(٣) ابن الأثير ١٤٧ ج ٤ والاغنى ٣٧ ج ١

(٤) طبقات الأطباء ١٤١ و ١٤٥ ج ١

وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (١)

٢ - الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاثوريين والبابليين والمصريين القدماء ، واخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج . ويقال ان اول من استنبطها سميراميس ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد - وكان المظنون ان الخصاء يذهب بقوة الرجولية ، وفي التساريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد جوستينيان في القرن السادس للميلاد ، وهرمياس حاكم اثارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف ارسطو ذبيحة عن روحه غير مذكوره فيه من القصائد . وممن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدى صاحب مصر . واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الخصيان في اواخر الدولة الرومانية استبدادا كبيرا

وللخصاء اغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهله استخدموا الخصيان في دورهم ، واول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فاتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه فتح ، واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية اميل الى تحريمه ، على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مطعون

وكانت تجارة الرقيق شائعة في اوروبا قبل الاسلام . ومن اسباب رواجها ان قبائل الصقالبة (الروسين) نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ، ثم اخذوا ينزحون غربا جنوبيا نحو اواسط اوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف (الصقالبة او السكلاف) والصرب والبوهيم والدماشيين وغيرهم . فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالكسوس والهون وغيرهم . وكان من عادات اهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا ، وقد يحملونهم الى افريقية والشام ومصر . فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من الصقالبة والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرهما الى ضفاف الدانوب وشواطئ

(١) تاربخ الوزراء ١٢

البحر الأسود - ولا يزال أهل جورجيا والجرس الى اليوم (حوالى ١٩١٠)
يبيعون أولادهم بيع السلع - فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء
أمامهم سوق الأغانم ، وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال ، وفيهم
الذكور والانات حتى يحطوا برجالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى أسبانيا
(الأندلس) فكان المسلمون يتناعون الذكور للخدمة أو الحرب والانات للتسرى .
وغلّب على أولئك الأرقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم
« سكلاف » فعربها العرب « صقلبي » وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على
الرقيق الأبيض بالاجمال . وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ويراد
به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان - وفعل الأفرنج نحو ذلك أيضا
فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها esclave في الفرنسية
و Sklave في الجرمانية و slave في الانجليزية

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطانهم واستخدموا الخصيان في
دورهم ، عمد تجار الرقيق - وأكثرهم من اليهود - الى خصاء بعض الأرقاء
وبيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وأنشأوا
« لاصطناع » الخصيان معامل عديدة أشهرها « معمل » الخصيان في فردان
بمقاطعة اللورين في فرنسا . وكان اليهود يخصون أولئك المساكين وهم أطفال
فيموت كثيرون منهم على أثر العملية ، فمن بقى. حيا أرسلوه الى أسبانيا
فيشتريه الكبراء بثمن كبير . وأصبحوا بتوالى الأزمان يتهادون الخصيان كما
يتهادون الخيل أو الأثاث أو الأنية ، فكان ملوك الأفرنج اذا أرادوا التقرب من
خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ومن جملتها الخصيان ، كما
فعل أمير برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس
فانهما أهدياه ٢٠ خصيا من الصبيان الصقالبة و ٢٠ قنطارا من صوف السمور،
التي . فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق الحراسة الخاصة،
كما تألفت الفرق من سائر الممالك والعبيد . فاذا احتفل الخليفة ببيعة أو
نحوها كان الممالك والخصيان زينة ذلك الاحتفال

وراجت تجارة الصقالبة في ابان التمدن الاسلامي ، وكل ما كان يفد على
المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها،
غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسببه الخراسانيون ويحملونه
للبيع ، لأن بلد الصقالبة طويل يسببه الأفرنج من الغرب والخراسانيون من
الشرق (١)

٣ - الجوارى

تكاثرهن

للجوارى شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامى لا يقل عن شأن العبيد والموالى، وأصل الجوارى مايسببه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك أو الدهاقين ، يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يتصرفون فى بيعهن تصرف المالك بملكه (١) ولما أفضت أحوال المسلمين الى الترف والقصف وتدفعت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلوى والجواهر . فمن أخب التقرب من كبير أهدي اليه جارية اتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها - فاذا علم مثلا أنه يجب الجمال أهدها وصيفة جميلة ، أو علم منه ميلا الى الفناء أهدي اليه قينة رخيصة الصوت . وقد يهديه عدة جوار اتقن عدة صناعات ، وربما صارت احدها بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه اذا استولدها سيدها . واذا كانت فى دار خليفة لا يبعد أن تصير من أمهات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بنى العباس ، ذكروا أن جارية اسمها دنائير صفراء صادقة الملاحظة كانت أروى الناس للفناء القديم ، وقد خرجها رجل من أهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكى ، وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير الى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية . وعلمت امرأته زبيدة بخبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا فى ارجاعه ، فرأت أن تشغله عنها بالجوارى فأهدت اليه عشر جوار منهن مارية أم المعتصم ومراجل أم المأمون وفاردة أم صالح (٢)

وكثيرا ماكان العمال والأمراء يتقربون الى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٣) فلا غرو اذا تكاثرن فى قصور الخلفاء والأمراء وأهل الوجاهة . وليس الاستكثار منهن حادثا فى الاسلام ، وانما هو من بقايا التمدن القديم ، فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٤) وكان لجماعة من بنى العباس ألف جارية ، وسيأتى بسط ذلك فى مكان آخر

اصناف الجوارى

فلما تعود الناس اقتناء الجوارى اشتغل النحاسون فى استجلابهن من أقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا (*) وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج

(١) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

(٢) الاغانى ١٣٧ ج ١٦

(٣) السمودى ٢٨٠ ج ٢

(٤) السمودى ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١

(*) يراد بالخطا بلاد الصين ، وقد استعمل الاوروبيون هذا اللفظ اول الامر ، فكانوا يسمون الصين Cathay

والحبشة صفارا وكبارا ، يربونهن على ما تقتضيه مواهبهن أو جمالهن ، فينبغ منهن الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعوادات والعالمات وأمهات الدهاء والسياسة وغير ذلك . وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية ، بين مولدة في البصرة أو الكوفة أو بغداد ممن يفصحن العربية ، ومجلوبة من أرضها أو سبية أخيدة على حالها تتكلم التركية أو الفارسية أو الرومية أو الهندية أو البربرية ، ولا تزال ولو تعربت أعجمية اللسان . والمولدة ائمن من الجليبة ، وتختلف أثمانهن باختلاف الصناعة أو الجمال وباختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد أو الغناء أو الخدمة . وفي الجليبات النصرانية واليهودية والمجوسية ، لكل منهن شأنها في دينها حتى يعيدن اعيادهن بما يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والأحجبة ونحوها - ذكر أحمد ابن صدقة أنه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنرات (**) قد تزين بالديباج الرومي وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب وفي أيديهن الخوص والزيتون (١)

على أنهم كانوا يختصون كل صنف من الجوارى بصفات خاصة ، وقد صنفوا كتباً في هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهن ، و خلاصة ذلك قولهم : من أراد النجابة فبنات فارس ، ومن أراد الخدمة فبنات قيصر ، ومن أراد غير ذلك فبنات بربر ، والمولدات والزنجيات للزمر ، والحبشيات للحفظ وخرن المال ، والنوبة للطبخ ، والأرمن للتربية والرضاع . ومن أقوالهم : الوجوه في الترك ، والأجسام في الروم ، والشعور في الخطا وفارس ، والعيون في الحجاز ، والخصور في اليمن (٢) وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة : انهن ذوات الألسن العذبة ، والقنود المهفهفة ، والأوساط المخصرة ، والاصداغ المزرفنة ، والعيون المكحلة (٣) مما يطول شرحه . وكانت تجارة الجوارى على أروجها في بغداد ، فكانوا يحملون إليها أجملهن خلقا وأذكاهن عقلا ، لما يتوقعونه من بيعهن بالآثمان الباهظة .

تعليم الجوارى

وكان تعليم الجوارى وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر ، فيذهب أحدهم إلى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء ، فيثقفها ويرويهما الأشعار أو يلقنها الغناء أو يحفظها القرآن أو يعلمها الأدب أو النحو أو العروض أو فنا من فنون المنازل ثم يبيعهما . وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كإبراهيم الموصلى وابنه اسحق ، فربما

(**) أي شددن خصورهن بالزناد ، وهو حزام خاص كان من شارات النصارى في اللباس
(١) الأغاني ١٢٨ ج ١٩
(٢) ترتيب الدول ١١٢
(٣) المسعودي ١٥٤ ج ٢

ابتاع أحدهم الجارية بمائة دينار فاذا علمها وثقفها باعها بخمسمائة أو ألف ديناراً (١) وأشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة . وقد يربى بعضهم الجارية ويهدونها إلى الخليفة أو الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ أحدهن في فن من الفنون الجميلة كالغناء أو الشعر أو الأدب فتبتاع بألوف الدنانير (٢) . فكيف إذا أتقنت غير فن منها ؟ وربما نبغت منهن من تجيد الشعر والغناء أو فنون الأدب والاختبار ، فيقصدها أهل الأدب وذوو المروعة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره ، وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها كدوى النحل من القراءة (٣)

فتعدد الجوارى في دور الكبراء وتسابق أهل الترف إلى التفتن في تزيينهن . وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فأنها لما رأت ابنها يغالى في تخنيث الغلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجوارى سمتهن المقدودات ، عممت رءوسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والأقفية والبستهن الأقبية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان ، واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجوارى الغلاميات أو المطمومات وألبسنهن الأقبية والمناطق الذهب (٤)

نفوذ الجوارى

وطبيعى في ربات الحسن أن يكن نافذات الكلمة لأن الجمال قوة والحب سلاح، ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والأمراء يتباعدون عن الجوارى ، إذا أهدى إلى أحدهم جارية لم يلتفت إليها ، ولا سيما مؤسسى الدول كعماوية والمنصور وعبد الرحمن الداخل . فاشتهر المنصور بكرهه للهو ، وكان عبد الرحمن إذا أهداه أحد جارية ردها (٥) وعكس ذلك خلفاء أواسط الدولة إبان الترف والقصف والرشاء ، فأنهم كانوا يتمادون في حب الجوارى حتى يتسلطن على عقولهم ، كما فعلت حباة يزيد بن عبد الملك الأموى حتى كادت تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد ، فأنها ملكت قياده حتى حلف يوماً أنها لا تسأل شيئاً في ذلك اليوم الا قضاء لها ، فسألته أن يولى حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولى عهده بعده أن يتمها له ان لم تتم في حياته (٦) وكثيراً ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجوارى عن رعاية الملك ولاسيما المغنيات ، ولذلك

(١) الاغانى ١٥٤ ج ٨
 (٢) الجزء الثانى من هذا الكتاب
 (٣) ابن خلكان ١٩٠ ج ١
 (٤) المسعودى ٣٦٦ ج ٢
 (٥) نفع الطيب ٧٠٩ ج ٢
 (٦) الاغانى ٨٠ ج ١٥

كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب ، وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار من شاء (١) ويزداد الجوارى نفوذاً وسطوة إذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من أمهات الخلفاء - راجع الجزئين الثانى والرابع من هذا الكتاب ، وسيأتى الكلام على المغنيات فى باب المغنين

طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة وأتباعهم ، ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عدداً وأبعد عن الحصر ، لأنهم لفيف من أمم شتى ولاسيما فى بغداد فى إبان عمارتها ، وقد تقاطر إليها المرتزقون والمحترفون والمستجدون من أطراف المملكة الإسلامية ، بين صانع وبائع وفيهم العربى والنبطى والفارسى والخراسانى والتركى والسندى والرومى والكرجى والأرمنى والكردى والقبطى والبربرى والنوبى والزنجى والاندلسى وغيرهم . وفيهم أهل الحرف الراقية ، وتجار السلع والأقمشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب ، فضلاً عن الأدباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره . على أننا تسهيلاً للبحث نقسم العامة على الأجمال إلى طبقتين كبيرتين : الأولى طبقة المقربين من الخاصة ، والثانية طبقة الباعة وأهل الحرف والرعاع وغيرهم

الطبقة الأولى

المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم أو عقولهم إلى التقرب من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم ، فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم أو رواتبهم أو يرتزقون من بيع سلعهم لهم ، وهم أربع فئات : أهل الفنون الجميلة والأدباء والتجار والصناع

١ - أهل الفنون الجميلة

المصورون

الفنون الجميلة - ويسمىها العرب « الآداب الرفيعة » - ثلاثة : التصوير ، والشعر ، والموسيقى . فالتصوير لم يكن له شأن كبير فى التمدن الإسلامى لورود القول بتحريمه ، وإنما كانوا يصورون ما يصورونه فى الدولة الأموية والعباسية يقلدون به ما بين أيديهم من تصوير الروم والفرس ، أو ماجاء به السلاجقة من صناعة المغول من أواسط تركستان . على أن التصوير أزهر

وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولوكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فان تلك الصناعة أخذت في الارتقاء من ذلك الحين ، لأن المغول المشار اليهم اتوا معهم بمهندسين من أهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ، ومعهم جماعة من أرباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة ، فاستفاد الفرس منهم واتقنوا هذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين ، وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها (١) وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم أمثلة من هذه الصور ، ملونة تلويها بديعا أكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ أو الأدب أو العلم . وبعضها تمثل رسوما خيالية كصورة المعراج ونحوها . ففي دار الكتب بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن أشكال زينوا بها كتابي الشاهنامة للفردوسي وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما . أما في ابان التمسدن الاسلامي فلم يكن لاهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة ، الا من اشتغل منهم بهندسة الأبنية ولا سيما في الاندلس

أما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب أصحابهما من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بهما الأموال الطائلة . وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما أصله ، وما كان شأنه في الجاهلية وما آل إليه بعد الاسلام ، من عصر الراشدين فالأمويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام ، وتحدثنا عن جمع الشعر ورواياته وطبقات الشعراء في الاسلام وأشعارهم ، والشعر وتأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والأمراء وغير ذلك ، — وسيأتى الكلام عما كان الشعراء يصيرونه من الأموال — يقى علينا النظر في الموسيقى وأهلها وهم المغنون

٢ - المضمون

الغناء قبل الاسلام

الغناء طبيعي في الأمم ، لأنه لغة النفوس وترجمان العواطف ، وكل أمة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها ، فالعرب في الجاهلية كانوا أهل ماشية وأنعام وخيام ، فلم ينتبهوا الى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلهجون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء ، وتلك أول خطوة نحو الموسيقى لأنها بنت الشعر أو اخته

ثم ظهر فيهم « الحدااء » وهو غناء يتغناه الحداة في سوق ابلهم والفتيان في قضاء خلواتهم ، ثم عمدوا الى « الترنيم » . وكان ترنيمهم على نوعين :

« الغناء » وهو ترنيم الشعر ، و « التغيير » (بالغين والباء) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر

ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة أوجه ، أو ثلاثة الحان أو أصوات وهى : النصب والسناد والهزج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان ، وهو الذى يقال فى المراثى ، ويسمى « الغناء الجنابى » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله يزعمون أن أصل الحداء منه ، وهو يخرج من الطويل فى العروض . و « السناد » اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وهو على ستة طرق ، منها الثقيل الأول وخفيفه والثقل الثانى وخفيفه . وأما « الهزج » فهو الخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وشاع الغناء قبل الاسلام فى أمهات المدن من بلاد العرب وهى المدينة والطائف وخيبر (١)

أما آلات الموسيقى عندهم فأشهرها الدف ، وهو أشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير ، والمزمار على أبسط أنواعه . ولا يظهر أنهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار وما يتفرع عنهما من آلات النفخ والقرع . وأما آلات الأوتار كالعيدان والطناير والمعازف ونحوها فهى من صناعة الفرس والروم ، لم يعرفها العرب الا بعد الاسلام (**)

(١) العقد الفريد ١٨٦ ج ٣

(*) الدراسات عن الموسيقى العربية كثيرة ، وكلها مع الاسف باللغات الأوروبية ، إذ لم يعكف على دراستها أحد منا دراسة علمية على أصولها ، ويجد القارئ بياناً بأهم المراجع فى كتاب هنرى جورج فارمر « الموسيقى العربية » الذى ترجمه الدكتور حسين نصار ونشره فى القاهرة سنة ١٩٥٦ . وأهم هذه المراجع

Coussin de Perceval, Notices sur les principaux musiciens arabes, dans J. A 1873.

Land, Recherches sur l'histoire de la gamme arabe (Actes de VIe Congrès Internationale des Orientalistes, 1883) Leyden 1884.

Ibidem, Essai de notation musicale chez les Arabes et les Persans; dans Etudes dédiées au docteur C. Leemans, Leyden 1885.

Tripodo, Lo stato degli studi sulla Musica degli arabi. Roma 1904.

Ribera, Historia de la musica arabe medieval y su influencia en la española. Madrid 1927.

Ibidem, Arabic musical manuscripts in the Bodleian Library, London 1925.

ومن الأصول العربية القديمة والإبحاث الحديثة ، بالإضافة الى ماكتبه ابن خلدون فى المقدمة وابن سينا فى الشفاء (جزء خاص عن الموسيقى أعد للطبع ويظهر فى القاهرة قريباً ضمن سلسلة مؤلفات ابن سينا) والفارابى (كتاب الموسيقى وقد نشر فى مجلد أعمال مؤتمر المستشرقين السادس ، ليدين ١٨٨٤) :

محمد بن على الأربلى : جواهر النظام ، نشر فى مجلة المشرق ، المجلد ١٤

شهاب الدين محمد بن اسماعيل : سفينة الملك ، القاهرة ١٨٩٢

احمد السفرجلانى : السفينة الأدبية ، دمشق ١٨٩١

عثمان بن محمد الجندى : روض المسرات ، القاهرة ١٨٩٥

ميخائيل مشاققة : الرسالة الشهائية فى الصناعة الموسيقية ، بيروت ١٨٩٩

احمد امين الديك : نيل الارب فى موسيقى الافرنج والعرب ، القاهرة ١٩٠٢

وانظر مادنى موسيقى وزدياب فى دائرة المعارف الإسلامية بقلم جورج هنرى فارمر

الغناء في الاسلام

فلما جاء الاسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم ، كانوا في عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدته ، مما يدعو الى ترك احوال الفراغ وما ليس نافعا في دين ولا معاش ، حتى تركوا ما كان عندهم من انغام الجاهلية ، ولم يكن الملوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر . فلما جاءهم الترف في أيام بنى أمية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا الى نضارة العيش ورقة العاشية واستحلاء الفراغ . وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في سلطان العرب ، وحمل بعضهم الى الحجاز في جملة الأسرى او السبايا فأصبحوا من موالي العرب ، وقد حملوا معهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، فغنوا بها فأعجبوا بالحنان فاشتغل المغنون واكثرهم من الموالي في تلحين أشعار العرب على الالحن الفارسية او الرومية ، فنبغ في المدينة في أيام بنى أمية طائفة من المغنين . والمشهور أن أول من أدخل غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسحج ، وهو مكى أسود كان في مكة لما حاصرها الأمويون ، وفيها ابن الزبير في أواخر القرن الأول للهجرة ، فاستقدم ابن الزبير بعض البنائين من الفرس لترميم الكعبة ، فسمعهم سعيد بن مسحج يغنون بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية ، فأعجب الناس كثيرا فسافر الى الشام وفارس فأتقن فن الغناء وعنه أخذ من جاء بعده من مغنئى المدينة وغيرها . وشاع الغناء في المملكة الاسلامية وراجت بضاعته باتساع أسباب الحضارة والرخاء ، وتكاثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة في الغناء ، فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين أتقنوا هذه الصناعة وآلتها اتقانا حسنا ، على ما بيناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وانما يهمننا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الاسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم

الغناء والدين

كان الغناء في صدر الاسلام مكروها ان لم نقل محرما ، واختلف الأئمة في تحريمه وتحليله كله أو بعضه . ويقال بالاجمال ان أهل الحجاز أجازوه وأهل العراق كرهوه ، وحجة من أحله أن أصله الشعر الذى استحسسه النبى (ص) وحض عليه وندب أصحابه اليه واستنصر به على المشركين ، فقال لحسان شاعره : « شن الغارة على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام » وأكثر شعر حسان يغنى به . وحجة من حرمه أنه يسعر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب ، وهو باطل من أصله (١) وحلل آخرون بعض الغناء وحرموا

(١) المقدم الفريد ١٧٨ ج ٣

بعضه ، ولكن أهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونه في كل حال ، ولذلك لم يظهر إلا بعد عصر الراشدين . وكان معاوية بن أبي سفيان يعيب على الراغبين في الغناء ، ولا سيما أهل الوجاهة والشرف ، وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على أنه كان يعيب عليه استماع الغناء (١) وأن سره اشتغال هذا وسواه من أهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلافة - بل هو كان يبذل لهم الأموال في هذا السبيل

ولما تولى الخلافة أصحاب اللهو والقصف أخذ الغناء في الانتشار ، وأول من أياحه ونشط أهله يزيد بن معاوية ، ففي أيام هذا (سنة ٦٠ - ٦٤ هـ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملاهي لأنه كان صاحب لهو وطرب (٢) وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولا سيما المدينة . وما زال محصورا فيها تقريبا حتى أفضت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك (سنة ١٢٥ - ١٢٦ هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتك وخلاعة ، فبعث إلى المدينة في استقدام المغنين إليه في دمشق (٣) فأخذ الغناء في الانتشار في بلاد الاسلام من ذلك الحين

مقاومة الخلفاء للغناء

على أن أهل التعقل من الخلفاء والأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء من غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر (٤) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتان الناس بغنائهم (٥) وصرفهم عن أمور دينهم، ولم يكن أهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الغرام »

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك كان يكره الغناء ، فسمع مغنيا في عسكره فطلبه فجاءوه به فقال : « أعد ما غنيت » فتغنى واحتفل فقال سليمان : « والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب أننى تسمع هذا إلا صبت إليه » ، تم أمر به فخصى ! (٦)

وسليمان هو الذى أمر بخصى المخنثين في المدينة لئلا هذا السبب - قيل أنه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هى تصب عليه لحظ أن ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه فتجاهل . وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم أنه يشتهيهِ ، فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يفنيه حتى توصل

(١) العقد الفريد ١٨٢ ج ٣

(٢) المسعودى ٦٨ ج ٢

(٣) العقد الفريد ٢٦٩ ج ٢ والمسعودى ١٣٣ ج ٢

(٤) العقد الفريد ١٩٦ ج ٢

(٥) الاغانى ١٣٠ ج ٢

(٦) الكامل للمبرد ٣٧٧

الى الرجل الذى شغلت الجارية بغنائها فى الأمس . فلما تحقق ذلك أقبل على القوم وقال : «هدر الجمل فضبعت الناقة ، ونب التيس فسكرت الشاة، وهذل الحمام فزافت الحمامة ، وغنى الرجل فطربت المرأة !» ثم أمر به فخصى . وسأل عن الغناء أين أصله ف قيل : « فى المدينة بجماعة المخنثين وهم أئمتسه والحدائق فيه » فكتب الى عامله هناك : « أخص من قبلك من المخنثين المغنين » فخصاهم (١)

على أن المتهتكين من الخلفاء والأمراء لم ينكروا ما يجر اليه الغناء من أسباب اللهو ، قال الوليد بن يزيد الذى ذكرنا أنه أول من استقدم المغنين اليه : « اياكم والغناء ، فانه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروعة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر ، فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا ، وانى لأقول ذلك فيه على أنه أحب الى من كل لذة وأشهى الى من الماء البارد الى ذى الغلة ، ولكن الحق أحق أن يقال ! » (٢)

فكيف بالعقلاء واهل الحزم ومؤسسى الدول أو معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وأبى مسلم ، أو أهل التقوى مثل عمر بن عبدالعزيز الأموى والمهتدى العباسى ؟ فقد تقدم ما عابه معاوية على عبد الله بن جعفر . أما هشام فسمع عن أشعب المضحك فى المدينة فأمر كاتبه أن يكتب باستقدمه ، فلما ختم الكتاب اطرق هشام طويلا ثم قال : « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليحمل اليه مضحك !؟ » وتمثل :

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيه عليك مقال

رأوقف الكتاب (٣) ٠ وأما المنصور فقد كان يعير آل الزبير بحبهم الغناء (٤) وسمع ذات يوم ضرب طنبور فى داره فكسره على صاحبه . أما عمر بن عبد العزيز فبلغه أن قاضيا من قضاته استخفه الطرب من الغناء فأمر بعزله (٥) . والمهتدى العباسى كان يتشبه بعمر المذكور ، فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ كانت الملاحى قد انتشرت فى الدولة العباسية فأمر بمنع الغناء (٦) وربما امتنعوا عنه الى أجل ريثما يصفو لهم الزمان ، كما فعل المأمون لما عاد من خراسان وقد أهمه تأييد خلافته ، فبقى عشرين شهرا لا يسمع غناء (٧) وكذلك الامراء العقلاء مثل خالد القسرى ، فانه أمر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق (٨)

- (١) الاغانى ٦١ ج ٤
 (٢) الاغانى ١٣٤ ج ٦
 (٣) السعوى ١٣١ ج ٢
 (٤) الاغانى ١١٥ ج ٢
 (٥) السعوى ١٢٢ ج ٢
 (٦) قوات الوفيات ٣٧١ ج ٢
 (٧) الاغانى ١٠٦ ج ٥
 (٨) الاغانى ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج ١٩

اشتغال الخلفاء بالفناء

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي ، على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد . فالمسلمون لما تحضروا وأخلدوا الى السكينة والراحة عمدوا الى اسباب الرخاء وفي جملتها الفناء ، والمرجع في ذلك الى الخلفاء - الامراء ، لأن الناس على دين ملوكهم ولا سيما في الحكم المطلق ، فاذا احب الخليفة الفناء احبه رجال دولته . فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته . وأول من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في أيام امارته على الحجاز ، ثم الوليد بن يزيد وله اصوات اشتهرت عندهم ، واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الألحان والتلحين ، أشهرهم الوناق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد . أما أبناء الخلفاء فأول من دونت صنعته فيه ابراهيم بن المهدي وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله ابن موسى الهادي وعبد الله بن محمد الأمين وأبو عيسى بن المتوكل وعبد الله ابن المعتز وغيرهم . فقس على ذلك ما كان في زمن بني أمية ، ولا سيما في عصر الاضمحلال ، حتى كانوا يحملون المغنين والآلاتهم في أسفارهم ولو الى القتال ، فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي أصبهان سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير (١)

فالفناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها ، فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية (٢) وحملهم الترف على سماعه والولوع به ، فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء - وسنعود الى ذكرهم

٣ - العلماء والفقهاء والادباء

هم طائفة من العامة تقربوا الى الخلفاء بما يلد لهم من سماع الأخبار والنوادر ، أو النظر في علوم تلك الايام الدينية أو اللسانية أو الأدبية والتاريخية . ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والادباء من أصحاب الاخبار ، كالاصمعي وأبي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم . وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع أبحاثهم ، فكانوا يقربونهم ويعظمون شأنهم ويجيزونهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ، على ما سنبينه في باب أبهة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في أماكن كثيرة من هذا الكتاب

واقندى بالخلفاء وزرأؤهم وأمراؤهم ، كالبرامكة وآل الفرات فانهم اغدقوا الأموال على هؤلاء فنشطوا العلم وأهله حتى صار العلم صناعة يرتزق بها

(١) ابن الاثير ١٩٠ ج ٥
(٢) الجزء الثالث

أصحابها من الناس . ويدخل فيما تقدم المترجمون من غير المسلمين ، وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية في العصر العباسي ، فانهم فئة من أهل الدمة قربهم الخلفاء واکرموهم من أجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب

٤ - التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تفتضيها الحضارة ، كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقيق . وأكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه . وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الاسلامية ، وأكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الأمم التي اشتهر أهلها بالعناية بهذه الطرف ، كانوا يحملون الى دار السلام أصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند ، واللؤلؤ من البحرين ، والعقيق والعاج من الحبشة ، والأدهان والزيوت العطرية من نيسابور ، ونسيج الكتان من شيراز . وطراز الوشي والاقمشة المنسوجة من الشعر التي تصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة ، والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز ، هذه كلها من فسا . والبسط والنخناخ والمصليات والزلالى من جهرم . والستور والمقاعد من دشت . وأحسن أصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والأنماط والمقاعد من أرمينية ، وكان لهم صبغ من القرمز يصبغون به الصوف لا مثيل له . والعتابي والوشى وسائر ثياب الحرير من أصفهان . والثياب المنيرة من الرى ، والابريس ومطارف القز (*) وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور . والسمور الأسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس ، والبز من بلخ . والكاغد والنوشادر والأوبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر وكذلك المسك ، ولكن أصله من بلادالتبت . والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا . والديبقي من تنيس ودمياط . والستور والبسط المصرية من البهنسا . والطبالسة المقورة الرفيعة من كرمان . والحصر والقباطي والقراطيس من مصر . والمناديل الديلمية البيضاء المعلمة من قومنس - ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠٠ درهم . والمقانع القزيات من جرجان والسوس . والبرود المنيرة والقصاع والأمشاط من الرى . والأكسية والجوارب من قزوين . والخفاف والسمور من همدان . والزجاج والخزف

(*) تجد بيان ماهية كل صنف من أصناف النسيج هذه وكذلك انواع الملابس في
Dozy. Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les musulmans.

من البصرة . والحصر من عبادان . والديباج والأتماط من تستر ، والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن . والمسك والكافور والعود من الصين

أما الرقيق فأبيضه كان يحمل مما وراء النهر ، وأصله من الصقالبة أو من الخزر الأتراك من بادية تركستان ، وأحسنهم يربى في سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام . ويحمل الرقيق الأبيض أيضا من الأندلس وفيه الجوارى والغلمان ، وأصلهم من سبى الافرنج وجليقية أو من الصقالبة كما تقدم . ومن الرقيق الأبيض صنف كان يرد من خراسان غال جدا ، ربما يبع الفلام منه بخمسة آلاف دينار . أما الرقيق الأسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر أو بلاد المغرب

وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وتبيعه في أسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية . وأكثر الناس اشتغالا بنقلها في البرطائفة من التجار اليهود الراذانية(*) كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر ، وهي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية ، ويسافرون بين الأقاليم العامرة يحملون التجارات من اقليم الى آخر (١) كما كان الفينيقيون في ابان دولتهم

أما التجارة البحرية فأشهر أصحابها السيرافيون (***) ، فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والأبنوس والفلفل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الأطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطئ افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة ببغداد (٢)

فكان التجار يقدون على دارالسلام بهذه التجارات فيبيعونها بالائتمان الفاحشة . ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارفة وأكثرهم من اليهود ، وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش . اشتهر منهم في بغداد صيارف كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل فتخاس وآل عمران وغيرهم (***)

(*) الراذانية أو الرذنانية نسبة الى رذانس - بفتح الراء أو ضمها - وهو نهر الرون ، واسمه باللاتينية Rhodanus ، وكانت لليهود جاليات في المدن الواقعة على مصبه واشهرها ماسيليا Massilia وهي مرسيليا ، وكانوا يتخذون مجرى النهر وسيلة لنقل المتاجر التي يجمعونها من غالة ويتجزون بها في البحر الابيض المتوسط
أنظر من ذلك كتاب هويد Heud عن تجارة الشرق

(١) ابن خردادبة ١٥٣

(**) السيرافيون نسبة الى سراف ، وهي فرضة تجارية على الخليج العربي الذي يعرف بالخليج الفارسي . أنظر عنها الفصل الخامس بالتجارة البحرية من كتاب آدم ميتز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده
(٢) الاصطخري والمسعودي

(***) أنظر من هذا الموضوع فصل « البنوك الخاصة » من كتاب « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة » للدكتور صالح أحمد العلي ، بغداد ١٩٥٣ ص ٢٦٠ وما بعدها

فلما نضج التمدن الاسلامي واشتغل المسلمون أنفسهم بالتجارة لم يقصروا في شيء من شروطها ، وأتقنوها علما وعملا حتى ألفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي . وبين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة » للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الهمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة ، فيه فرائد اقتصادية لم يسبقه احد اليها وأبحاث في معنى النقود والسلع والمسال الصامت والأعراض وتحقيق ائمان الأشياء ، مالا تقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر - يدل ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ، ناهيك بأهل الرحلة منهم الى أطراف المعمورة في ذلك العصر ، فقد طافوا العالم برا وبحرا من القرن الرابع للهجرة ، ودونوا رحلاتهم تسهيلا لأسباب التجارة ، واكتشفوا طرقا تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والأحمر وفي أواسط افريقيا وآسيا لم يسبقهم اليها احد

أما الأسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار ، فمخرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه ، والبحر الأحمر الى آخره ، والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة ، وشرقا الى كلكتة وجزائر الهند والصين ، وجنوبا الى مدغشقر وسائر شواطئ افريقيا الشرقية ، واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . أما برا فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين ، وأوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء ، فقربوا الأبعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة

فكان التجار المسلمون حوالى القرن الرابع للهجرة يجوبون الأقطار برا وبحرا، ينقلون التجارة من بلد الى بلد ، بين شواطئ فارس وسواحل أفريقيا والحيشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق . ويقطعون صحارى خراسان وتركستان وأرمينية وأفغانستان والهند والشام ومصر والسودان وأفريقية والاندلس في نقل أصناف التجارة ، كأنهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحرا وبغداد برا . واشتهر من تجار المسلمين ممن كانوا يخترقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم ، والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمن والقلزم ، وقد عرفهم السعودي وذكرهم في تاريخه (١)

ثروة التجار

وقد استغرقنا في الكلام على التجارة - وجملة القول أن التجارة العليا كانت من أبواب الرزق الواسعة في ذلك العصر لأصحاب المواهب التجارية ولم يخدمهم

(١) السعودي : مروج الذهب ، ص ٥٤ ح ١

التوفيق ويتقربون من البلاط أو بعض أهله . فظهر في عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الأموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدينانير . وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة ، فخدمهم حظهم حتى ارتقوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة ، كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتسيلد في القرن الماضي وروكفلر الأميركي في هذا القرن ، وأول من اثرى منهم الحسن بن عبد الله ، وقد قص هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يسارى انى كنت فى دهليز ابى الجيش خمارويه بن احمد بن طولون بمصر ، وكنت وكيله فى ابتياع الجواهر وغيره مما يحتاجون اليه ، وما كنت أقارق الدهليز لاختصاصى به ، فخرجت الى قهرمانه لهم فى بعض الايام ومعها عقد جواهر فيه مائة حبة ، لم أر قبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه ، كل حبة منه تساوى مائة الف دينار ، وقالت : يحتاج أن تخرط هذا حتى تصغر فتجعل فى آذان اللعب وفى قلاندها . فكذت أطير وأخذتها وقلت : السمع والطاعة ، وخرجت فى الحال مسرورا وجمعت التجار ، ولم أزل أشتري كل ما قدرت عليه الى أن جمعت مائة حبة أشكالاً من النوع الذى طلبته وأرادته، وجئت عشيا وقلت: ان خرط هذا يحتاج الى انتظار وزمان، وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ، ودفعت اليها المجتمع وقلت : الباقي يخرط فى أيام ، فقنعت بذلك وأعجبها الحب ، فخرجت وما زلت أياما فى طلب الباقي حتى اجتمع ، فحملته اليها . وقامت على المائة حبة بدون المائة الف درهم ، وأخذت منهم جوهرًا بمائتى الف دينار . ثم لزمت دهليزهم وأخذت لى غرفة كانت فيه فجعلتها مسكنى ، وكان يلحقنى من هذا أكثر مما يحصى ، حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره » (١)

وكان لابن الجصاص بيت كبير فى بغداد لبيع المجوهرات ، فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسى فى أوائل القرن الرابع للهجرة ، كان ابن الجصاص فى جملة الذين صودروا ، وسبب ذلك أن عبد الله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم أنحل أمره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور ، فوشى به خادم فصادره المقتدر بالله على ١٦ دينار ، وبقي له بعد مصادرته شئ كثير من الدور والقماش والأموال والضياع وغيرها . ويقال مع ذلك انه كان أحق أبله - فاعتبر مقدار ما كان يصل الى التجار أهل النباهة والدهاء

وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والأثاث ، ولاسيما فى البصرة ، فقد اشتهر فيها جماعة من أهل اليسار وأكثر غناهم من تجارة البحر ، فقد كانت سفن

بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة الى أنحاء العالم - ذكروا واحدا منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ... ٥٠٠ ٢ درهم في السنة (١). وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ... ٢٠ دينار (٢) . ومنهم رجل اسمه أحمد ابن عمار كان طحانا بالبصرة ، فأصعد الى بغداد في أيام المعتصم فأتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار . فاذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله الف دينار في اليوم ، واستوزره المعتصم لأمانته ولكنه كان جاهلا (٣)

٥ - الصناع

أما الصناعة فقد أخذوا منها بنصيب كبير ، لأنهم كما برعوا بالاتجار في السلع برعوا أيضا في صناعتها ، وارتقت الصناعة عندهم بتوالي الأجيال ، حتى فاقوا في بعضها البلاد الأخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم . فهم الذين نشروا السكر في العالم ، نقلوه من موطنه في الهند الى بلاد فارس وانشأوا له المعامل واستخرجوا منه أصنافا لم يكن لها مثيل (٤) وهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم وعينهم أخذها أهل أوربا بطريق الأندلس (٥) وقد امتازت بعض مدن الأندلس بصناعات كانت تفاخر بها صناعات المشرق ، فكانوا يصنعون في مرسية وشيا مدهبا في غاية الاتقان ، وفيها أيضا معمل للبسطة لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرصعة . وكان في مالقة معمل للزجاج الغريب وفخار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ، ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم ، فذكروا أن أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس ابن فرناس حكيم الأندلس (٦) واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الأول من هذا الكتاب

ولهم في الميكانيكيات صناعات حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته في القرن السادس للهجرة - وهالك مقالته في وصفها على ما شاهده بعينه :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر (أى نحاس) قد فتحت أبوابا صفارا على عدد ساعات النهار ودبرت تديرا هندسيا . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمى بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين

(١) ابن الأثير ٢٠ ج ١

(٢) ابن حوقل ١٩٨

(٣) الفخرى ٢١٣

(٤) Encycl. Brit. article Sugar

(٥) الجزء الأول

(٦) نفح الطيب ٨٧٣ ج ٢

من صفر تحت كل واحد منهما ، أحدهما تحت أول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوى ، وينفلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر . لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنفلق الابواب كلها وتنقضى الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، يدور ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى ينقضى الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها يعيدفتح الابواب وصرف الصنج الى مواضعها» اه (١)

وقس على ذلك كثيرا من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والاكر والأنابيب والامخال وغيرها للرفع والجر والنقل ، ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها وأكثرها مأخوذ فى أصله عن اليونانية ، ككتاب « الحيل الروحانية ومخانيقا الماء » لفيلون البيزنطى ، وكتاب « رفع الاشياء الثقيلة » لهيرون الاسكندرى نقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي ، وغيرها مما نقله الافرنج الى اللاتينية فى نهضتهم الأخيرة وفقدت ترجمته العربية كما فقد أصله اليونانى قبله. وفى هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات (٢) واشتغل المسلمون فى هذه الفنون وألفوا فيها الكتب من عند أنفسهم . وقد وقفنا على مؤلف خطى فى الآلات الروحانية أطلعنا عليه صديقنا الشيخ شسبلى النعمانى العالم الهندى الشهير ، وهو تأليف « رئيس الأعمال بديع الزمان أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزرى » فى أسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الأجسام بالأجسام من المقدمات الطبيعية - ألفه لأبى الفتح محمود بن محمد بن قزل أرسلان من آل ارتق فى أواخر القرن السادس للهجرة ، فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . وبينها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق - فيدل هذا وغيره على ما بلغ اليه المسلمون من اتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج فى وصفه الى كتاب بأسره

(١) رحلة ابن جبير ٢٧١

(٢) المشرق عدد ٦ سنة ٧

الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقى من الأمة وهم السواد الاعظم ، وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنث والصلوك وغيرهم مما لا يحصى .
ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين : أهل القرى وهم المزارعون ، وأهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاغ

١ - المزارعون أهل القرى

فالمزارعون أو الاكرة يتألف منهم معظم سكان المملكة وهم أصل ثروتها ، واكثرهم من أهل الدمة يقيمون في القرى الا من أسلم منهم فينزل في المدن . وكانوا يتكلمون لغات البلاد الأصلية : السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام ، والقبطية بمصر ، والفارسية في بلاد فارس ، والتركية في تركستان بما وراء النهر . وأخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم ، واللغة العربية تتغلب على السننتهم ، والاسلام يتغلب على أديانهم ، حتى ساد الاسلام عليهم جميعا ، وعمت العربية البلاد الواقعة غربى دجلة وهى العراق والشام ومصر وافريقية والسودان ، وصارت تعد بلادا عربية وأكثر أهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التى كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق . أما شرقى دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام أيضا ، وانتشرت اللغة العربية بين أهل العلم ، ولكن السنة أهل البلاد ظلت حية يتفاهمون بها الى الآن

٢ - العامة سكان المدن

هم نفر ممن يؤمّنون المدن من أهل المطاعم وطلاب المكاسب، بالتجارة أو الجندية أو الأدب أو الشعر ، وتقعدهم نفوسهم عن اللحاق بأهل الهمم وأصحاب القرائح فيضطرون الى احترام ما يعيشون به مما لا يحتاج لهمة أو رأى . ولو أردنا الرجوع الى أصول عامة بغداد مثلا لرأيناهم أخلاطا من مولدى العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والأرمن والجركس والأكراد والكرج والبربر وغيرهم ، ولكنهم يعدون عربا لتغلب اللغة العربية على السننتهم

وعامة المدن طبقتان : الطبقة الاولى المرتزقون بالصناعة والتجارة ، وهم طائفتان : (١) الصناع أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين

والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانيين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من اصناف المأكولات على أنواعها وبعض المنسوجات والسلع الصغيرة . وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الأقمشة والطحين والخضر ونحوها

والطبقة الثانية رعاى يرتزقون من النهب واللصوصية ، وهم اصناف كثيرة نشأت فى بلاد الاسلام على اثر الفتن والانشقاق بين اهل الدولة لا يستطيع اهل هذا الجيل تصور أمثالهم لبعء ذلك عن مألوفهم - الا الذين ادركوا متشردى بيروت المعروفين بالزعران ، وهم طائفة من اهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتحرش بأبناء السبيل . والزعران مثال صغير لرعاى ذلك العصر ، فقد كان فى بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواقيل ونحوهم ، كثيرا ما استفحل أمر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم فى بعض حروبها

والسبب فى ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الأول ، بمن دخل فيها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لأنفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه فى الأجزاء الماضية ، ولاسيما الجزء الرابع . ولا يخفى ما تجر اليه الفتن من وقوف الاعمال وغلاء الاسعار ، غير ما كان يرتكبه الحكام أنفسهم من خزن الأوقات ، فتقل ارزاق العامة فيعمدون الى التعدى ويؤلفون عصابات لمناوأة اصحاب الأموال من التجار وغيرهم فى المدن ، ولا سيما بغداد أم المدائن الاسلامية فى ذلك العهد . فكان الرعاى يتكاثرون ويزدادون تعديا ، والحكام فى شناغل عنهم والخسارة معظمها على الأهالى . وتوالى ذلك أعواما حتى خربت مدينة السلام وأم حضارة الاسلام . ولا يمكن الامام بكل طوائف الرعاى فنذكر أشهرها :

العيارون

ظهر العيارون ببغداد فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، وكان لهم فى الفتنة بين الامين والمأمون شأن كبير ، لأن الامين لما حوصر فى تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين ، وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم المآزر وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقا من الخوص والبوارى قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل . ونظموهم نظام الجند على كل عشرة عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل ذى مرتبة من المركوب على مقدار ماتحت يده . ومعهم أناس عراة قد جعل فى أمتاقهم الجلاجل والصدف الأحمر والأصفر ومقاود ولجما من مكائس ومذاب . وبلغ عددهم يومئذ خمسين ألف عيار (١) وساروا للحرب يضربون

الاعداء بالمقلاع والحصى ، وكانوا أهل مهارة فى ذلك فأبلوا بلاء حسنا، لكنهم لم يثبتوا أمام المجانيق والجنود المنظمة ، فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير ، وفيهم يقول الشاعر :

خرجت هذه الحروب رجالا لا لـقـحـطـان ولا لنزار
معشر فى جواشن الحصر يعدو ن الى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا الأبر طال عاروا فى القنسا للفرار
واحـد منهم يشد على الفية ن عريان مألـه من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطع نة خذها من الفتى العيسار

وحدث نحو ذلك من العيارين فى حرب المستعين والمعز سنة ٢٥١ هـ اذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الأمين فيها ، فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم عريفا اسمه يبنونه وعمل لهم تراسا من البوارى المقيرة وأعطاهم المخالى ليجعلوا فيها الأحجار . على أنهم كانوا كلما حدثت فتنة أهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهموا بالمنازل والحوانيت وأخذوا الأموال . وكثيرا ما كانت تحدث أمثال هذه الفتن فى بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده (١)

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفا ، وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها اما بين الحكام فى التنازع على السلطة أو الاموال، واما بين العامة تعصبا لبعض المذاهب ولاسيما بين السنة والشيعة أو الحنفية . فلم ينقض النصف الأول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد ، وجبوا الاسواق وأخذوا ماكان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة أو الجند ، واشتهر من رؤسائهم فى ذلك العصر رجل اسمه الطقطقى وآخر اسمه الزبيقى (٢) بطل القصة المشهورة

وظهر العيارون فى سائر المدن الاسلامية وعظم شأنهم ، وكثيرا ما كان الوزراء وغيرهم من أرباب الحل والعقد يقاسموئهم ويسكتون عنهم (٣)

الشطار

هم طائفة أخرى من الرعاع كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأنزرون به على صدورهم يعرف بأزره الشطار(٤) وكانوا اكثر انتشارا فى المملكة الاسلامية من العيارين وأطول بقاء منهم ، وظهروا فى الأندلس ولهم فيها نوادر

(١) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥ - ١٥٠ ج ٩

(٢) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٩

(٣) ابن الاثير ٤١ ج ١١

(٤) الاغانى ٩١ ج ٦

وتنكيات و تركيبات وأخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك
الثكلى (١) على أن اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد ، فهم يعرفون في العراق
بالشطار ، وفي خراسان يسمونهم سرا بداران ، وفي المغرب الصقورة ، وسماهم
ابن بطوطة « الفتاك » وذكر تفشيهم في أيامه (القرن الثامن للهجرة) وأشار الى
اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزووار ، حتى هجموا
على مدينة يبهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل ولوا
أحدهم سلطانا عليهم ، وانحاز اليه العبيد يفرون من مواليهم فكل من جاء من
هؤلاء أعطاه ذلك السلطان مالا وفرسا ، وإذا ظهرت منه شجاعة أمره ، الى
آخر ما ذكره (٢)

ولم يكن الشطار وغيرهم من أهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة ، وإنما
كانوا يعدونها صناعة ويحلونها باعتبار أن ما يستولون عليه من أموال التجار
الاغنياء زكاة تلك الأموال التي أوصى بامطائها للفقراء (٣) وكان أولئك اللصوص
إذا شاخ أحدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف
السرقات . وكان في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم
« التوابون » ، على أنهم كثيرا ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون
أمرهم (٤)

طوائف اخرى من الرعاع

وهناك طوائف أخرى من رعاع العامة أو من في معناهم ، تكاثروا في عصر
الاضمحلال بالمملكة العباسية ، كالصعاليك والزواجيل والحرافيش وغيرهم ،
كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف
فقد كان مع أبي دلف عشرون ألفا من الصعاليك (٥)

ويدخل في معنى هذه الطوائف ممن تجمهروا للارتزاق بالتعدي على أصحاب
الأموال العبيد ، وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت . فلما اختلت
الأحوال وضعف أسيادهم ذهب الهيبة من قلوبهم حتى إذا سنحت لهم فرصة
نهضوا مع الناهضين . وربما انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها ، كما
فعل صاحب الزنج في أواسط القرن الثالث للهجرة ، فإنه قام قرب البصرة باسم
الشيعة العلوية ، وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباح ،
فدعاهم الى النهوض معه على أن يحررهم من الرق ويريحهم من التعب ، وكانوا
قد شاهدوا رفاقهم الأرقاء البيض (المماليك الأتراك) يتمردون على الخلفاء

(١) نفع الطيب ٧٦٦ ج ٢
(٢) رحلة ابن بطوطة ٢٢٥ ج ١
(٣) الجزء الرابع
(٤) المسعودي ٢٢٥ ج ٢
(٥) ابن الأثير ٦٩ ج ٧

فاقتدوا بهم . فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها ، حتى استفحل أمرهم وضربوا أسيادهم بالسياط (١) واجتمع منهم مئات الألوف ، وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في أثنائها ٢٥٠٠ نفس من الرجال والنساء والأطفال مما تقشعر له الابدان . وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفرق أصحابه (**) .
وأراد البجة بمصر أن يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا . وقد يعد من هذا القبيل أيضا الحشاشون ، وهم طائفة من الفوضويين ظهوروا في القرن الخامس للهجرة ، وجعلوا دأبهم الفتك بأهل السلطة غدرا ، وكان لهم شأن كبير في تاريخ الاسلام (٢)

ومن طبقات العامة « المخنثون » ، وكانوا في الحجاز قبل الاسلام ، وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على أثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال . وكثيرا ما كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال . وكان أحسن المغنين منهم ، وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم . وربما أشبهوا ما كان في القاهرة من « الخول » من عهد غير بعيد . ولما انتشر الغناء في المملكة الاسلامية انتشر المخنثون معه ، وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والأندلس وسائر المغرب . والأندلسيون اذا قالوا المخنايث قد يريدون المماليك الصقالبة

وفيما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة مالا يحصيه عد ، من

(١) ابن الاثير ٨٢ ج ٧ والطبرى

(**) تعتبر ثورة الزنج أخطر ثورة اجتماعية عرفتها دول الاسلام في المشرق ، وقد غابت اسبابها الحقيقية ومغزاها التاريخي من مؤرخينا واهمهم الطبرى - فهو اكثرهم تفصيلا عنها - فهي في نظرهم فتنة بشعة تولى أمرها أفاق من أهل الاجرام يسمى على بن أحمد يدعى الانتساب الى على بن ابي طالب رضى الله عنه . وقد يكون الرجل دعيا مشموذا استغل الحركة استفلالا سيئا ولم يحسن توجيهها ، ولكن مبررات الثورة طبيعية ومعقولة ، فقد كان هناك آلاف من الزنوج يعيشون على شاطئ شط العرب مهتمهم كسح الطين الذى يحمله ماء النهر ويرسبه على الأرض الزراعية أيام الفيضان ، وكان هذا الطين يعرف بالسبخ ، وكان يغطى التربة الصالحة للزرع ، فكان الناس يستخدمونهم في كسح هذا السبخ ولا يعطونهم من الأجر غير زاد ضئيل لا يزيد على حفنة من دقيق وشئ من البلج لكل منهم في اليوم ، وكانوا يعملون جماعات ما بين ٥٠٠ الى ٥٠٠٠ زنجي . وكانوا يجعلون السبخ اكواما كالتلال الصغيرة حفرها لانفسهم فيها مساكن . وقد تحركوا قبل ثورتهم الكبرى مرارا ولكن احدا لم ينظر في أمرهم ، حتى جاء على بن أحمد هذا وحرضهم على الثورة وتولى أمرهم وعرف بصاحب الزنج ، واستعان بما ادعاه من نسب حلوى على ادراك ما طلب من رياسة . وقد بدأت الثورة سنة ٨٦٨/٢٥٥ واستمرت الى ٨٨٣/٢٧٠ وتفاقم أمرها حتى هددت بغداد ، وكان الخليفة اذ ذاك هو المعتمد وقد غلب عليه وتولى أموره أخوه الموفق طلحة . وقد تمكن الموفق بعد عناء شديد من القضاء على هذه الفتنة . ولم يكن الزنج وحدهم فيها ، بل انضمت اليهم جماعات من الزراع عرفت بالفرازية والقرمطية ونفر من النوبيين . ومن طوائف الشيعة من يرون في صاحب الزنج اماما من أمتهم ، ولهم فيه وفي حركته توالييف

انظر : الطبرى ، طبعة اوربا ج ٣ ص ١٧٤٢ - ١٧٨٧ و ص ١٨٣٥ - ٢١٠٣
نهج البلاغة بشرح ابن ابي الحديد ، طبعة القاهرة ، ج ٢ ص ٣١٠ - ٣٦٢
وانظر مادة زنج في دائرة المعارف الاسلامية بقلم لوى ماسينيون

(٢) الهلال ص ٨٣ سنة ١٠

أهل الاحتيال للمعايش بأساليب الخداع والشعوذة أو نحوهما ، ولكل صنف من هذه الأصناف اسم خاص . وربما زاد عددها جميعا على عشرين نوعا ، كقولهم المخطرانى والكافانى والبانوان والقرسى والعواء والمشعبد والفلور والاسطيل والمزيدى (١) وغيرهم .

أخلاق العامة

فالعامّة في المدن أخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى وصناعات شتى ، وهم جهال أتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول . وسئل الامام على عن العامة فقال : « همج رعاع أتباع كل ناعق » . وقال الفضل ابن يحيى : « الناس أربع طبقات : ملوك قدمهم الاستحقاق ، ووزراء فضلتهم الفطنة والرأى ، وعلية أنهضهم اليسار ، وأوساط الحقمهم بهم التأدب ، والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غشاء ، لكع لكاع وربيطة اتضاع ، هم أحدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للأحنف : صف لى الناس ، فقال : « رعوس رفعمهم الحظ ، وأكتاف عظمهم التدبير ، وأعجاز أشهرهم المال ، وأدباء الحقمهم بهم التأدب ، والناس بعدهم أشباه البهائم : ان جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » هذه هي آراء خاصة تلك الأيام في عامتهم

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقرّبونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جامعهم الكبرى ، ولا غرو فإنه أكبر أسباب سعادتهم ، ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بالخليفة إذا أظهر التقوى ، لما في منصبه من الصبغة الدينية ، وهو رئيسهم وامامهم ، فكانوا له عضدا قويا ، ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذي ذهبت فيه ، لأنهم كانوا كثيرا ماينهضون لنصرته على القواد والوزراء إذا أرادوا خلعهم . وأكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه ، ولو سئل أحدهم عن اعتقاده لما أحسن الجواب ، فضلا عن بساطتهم وسداجة أفكارهم وجهلهم سائر الأمور

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين ، فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال : هذه ناقتي أخذت منى في صفين ! فارتفع أمرهما الى معاوية ، وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة يشهدون أنها ناقته ف قضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير اليه ، فقال الكوفى : « أصلحك الله ، انه جمل وليس بناقة . . » فقال معاوية : « هذا حكم قد أمضى » ودس الى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع

(١) كتاب البخلاء ص ٣٧ . وقد فسر الجاحظ في ذلك الموضع معانى هذه الالفاظ

اليه ضعفيه وبره واحسن اليه وقال له : « أبلغ عليا انى اقبله بمائة الفمافيهم
من يفرق بين الناقة والجمل »

وبلغ من امرهم فى طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة فى
يوم الأربعاء ، واعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو
ابن العاص ان عليا هو الذى قتل عمار بن ياسر حين اخرجته لنصرته . ثم
ارتقى بهم الامر فى طاعته الى ان جعلوا لعن على سنة ينشأ عليها الصغير
ويهلك عليها الكبير

وذكروا عن عامة بغداد فى ابان التمدن الاسلامى ان رجلا منهم رفع الى بعض
الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم انه يتزندق ، فسأله الوالى عن مذهب
الرجل فقال : « انه مرجىء قدرى اباضى رافضى ، يبغض معاوية بن الخطاب
الذى قاتل على بن العاص ! » فقال له الوالى : « ما أدرى على أى شىء
احسدك ، على علمك بالمقالات أو على بصرك بالانساب . . »

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون فى بغداد للمناظرة فى أبى بكر
وعمر وعلى ومعاوية ، وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى أكبرهم
لحجة ذات يوم لبعض الباحثين وقال له : « كم تطنبون فى على ومعاوية وفلان
وفلان ! »

فقال له الرجل : « فما تقول أنت فى على ؟ »

قال : « أليس هو أبا فاطمة ؟ »

قال : « ومن هى فاطمة ؟ »

قال : « امرأة النبى عليه السلام . . بنت عائشة أخت معاوية ! »

قال : « فما كانت قصة على ؟ »

قال : « قتل فى غزاة حنين مع النبى ، وقد كان عبد الله بن على حين خرج
فى طلب مروان الى الشام . وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر . ونزل
عبد الله بن على الشام ، ووجه الى أبى العباس السفاح أشياخا من أهل الشام
من أرباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبى العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول
الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية حتى وليتم الخلافة » (١) (*)

(١) المسعودى ٥٢ ج ٢

(*) (وهذه كلها من مبالغات المسعودى فى « مروج الذهب » ، وربما كانت حكايات صنعها
ناس للتندر بها ، وظاهر ان التخليط فيها معقد تعقيدا يدل على ان صانعه من أهل العلم .
وقد كان رأى المفكرين فى العامة سيئا جدا فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب

أولئك هم العامة في كل زمان ومكان ، وطلاب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم ، لأنهم معظم الرعية وبهم تجبى الأموال ومنهم تتألف الجنود ، فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ، ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين ، فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائل السلطة المطلقة وتولى أمور الناس أكثرهم دهاء وأقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى

الآداب الاجتماعية

آداب العرب في الجاهلية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الأدبية والأمور الاعتبارية في حياتهم الاجتماعية ، وما يتبادلونه من العلاقات العائلية على ما تقتضيه عاداتهم وأخلاقهم وطبائع اقليمهم . وأساس تلك الآداب في التمدن الاسلامي ما كان عند العرب قبل الاسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم ، فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن

مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ظروف معاشهم وأطوار تمدنهم وطبائع اقليمهم ، فلبدو مناقب غير مناقب الحضرة ، ولأهل القرى آداب تختلف عما لأهل المدن ، وأهل الاقاليم الحارة آدابهم تخالف آداب أهل الاقاليم الباردة ، جريا على ما يقتضيه ناموس الارتقاء من التناسب بين طباع القوم وطبائع اقليمهم ، لئلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء

فأهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلا اكثر مما يحتاج اليها المتمدنون ، لتفرد البدوي عن المجتمع وتوحشه في الخلاء وبعده عن الحماية وانتبازه عن الاسوار ، ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائما يحمل السلاح وينفرد في القفر واثقا بنفسه ، فصارت الشجاعة سجية له . بخلاف أهل المدن الذين القوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف ، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أعراضهم وأموالهم وأنفسهم الى واليهم والحامية التي تولت حراستهم ، واستناموا الى الاسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد القوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم ، فأصبح الجبن طبيعة فيهم . اعتبر ذلك بسائر ما يقبل في طباع أهل البدو كالعصبية والكرم والوفاء والأنفة والنجدة وغيرها مما تستلزمه البداوة ولا تستقيم الا به على ما سنبينه : (**)

١ - العصبية

هي أظهر طبائع البدو وأعمها ، وقد فصلنا أسبابها وشروطها وسائر أطوارها في الجزء الرابع

(**) مرجع المؤلف هنا مقدمة ابن خلدون في مقارناته المعروفة بين البدو والحضر

البدو يعيشون غالبا بالغزو ، وهم دائما في قتال أو يتأهبون لقتال، فالشجاعة شرط من شروط بقائهم . وقد كانت غالبية فيهم ، يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجعان ، واشتهر فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة في الجاهلية والاسلام، كعمرو بن معديكرب ، وربيعة بن المكمم ، ودريد بن الصمة ، وعروة بن الورد ، وعنترة العبيسي ، وملاعب الاسنة ، وعامر بن الطفيل ، وعلى بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، والمقداد بن الاسود ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وغيرهم . واشتهرت نساؤهم بالشجاعة أيضا ، كما سيجيء في كلامنا عن المرأة

٣ - الكرم

وهو من مناقب أهل البادية ، اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدوي في أسفاره منفردا ، وقد يبتعد عن مضربه أياما في بادية لا طعام فيها ولا ماء ، فاذا لم يجد من يقريه ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيفان ، واصبح الكرم من افضل المناقب عندهم ، شأن سائر أجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون الى المغلاة فيها ، حتى أوقدوا نارا بجانب مضاربهم يهتدى بها المارة ليلا يسمونها نار القرى ، وبالغوا في احترام الكرماء ترغيبا للناس في هذه الفضيلة لافتقارهم اليها . فأصبح الاسخياء يبالغون في ذلك ويكثرون من النيران ، فاذا اشتد البرد أو هبت الرياح فعجزوا عن ايقادها ، فرقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها الى العمدة لتستوحش فتنبج ، فيهتدى الأضياف على نباحها . ولذلك كان من أسماء الكلب عندهم « داعى الضمير ، ومتمم النعم ، ومشيد الذكر » . وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها ، ومن أكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان ، كان الرجل يستطيل في ظلها (١)

وأشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي ويضرب المثل بكرمه ، فيقال للمبالغة في مدح كريم : « انه اكرم من حاتم طى » . ومنهم كعب بن مامة الايادى ، وهرم بن سنان ، وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصرا على الضرورى من حاجات الانسان ، كالطعام والشراب واللباس لبساسة أحوالهم ، وربما جادوا بالابل أو الماشية . فلما ظهر الاسلام وكثرت أموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سترى

٤ - الوفاء

لما كان الغدر سهلا على البدوى ، لامكانه الفرار من القصاص والايغال في البادية ، حيث لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمة وازع يخيفه أو جند يقبضون عليه ، ولا هناك دين يزجره مما يفضى الى ضياع الحقوق وفساد الأحوال ، جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله ، فرغب الناس فيه وأصبح بتوالى الأجيال خلقا لهم ، وصاروا يأنفون من آخلاف الوعد ويشهرون بمرتكبه ويبالغون فى الثناء على أهل الوفاء

٥ - الاستقلال

لا شىء أحب الى أهل البادية من الاستقلال ، ولاسيما الرحل فانهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقييد بشىء ، حتى المكان فهم لا يتوطنون صقعا بل يجعلون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام . وهم لا يحملون ضيما ولا يصبرون على ظلم . وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت فى اقوالهم وأفكارهم ، ونشأوا على الأنفة وعزة النفس وابعاء الضيم . ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم فى صدر الاسلام ، اذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس ، والخلفاء لا يرون بأسا بذلك لانه كان طبعا مألوفا فيهم ؟

٦ - النجدة

هى من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة ، وبينهما تناسب من حيث اغائة الضعيف ، فاذا استنجدت البدوى على أمر أنجدك ولو بذل نفسه فى هذا السبيل . وتظهر نجدتهم على الخصوص فى الجوار وحمى الدمار ، وقد فصلنا ذلك فى الجزء الرابع

٧ - الأريحية

وقد وصفنا هذه المنقبة وصفا مختصرا فى الجزء المذكور ، وهى من مناقب أهل النجدة والفروسية التى يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها الى الافتخار بحسن الأحداث ، ولما كان العرب أهل خيال وذوى نفوس حساسة كان للأريحية عندهم شأن كبير ، فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعده ، وربما تجردوا للحرب نقمة على عبارة تطعن فى شجاعتهم أو كرمهم أو وفائهم . وكانوا يتأثرون على الخصوص من أقوال النساء مدحا أو طعنا فيبذلون مافى وسعهم التماسا لثنائهن ، وكثيرا ماكان ذلك سببا فى ابتعادهم عن الرذائل ، وربما تعرض بعضهم للقتل خوفا من استخفافهن ، وفى أخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك

٨ - الثار

وكما ينجدك البدوى اذا استنجدته فهو لا يصبر عن الاخذ بثأره اذا أسأت

اليه ، واذا قتل رجل من قبيلة رجلا من قبيلة اخرى نشأت العداوة بين القبيلتين ، فتقوم الموتورة منهما للأخذ بثأرها ولا تنفك حتى تقتل من الاخرى من هو كفاء لقتيلها أو يتصالحوا على الدية . ومن أشهر حوادث الثأر في الجاهلية الحرب التي أثارها المهلهل بن ربيعة للأخذ بثأر أخيه كليب ، فأصبح المهلهل مثالا في ذلك فيقولون : « فلان آخذ للثأر من المهلهل » لأنه حلف منذ طلب الثأر أنه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا يقرب النساء الا بعد نيل مرامه

٩ - الشيخوخة

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع ، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والرئاسة معا . وكانوا اذا تساوت المناقب فيمن يرشحونه للامارة فضلوا اكبرهم سنا ، كما فعلت قريش في حرب الفجار الثانية (١) ولما جاء الاسلام وأحدث ما أحدثه من المناقب الدينية ، كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن ، فاذا تساوت كلها في المترشح للامارة فضلوا اكبرهم سنا ، عملا بالحديث النبوي بشأن الامامة : « يوم القوم اقرؤهم لكتاب الله تعالى ، فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فان كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فان كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنا » (٢)

المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية في العصر الجاهلي ، ولا مشاحة أنها كانت على الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس ، وعفتها من ثمار حب الاستقلال والانفة ، لأن المرأة التي تشب على استقلال الفكر وابعاء الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على المرأة الناشئة في مهاد الذل المغلولة بأغلال الحجاب . ويقال نحو ذلك في غيرة رجالهم على العرض ، فانه من مستلزمات العفة والانفة والاستقلال ، لأن الرجل الانوف اذا تعود العفة من امراته يعظم على طباعه احتمال مايمس عرضها من قول أو فعل . وتزداد غيرته عليها اذا كانت وحيدة لم يحب سواها ، كما كان حال العرب في الجاهلية لقللة الجوارى يومئذ ومشقة الحصول على النساء ، مع حاجة البدوى الى امراته في تدبير شؤونه واعانته في أسفاره واعماله

الواد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية ان يقتلوا بناتهم أو يثدوهن ، لثلا يرتكبن

(١) الجزء الاول

(٢) مشكاة المصابيح ١٠٠

ما يجبر عليهم العار . ولم يكن الواد عاما في قبائل العرب ، ولا كان قديما عندهم ، وانما حدث قبيل الاسلام . وكان منحصرًا في بعض بنى تميم بن مر ، ظهر فيهم لسبب طرا عليهم - ذكروا انهم كانوا يؤدون الاتاوة (الجزية) الى النعمان ملك الحيرة ، فمنعوها سنة من السنين فجرد عليهم النعمان كتابه وساق انعامهم وسبى ذراريهم ، فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون اهلهم واموالهم فأبى ، فقالوا : « امطنا النساء » فقال : « اننا نخيرهن في الذهب أو البقاء » واملن « ان كل امرأة اختارت اباها ردت اليه . وان اختارت صاحبها تركت عليه » فكلهن اختارت اباها الا ابنة قيس بن عاصم كانت قد احبت صمر بن المشمرج فاخترت البقاء عنده ، فعضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها (١) وربما اقتدى به بعض اهله أو اهل قبيلته . وكان بعض الفيورين من العرب لا يزوج بناته غيرة عليهن ، وأشهرهم ذو الاصبع العدواني فكانت له اربع بنات ممنعن الزواج وهن يردنه في حديث طويل ذكره المبرد (٢) ولم يطل زمن الواد عند العرب ، لانه مخالف لاحكام العقل ومباين لعواطف الوالدين . فما لبث أن ظهر صعصعة بن ناجية وأخذ على نفسه فداء البنات الموءودات (٣) حتى بطل الواد (٤)

(١) الكامل للمبرد ٢٧٨

(٢) الكامل ٣١٦

(٣) الف باء ٢٠ ج ٢

(٤) لم تكن الغيرة على النساء هي الدافع الوحيد لواد البنات ، بل قد يدفع اليه الفقر والرغبة في التخلص من تكاليف تربية البنات ، وهذا ظاهر من قوله تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم خشية اطلاق نحن نرزقهم واياكم » (الاسراء ٣١) وقد يكون سببه دينيا ، اى تقديسهم قربانا للالهة ، وذلك ظاهر من قوله تعالى في سورة الانعام آيات (١٣٧ - ١٤٠) : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فلذرههم وما يقترون ... قد خسر الدين قتلوا اولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ومن المعروف أن التقرب بالابناء الى الالهة كان معروفا عند الجاهليين

وظاهر أن مايرويه المؤلف عن الاغانى (ج ١٢ ص ١٤٤) من أن أصل الواد قصة بنت قيس ابن عاصم مجرد قصة من صنع القصاص ، لان الواد كان منتشرا في قبائل أخرى غير تميم ، فيروى الميدانى عن الهيثم بن تميم انه « كان في قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الاسلام وقد قل الا في بنى تميم » . ويذكر القرطبي في تفسيره ان الواد كان في مضر وخرزامة . وظاهر من الآيات القرآنية انه كان معروفا في الحجاز ، وكانت البنت توءد بمجرد ميلادها أو في سن السادسة ، والاغلب أن وأدهن في السن الاخيرة كان لسبب دينى . ومن الطريف ان الابناء كانوا لا يقومون بعملية الواد ، بل يترون ذلك للنساء ويرغمونهن على فعله ، فيخرج الرجل بعد ان يهدد زوجه بأشد الوعيد اذا هو عاد ولم يجد البنت قد ووربت التراب ، قال محمد بن حبيب النسابة في كتابه « المحبر » : (ص ٣٩٨) : « فتخذ في الارض خدا وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها ، ثم يتداولنها ، حتى اذا ابصرن به راجعا دستها في حفرتها ثم سوت عليها التراب . وكان الرجل يشترط على امراته أن تستحيى جارية وتؤد أخرى . وكان العقلاء ينفرون من الواد ، وقد تصدى الكثيرون لغدائهن ، حتى لقد روى محمد بن حبيب ان جد الفرزدق الشاعر اشترى اربعمائة جارية واربع جوار (أى بنات) وفداهن

شهرات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وارادة ، وكانت صاحبة انفة ورأى وحزم ، فنبغ غير واحدة منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما في أوائل الاسلام على اثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول ، فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال ، وأكثرهن في المدينة مقر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد

فألواتى اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش أو كبر النفس ، منهن سلمى بنت عمر احدى نساء بنى عدى بن النجار ، فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال الا وأمرها بيدها ، اذا رأت من الرجل شيئا تركته . على أن الغالب في نساء الجاهلية أن يخيرن قبيل الزواج ، فلا يزوج الرجل ابنته الا بعد أن يشاورها (١) واشتهرت التميميات من نساء قريش بحظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم (٢) ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة في أثناء الغزوات . ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال ، فلم يزل صريعا حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعت له ففلاذوا بها (٣) . وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان فى تلك المعركة ما لم تفعله الرجال ، فجمعت اليها نسوة أخذن فى أيديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهى تنشد فى تحريضهم على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تنظر جثث القتلى حتى وجدت بينها جثة حمزة عم النبى ، فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها ، ثم علت صخرة وأنشدت أشعارا تفخر بالفوز على المسلمين (٤)

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء ، وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الانصارية ، وأم حكيم بنت الحارث ، والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن (٥)

ونبغ بالرأى والحزم غير واحدة ، أشهرهن أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال ، تنتقى من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . ولما سمعت بشهرة النبى قبل الدعوة بالامانة وكرم الاخلاق ، بعثت اليه أن يخرج فى مالها تاجرا الى الشام وتعطيه أفضل ماكانت تعطى غيره من الرجال ،

(١) الاغانى ١٤٩ ج ٩ و ٢٠٨ ج ١٨

(٢) الاغانى ٢٠٣ ج ١٨

(٣) الاغانى ١٧ ج ١٤

(٤) الاغانى ٢٠ ج ١٤

(٥) الف باء ٢١٠ ج ٢

فلما أفلح في تجارته عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها . وهي أول من أسلم ،
وقد نشطته للقيام بالدعوة ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه أو
تكذيب له فيحزنه ويخبرها به إلا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه ، وما زالت
على ذلك حتى ماتت

آداب العرب في صدر الإسلام

الآداب الاجتماعية في العصر الإسلامي العربي

ينقضى هذا العصر بانقضاء دولة الأمويين في الشام سنة ١٣٢ هـ ، وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع أنها كانت عريضة النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي . وكذلك الآداب الاجتماعية ، فقد كانت لا تزال عربية بدوية ، أو هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة ، حاول العرب فيه البقاء على ما افوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها ، كالوفاء والجوار والكرم والتجدة والشجاعة والعفة . وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب ، حتى غلبت على معظمها في اواسط العصر العباسي

ويقسم العصر الإسلامي العربي الى : أيام الراشدين ، وأيام الأمويين . فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منهما على حدة

١ - الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما أصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين ، الا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه ، فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون ، واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الإسلام ، وأصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولاسيما عمر بن الخطاب ، فانه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق ، وإذا علم انه كسب مالا من غير راتبه شاطره اياه ، وكذلك كان على بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال الا لمن استحقه من أهل العطاء ، فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في أيامهم . وكان الصحابة يومئذ يقلدون الخلفاء في هذا التدقيق ، وهو مخالف للسخاء والبذل ، حتى اتهموهم بالبخل وما هو بخل ، ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذي حق حقه

أما مابقى من مناقب العرب فظلت على نحو ماكانت عليه ، وبعضها زاد تمكنا في نفوسهم ، كالوفاء والتجدة والعفة والأنفة ، لان الإسلام زادها رونقا وقوة بالعدل والتقوى ، فكان الخليفة أو أميره اذا وعد وفي ، واذا عاهد أنجز ، لا يثنيه عن ذلك طمع أو خوف . اعتبر ماكان من وفائهم لأهل اللمة ، اذ عاهدوهم على أن يحموهم ما ادوا الجزية . فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاغل

ردوا الجزية الى أصحابها واعتذروا (١) ولو لم يردوها ماطالبهم بها أحد ، وانما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم . والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر ، لما كانوا فيه من الحاجة اليها في الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب ، ولاسيما الاستقلال والحرية فانهما زادا قوة في صدر الاسلام ، لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، حتى أصبحوا يخاطبون الخليفة أو الأمير بجسارة وأنفة كما يخاطبون بعض أقرانهم ، واذا رأوا فيه اعوجاجا هددوه أو عنفوه وأصلحوه ، فاذا لم يطعمهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان . وكثيرا ما كان المسلمون يحصبون أميرهم وهو يخطب فيهم ، اذا أنكروا شيئا من أقواله أو أعماله

المرأة في عصر الراشدين

أما المرأة فاتجهت قواها في صدر الاسلام الى سداد الرأي ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والانفة ، فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثال منهن عائشة أم المؤمنين ، فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة ، حتى رأست حزبا كبيرا من الصحابة وروت أحاديث كثيرة هامة

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير ، كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع بأخبار العرب وأيامها وفي مطالع الكواكب وأحوالها . وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيرا ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها . وكانت اذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة ، وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب ، وأحد لماشطتها وآخر لخازنتها وآخر لكل من كبار أتباعها . أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهواجج (٢)

وسكينة بنت الحسين بن علي ، وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عقيلتي قريش (٣) وكانت عفيفة برزة تجالس الاجلة من قريش ويجتمع اليها الشعراء ، وتأذن للناس اذنا عاما حتى تغص الدار بهم فتأمر لهم بالأطعمة ، ثم تطرح على الشعراء الأسئلة في الشعر والادب وتنتقد أقوالهم وتجيزهم ، وخبرها في ذلك مشهور (٤)

وأسماء بنت أبي بكر ، المعروفة بذات النطاقين وهي أم عبد الله بن الزبير ،

(١) الجزء الاول

(٢) الاغانى ٦٠ ج ١٠

(٣) العقد الفريد ٢٥٤ ج ٢

(٤) الاغانى ١٧٣ ج ١٤

وفي مراجعة قولها لابنها هذا لما يئس من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتحريضها اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها (١)

ونبغ بالشعر في ذلك العصر عدة نساء ، كليلى الاخيلية والخنساء المتقدم ذكرها والفارعة المرية . واشتهر في البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة أو المذاكرة على غير ريبة ، فاذا توسمت في أحدهم انحرافا منعتة واحتجبت عنه . كما اتفق لأبى دهب الجمحى مع عمرة الجمحية ، وكانت امرأة جزلة يجتمع اليها الرجال لانشاد الشعر ، وكان أبو دهب من أشرف بنى جمح وكان لايفارق مجلسها ، وكانت تحبه وتتقدم اليه في كتمان حبها ، فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئا عن أبى دهب وأنه يقول أنها عاشقة له ، فرفعت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضربت حجابا بينها وبينهم (٢)

ولما نضج التمدن الاسلامى اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الأجزاء الماضية

٢ - الآداب الاجتماعية في عصر الامويين

أصاب المناقب العربية في الدولة الاموية تغيير يختلف عما أصابها في عصر الراشدين باختلاف أحوال الدولتين . فالأمويون لما جعلوا همهم الرجوع الى ماكان لهم من السيادة في الجاهلية أغفلوا كل ما يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى ، واستبقوا مايتوسمون منه نفعا لغرضهم - فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الأحزاب فنشطوه وتسابقوا اليه ، فزادوا الأعطية وفرضوا الجوائز وأقاموا بيوت الضيافة ، وأكثروا من السخاء على رؤساء الأحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على مايناه في باب السخاء

والشجاعة لم يكن لهم بد منها فقربوا أصحابها . والعصبية كانت ملجأهم الأكبر في مناوأة أعدائهم من شيعة على وغيرهم ، فبعد أن ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها أعادها الأمويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام

أما الوفاء فكان عثرة في طريق أغراضهم ، لما كانوا يعلمونه من حق مناظرهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا الى الغدر والفتك . وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سرا ويموه غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الأسلوب . فتدرج الخلفاء بعده من بنى مروان الى الغدر جهارا ، وأول من فعل ذلك عبد

(١) ابن الأثير ١٩١ ج ٤

(٢) الاغانى ١٦٥ ج ٦

الملك بن مروان (١) وجرى عمالهم على هذه الخطة وأفرطوا فيها ، فاشتهر بها منهم زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم

تقييد الافكار في أيام بنى امية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون في مقاومتها وقيدوا الاسنة بإرادتهم تقييدا شديدا ، فكان ذلك عظيما على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية ، فعاقبهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال أفكارهم بالعذاب الشديد . ومن لم يستطيعوا مقاومته جهارا قتلوه سرا - بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام ، وقد جرائهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في ارضاء أهله ونصرتهم ، ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضهاد أبي ذر الفغاري ونفيه ، لأنه جاهر باستبداد أهل الدولة بأموال المسلمين (٢)

فلما أفضت الخلافة الى معاوية لم ير بدا من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية ، واستعمل السدة في ذلك فقتل حجر بن عدى وعمرو بن الحمق وأصحابهما ، لأنهم قالوا بحرية ضمير أن عليا لا يجوز لعنه على المنابر (٣) فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا يتعودون السكوت عن الحق ، ثم لجأوا الى التمويه والرياء حتى في المشهور الثابت ، كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فأطرى عمل معاوية حتى قال : « أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها » . ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس أهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى أهل الدولة ، وربما كانت الدولة أحوج الى نصرتهم ، كالأحنف بن قيس التميمي فإنه كان يقول الحق ولا يبالي ، وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح . وأدرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال : « أخاف الله اذا كذبت وأخافكم اذا صدقت . . » (٤)

واقتردى بمعاوية من عاصره من الامراء أو جاء بعده من الخلفاء ، فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق ، وكثر أهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالي الأعوام

النجدة والاريجية في أيام بنى امية

أما النجدة والاريجية فظلتا في العصر الاسلامي العربي متأصلتين في العرب، وان اضطر الأمويون الى الاغضاء عنهما في بعض الاحيان . أما على العموم

(١) الجزء الرابع

(٢) الجزء الثاني

(٣) ابن الاثير ٢٣٧ ج ٣

(٤) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١

فقد كانتا مرعيتين حتى عند أشد بنى أمية استبدادا وظلما ، وفي أخبارهم كثير من أمثلة ذلك ، منها أنه جرى إلى معاوية في يوم صفين بأسير من أهل العراق فقال معاوية : « الحمد لله الذي أمكنني منك »

فقال الرجل : « لا تقل ذلك يا معاوية »

قال : « وأي نعمة أعظم من أن يمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة ؟ اضرِبْ عنقه يا غلام »

فقال الأسير : « اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك وأنت لا ترضى بقتلي ، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا ، فان فعل فافعل به ما هو أهله وان لم يفعل فافعل به ما أنت أهله »

فقال له : « ويحك ! لقد سببت فأبلغت ودعوت فأحسننت . . . خليا عنه »

وكان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى ، فقام أصغر القوم فقال له : « يامعن ، أتقتل الأسرى عطاشا ؟ » فأمر لهم بالماء ، فلما سقوا قال : « يامعن ، أتقتل ضيفانك ؟ » فأمر معن باطلاقهم . .

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم ، فقام فيهم شاب فقال : « والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسننت بالعفو » فقال الحجاج : « أف لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يقول مثل هذا ؟ » وأمسك عن القتل . وقس على ذلك (١)

وكثيرا ما كانوا يعرضون أنفسهم للقتل رغبة في حسن الأحدثة ، ولاسيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع أبيه في مقاتلة محمد ابن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب أنه مقتول فأوعز إلى ابنه عيسى أن يطلب النجاة فقال : « والله لا تتحدث نساء قريش أني خذلتك ورغبت في نفسى عنك » فقال : « فاذهب أنت ومن معك إلى عمك في مكة فأخبره بما صنع أهل العراق ودعنى فانى مقتول » قال : « لا أخبر عنك قريشا أبدا ، ولكن يا أبتى الحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو الحق بأمر المؤمنين » فقال مصعب : « لا تتحدث قريش أني فررت » وحاربوا حتى قتلوا (٢)

وظلت الأريحية مرعية في أوائل الدولة العباسية ، فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها إليه أحدهم استنهض بها أريحيته في العفو عنهم (٣) ولما عزم المأمون على قتل إبراهيم بن المهدي - وكان مصمما على قتله - شاور

(١) العقد الفريد ١٤٠ ج ١ وابن خلكان ١١٠ ج ٢

(٢) الاغانى ١٦٣ ج ١٧ وابن الأثير ١٥٦ ج ٤

(٣) الاغانى ٢٣ ج ١٢

فيه أحمد بن أبي خالد الوزير فقال : « يا أمير المؤمنين ، ان قتلتك فلك نظراء وان عفوت عنه فما لك نظير » (١) فعفا عنه

فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الأجناد الاتراك ، وتحولت الأغراض في أهل الدولة الى كسب الاموال بأية وسيلة كانت ، ذهبت الأريحية والنجدة ، على أن ذهابهما بدأ من أيام أبي مسلم الخراساني . . فكم استنجدوه واستحثوه ولم يفعل الا ما يوصله الى غرضه
والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين وما بعده ، ولا تزال حتى الآن

المرأة في عصر الأمويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من أيام الأمويين ، لأن العفة والغيرة أصابهما في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجوارى والغلمان ، وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر ، فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المختون في المدن ، وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل ، فأخذ الفساد يفسو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة الناس .
فقد رأيت أن المرأة كانت في الجاهلية وأوائل الاسلام تجالس الرجال وتخاطبهم وتذاكرهم والعرب لا يرون ذلك منكرا (٢) ولا تخامرهم فيه ريبة، وإذا توسم رجل من رجل نظرة الى امرأته أو أخته بريبة طلبه للمبارزة أو المجالدة أو المصارعة (٣) (الدويلو Duello) فيتصارعان حتى يصرع أحدهما صاحبه وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني (٤) — حتى الشعراء ، فقد كانوا لا ينظمون النسيب أو الغزل الا قليلا . ويقال ان امرأ القيس أول من شبيب بالنساء (٥) ومهما يكن من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيرتهم ، على أنهم قلما شبيبوا بعد ذلك الا بحبيب أو خطيبة . وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم ، فاذا انفق لأحدهم شيء من ذلك اشتهر أمره وذاع خبره، كما اشتهر العشاق والمجانين في صدر الاسلام . وربما تعشق بعضهم رغبة في شحد قرائحهم الشعرية . على أن تشبيبهم في كل حال لم يكن عن ريبة أو فاحشة (٦)

وكانوا يتفاخرون بالعفة وامساك هوى النفس ، وقد يجتمع الحبيبان بعد

(١) ابن خلكان ٩ ج ١
(٢) الاغانى ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧
(٣) الاغانى ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦
(٤) الاغانى ٧٤ ج ١٩
(٥) الاغانى ٦٧ ج ٢
(٦) المسعودى ١٢٢ ج ٢

طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعائبان ويتحادثان ثم ينصرفان .
وأشهر الناس فى ذلك بنو عذرة ، وأكثر عشاق العرب منهم (**)

التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشيبيون بغير خطيباتهم ، فاذا شيب أحدهم بفتاة قبل أن يخطبها منعه منها (١) وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم ، فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص ، وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شيب بامرأة الا جلده (٢) ونظراً لقلّة من يجسر على وصف النساء فى شعره كان الشاعر اذا شيب بامرأة اشتهرت فتتزوج ، ولذلك كان بعض الآباء يطلب من الشاعر أن يشيب بيناته ليتزوجن

فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقليمهم وطرق معاشهم أهل عفة ، والنساء يجتمعن بالرجال فى المجالس والاندية على غير ريبة . حتى فى الكعبة ، فكانوا يطوفون معا لا يرون بذلك بأساً لأن العفة كانت غالبية على طباعهم ، فلما جاءهم الترف وأخذوا بأطراف الحضارة وعمدوا الى التسرى والاستكثار من الجوارى تغيرت تلك الطباع . فلما كانت اماره خالد القسرى على مكة فى خلافة سليمان بن عبد الملك الأموى بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتى يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء فى الطواف (٣)

(**) بنو عذرة قبيل صغير من قضاة ، ونسبهم عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن اسلم بن الحاف بن قضاة . وقضاة نفسها مختلف فيما اذا كانت من قحطان أو عدنان . وكانت منازل بنى عذرة فى الحجاز قرب منازل نهد وجهينة وبلى ، وتجاورهم من الشمال غطفان ، ومركزهم وادى القرى وتبولك ، وامتدوا الى ايلة على شاطئ البحر الاحمر . وهناك قبائل اخرى تحمل اسم بنى عذرة ، ولكن هذه اشهرها ، وهى المعنية هنا . وقد بدأ رسول الله يكتب الى بنى عذرة داعياً اياهم الى الاسلام من العام الثانى للهجرة ، ولكن الغالب ان الاسلام لم ينتشر فيهم الا بعد فتح مكة ، وعلى اى الاحوال فقد اشتركوا فى موقعة مؤبة وقاتلوا الروم مع المسلمين

وقد اشتهر امر بنى عذرة بالحب النبيل والغزل البريء ، وقد نسب اليهم هذا الحب فقبل حب عذرى ، وقد ذاع صيتهم بذلك لا فى الادب العربى فحسب ، بل فى الادب العالمى ، وللشاعر الالماني هاينى قصيدة مشهورة عن بنى عذرة مطلعها : « انا من اليمن ، واسمى احمد ، وانا من قوم اذا احبوا ماتوا » ، وربما كان المراد بهذا عروة بن حزام الذى يلقب بقتيل الحب . وخير من يمثل هذا الحب من العذريين جميل بثينة . وتجد مجموعات من شعر العذريين فى كتاب الزهرة لداوود الاصفهانى (طبعة نيكل ، بيروت) ، ومصارع الاسواق للسراج ، وروضة المحبين لابن القيم ، وديوان الصحابة لابن ابي حجلة ، وتزيين الاسواق للانطاكى ، وطوق الحمامة لابن حزم . وانظر مادة بنى عذرة بقلم ليفى دلافيدا ، ومادة عذرى بقلم لوى ماسينيون فى دائرة المعارف الاسلامية

(١) الاغانى ١٨١ ج ٢٠

(٢) الاغانى ٩٨ ج ٤

(٣) المسعودى ١١٦ ج ٢

وفى أيام بنى أمية تجراً الشعراء على التشبيب بالنساء ، لا سيما فى المدينة بعد انتشار الغناء فيها واقبال أهلها على القصف واللهو • ومما زاد انكارهم للتشبيب أن الشاعر اذا نظم أبياتا تغنى بها المغنون فى مجالس الشراب • وأول من تجراً على التشبيب من الشعراء القرشيون ، وأسبقهم إلى ذلك ابن أبى عتيق حفيد أبى بكر الصديق ، وكان من أهل الطهارة والعفاف وإنما كان يتشبيب عن غير ريبة ، واقتدى به عمر بن أبى ربيعة وهو قرشى أيضا ، وكان كثير النسب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من أجرأ الناس على فاحشة ، وهو لم يحل أزاره على حرام (١) واقتدى به العرجى وهو من قرشى أيضا (٢) ونبغ شعراء آخرون من غير قرشى وأخذوا يشببون بالنساء رويدا رويدا

ولم يكن الخلفاء فى أول الامر راضين عن ذلك لتغلب البداوة على أخلاقهم ، فأخذوا يقاومون تيار الترف بكل قواهم ، ولكنهم كانوا يدارون الشعراء رغبة فى اكتساب الأحزاب على أيديهم ، فلا يمنعونهم من التشبيب الا اذا مس عرضهم ، ومع ذلك فالدهاة منهم كانوا يتلطفون فى دفعهم • ومن لطيف ما يحكى من هذا القبيل أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شبيب بابنة معاوية وهو خليفة فى ابان مجده ، وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على أبيه وقال : « يا أمير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان »

قال : « ولم ؟ »

قال : « شبيب بأختى »

قال : « وما قال ؟ »

قال : « قال :

طال ليلى وبت كالمحزون ومللت التواء فى جيرون » (٣)

قال : معاوية : « يابنى ، وما علينا من طول ليله وحزنه ؟ أبعده الله ! »

قال : « صدق يابنى ! »

فلذلك اغتربت بالشام حتى ظن أهلى مرجمات الظنون

قال : « يابنى ، وما علينا من أهله ؟ »

قال : « انه يقول :

هى زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون »

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١

(٢) الاغانى ١٥٤ ج ١

(٣) الاغانى ١٤٩ ج ١٣

قال : « صدق يا بنى »

قال : « انه يقول :

واذا ما نسبتها لم تجدها فى سناء من المكارم دون »

قال : « صدق يا بنى ، هى هكذا ! »

قال : « انه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الحض راء تمشى فى مرمر مستون»

قال : « ولا كل هذا يا بنى ! »

وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر أنه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه ، ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وأكبروا جسارته وقالوا : « لو جعلته نكالا » فقال : « لا ، ولكن آداويه بغير ذلك » . واتفق أن عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية وكان يدخل فى أخريات الناس ، فاستقبله أحسن استقبال وأجلسه على سريره معه وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال : « ان ابنتى الاخرى عاتية عليك » . قال : « فى أى شىء ؟ » قال : « فى مدحك أختها وتركك اياها » . قال : « فلها العتبي وكرامة ، أنا ذاكرها وممدها » . فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا : « قد كنا نرى أن تشبيب ابن حسان بابنة معاوية لشيء ، فاذا هو على رأى معاوية وأمره » . وعلم من كان يعرف أنه ليس له بنت أخرى ، وأنه انما خدعه ليشيب بها ولا أصل لها ، فعلم الناس أنه كذب على الاولى لما ذكر الثانية . وشبب أبو دهبيل الجمحى أيضا بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطاء (١)

فقس على ذلك سائل خلفاء بنى أمية وأمرائهم ، مما يدل على غلبة طبائع البدو فى الأمويين ، مع أخذهم بأطراف المدنية واختلاطهم بالأمم الاخرى وقربهم من أسباب القصف . وكان تلك الأسباب أخذت بعقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر ، وقلما كان يجسر على ذلك غير القرشيين ، وأكثرهم جسارة عمر بن أبى ربيعة المتقدم ذكره ، فانه كان يصطحب ابن سريج المغنى فيركبان على نجيين ويلقيان الحاج فيعرضان للنساء وينشدان الأشعار لا يباليون أن تكون فيهن بنت الخليفة أو امرأته

والظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لما يرون من ارتياح النساء اليه ، لأن المرأة تفتخر بأن يثنى الشعراء على جمالها وان لم يرض أهلها . فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت أرادت الحج فخاف أن يشيب بها ابن أبى ربيعة ، فاستكتب الحجاج اليه ان هو فعل ذلك أصابه بكل مكروه ، فلما قضت حجها

خرجت فمر بها رجل فقالت له : « من أنت ؟ » فقال : « من أهل مكة »
 قالت : « عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله ! » قال : « ولم ذاك ؟ » قالت :
 « حججت فدخلت مكة ومعى من الجوارى ما لم تر الأعين مثلهن فلم يستطع
 الفاسق ابن أبى ربيعة أن يزودنا من شعره أبيانا نلهو بها فى الطريق من
 سفرنا » قال : « انى لا أراه الا قد فعل » قالت : « فأتنا بشيء ان كان قاله ،
 ولك بكل بيت عشرة دنانير » فمضى اليه فأخبره فقال : « لقد فعلت ولكن
 أحب أن تكتم على » وأنشده قصيدة قالها فيها (١)

وممن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن فى ذلك العصر الأحوص ،
 كان يشبب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة فشكوه الى سليمان بن عبد الملك
 فأمر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه (٢) . ووضاح اليمن ، كان يشبب بأم البنين
 امرأة الوليد بن عبد الملك ، وهم الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال :
 « ان قتلته فضحتنى وحققت قوله وتوهم الناس أن بينه وبين أمى ربية »
 فأمسك عنه على غيظ وحنق ، حتى بلغه أنه تعدى أم البنين الى أخته فاطمة
 بنت عبد الملك ، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدما أخت الخليفة والخليفة بعلمها
 فرحت قوابلها بها وتباشرت وكذاك كانوا فى المسرة أهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال : « أما لهذا الكلب مزدرج عن ذكر نساتنا
 وأخواتنا ولا له عنا مذهب؟ » ثم دعا به فأحضر وأمر ببئر فحفرت ودفنه فيها
 حيا (٣)

فكانت أيام بنى أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة الى
 الحضارة ، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقى من سذاجة البداوة فى طبائع
 العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وأبيح التشبيب
 وشاع على ألسنة الشعراء ، حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفخر .
 وكان الخلفاء الأولون من بنى العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فأنكروا
 ذلك ونهوا عنه . ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور فان بشارا أنشده
 مديحا فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة (٤) فظل التشبيب مستقبحا
 حتى أباحه الرشيد والحق فى نظمه (٥) فال ذلك طبعا الى ضعف الغيرة

(١) الاغانى ١٢٨ ج ٢

(٢) الاغانى ٤٨ ج ٤

(٣) الاغانى ٤٠ ج ٦

(٤) الاغانى ٤١ و ٥٨ ج ٢

(٥) الاغانى ١٦٠ ج ٣

الآداب الاجتماعية فى العصر العباسى

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغير بعد الاسلام ، بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس فى الرخاء والقصف والاختلاط بأهل المدن ، فغلبيت عليهم الضعة وركنوا الى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة المادية، وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعدا عن البداوة وخشونتها وسادجتها، وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصرؤهم فى قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب ، فذهبت العصبية العربية واستلزمت رغبتهم فى بقاء دولتهم العدول الى الفتك والخطر على ما فصلناه فى الجزء الرابع ، فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والانفة والعصبية والنجدة الا آثار ضعيفة

المرأة فى العصر العباسى

وآل تكاثر الجوارى وشيوع التسرى الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال ، حتى صاروا يتهادون الجوارى الروميات والتركيات والفارسيات وهن أجمل صورة وأشرق وجها من نساء العرب . فبعد أن كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر فى غير زوجها وهى واثقة بأمانته ، اذا هو قد تشتت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرته عليها . ولما رأته مشغولا عنها قلت ثقتها به الا من عصمها عقلها وشرفها . فلم ينضج التمدن فى العصر العباسى حتى تنوسيت المرأة العربية فى المدن ، وذهبت حريتها وغيبتها وصارت هى نفسها تهلى زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها ، لا يههما ذلك ولا تغار منه (١) وبعد أن كان العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعه من زواجها صاروا يسامدون فى الحصول عليها (٢)

فأفضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها ، فاحتقرها الرجل وأساء الظن بها وصار يعدها عدوة له ويوصى بعدم الاركان اليها ، فيعاشرها على غل وسوء رأى ، يقفل عليها الابواب والنوافذ ، ويسد فى وجهها الطرق والمسالك ، ويمنعها من الخروج أو الكلام ، وهو صاحب

(١) الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج ٢

(٢) تزيين الاسواق ١٢٢

الذنب في انحطاطها • فأصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعا على ألسنة الناس ، حتى ألفوا فيه الروايات والاقاصيص ونظموا الشعر ، وتفننوا في وضع الجمل الحكيمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها • وهذه هي قصة ألف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الأعراس الإسلامية الوسطى ، بعد شيوع التنسرى وانغماس المسلمين في الترف • وأما الأشعار فاليك ما قاله أبو العلاء المعرى :

إذا بلغ الوليد لديك عشرا فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتنى وأضعت نصحى فأنت، وان رزقت حجى ، بايد
ألا ان النساء حبال غى بهن يضيع الشرف التليد(١)

وأصبح الكاتب اذا أراد تعزية صديق على فقدننت له قال ما قاله أبو بكر الخوارزمى ، اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه فى بنته وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها ووقفت عليه من غرائب أمرها ، لكنت الى التهتئة أقرب من التعزية • فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات ، ونحن فى زمان اذا قدم أحدنا فيه الحرمة فقد استكمل النعمة، واذا زف كريمة الى القبر ، فقد بلغ أمنيته من الصهر ، قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريما كنعمة عورة سترت بقبر
وقال آخر :

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا والموت أكرم نزال على الحرم
وقال آخر :

وددت بنيتى وودت أنى وضعت بنيتى فى لحد قبر
وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات
وقال آخر :

سميتها اذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيت(٢)

هذا مثال من آراء أدباء المسلمين وشعرائهم فى المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة

فلم يبق من المناقب العربية فى العصر العباسى الا السخاء ، لأنه كان لازما لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها ، بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق فى ذلك العصر

(١) ألف باء ٧٧ ج ٢

(٢) رسائل الخوارزمى ٢٠

الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق فى التمدن الحديث مبنى على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها ، فينال الانسان من رزقه على مقدار كده وجده مع اعتبار درجة عقله وذكائه ، سواء كان ذلك بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو غيرها . وقد وضعوا لكل من أبواب الرزق قواعد فى تقدير الارباح لاتتعداها الا فى أحوال خاصة ترتفع فيها الأسعار فجأة كما حدث بمصر لهذا العهد (حوالى ١٩١٠) . وعلى أى حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله ، والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله

أما فى التمدن الاسلامى فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك فى طبقة العامة من المزارعين والباعة وأهل الصناعات . وأما فى الخاصة وأتباعهم فكان على أسلوب آخر لا مثيل له بين المتمدنين فى هذا العصر ، ومداره « السخاء » المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فمن بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة . ومصدر هذه الارتزاق بيت المال ، وهو فى قبضة الخليفة أو من يقوم مقامه من الوزراء أو القواد أو الامراء على حسب أطوار النفوذ . والأموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية . وقد رأيت فى الجزء الثانى من هذا الكتاب أن متوسط جباية الدولة فى العصر العباسى الأول بلغ نحو ٣٦٠ مليون درهم فى العام ، لا ينفق منها على مصالح الدولة أكثر من ٥٠ مليوناً ، فالباقى ٣٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم تبقى فى بيت المال تحت تصرف الخليفة ، وأكثرها من جباية الخراج . وكان الخراج فى العصر المذكور ثقيلاً ، لأنهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف أو الثلث ، وذلك فى نظر أهل هذا الزمان ظلم ، ولكن أهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقا ، لأن العباسيين نقلوا للخراج من المساحة الى المقاسمة ، فبعد أن كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الأرض زرعت أم لم تزرع ، حصروا الخراج فى الأرض المزروعة وجعلوه شطرا من غلتها (١)

سنة العرب فى الارتزاق

والأموال التى تبقى فى خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها ، ويفرق سائرهما فيمن بقى من الخاصة بين جوائز ورواتب ، فتتسع أحوالهم بالجاء أكثر منها بالمال ، فيضطرون الى الانفاق لحفظ مقامهم . فينفقون على من يتعلق بهم ، فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله الى حواشيهم وأتباعهم ، ومن هؤلاء الى الباعة وأهل الأسواق فيعود الى

العامة كأنه لم يؤخذ منهم • وهي سنة في الارتزاق تظهر لأول وهلة أنهما من خصائص التمدن الاسلامي ، ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم • فأهل أثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملا ولا يحترفون حرفة في سبيل الرزق ، وانما كانت أرزاقهم من خزانة الدولة يتناولونها رواتب في أوقات معينة ، أو هبات في أوقات غير معينة ، على مقتضيات الأحوال أو على ما يلحقهم من الغنائم ونحوها • ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية أو العلمية والتمثلية في حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها (١) ولكن ذلك كان محصورا في أثينا أو غيرها من العواصم الكبرى • أما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة ، لتمكن السخاء في نفس العربي ، ولأن هذه السنة كانت شائعة عند العرب من أيام الجاهلية • فأمر القبيلة كان يغزو بقبيلته ، فما وقع له من مال وماشية فرقه في كبار رجاله ، وهؤلاء يفرقونه في أهلهم وأتباعهم ، ولذلك ذكروا من سنن العرب في الارتزاق أنهم « نهابون وهابون » (٢) وكان العرب يكرهون اختزان الأموال ويعدونه قبيحا (٣)

والسبب في بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب أنها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور ، وخصوصا في الاسلام منذ طمع بنو أمية في الخلافة واستخدموا الأموال في ابتياع الأحزاب واسترضاء كبار الرجال ، فعودوا الناس العطاء • فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه ، بل تجاوزوه من بعض الوجوه ، فصار السخاء ضروريا لقيام الدولة والا فسد عليها حمايتها وتمرد أهلها

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال ، جريا على سنة العرب أو عملا بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي (صلعم): « نعم المال الأربعة ، والأكثر الستون ، وويل لأصحاب المئين » (٤) ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في بيت المال شيئا • على أن المسلمين في أيامهم كانوا مشغولين بما بين أيديهم من الغنائم ، وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والاخلاص في الجهاد والخراج في أيامهم معتدل فلم يكن يفيض منه شيء كثير ، فلما طمع الأمويون في الملك اتخذوا كل وسيلة لجمع المال والاستكثار منه ، وزادوا أعطيات الجند ووهبوا وأجازوا ، وضاعفوا رواتب أبناء الصحابة وغيرهم من القرشيين أصحاب النفوذ ، فكان هؤلاء يتوسعون في الانفاق ببناء القصور

Library of Univ. Fist, 11,750. (١)

(٢) ابن خلكان ١١٧ ج ٢

(٣) الاغانى ١٥٦ ج ١٢

(٤) الاغانى ١٥٢ ج ١٢

واقترناء الخدم والجواري ، ويهبون الشعراء والندماء والحاشية والاتباع فيذهب ذلك المال كما أتى

كذلك كان يفعل عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص (١) فيفقد أحدهم على معاوية أو يزيد فيؤدى له عطاءه ، وربما أهداه هدية سنوية ، فيعود الى بلده ويفرق المال جميعه في أهله وأعوانه (٢) وكان الخلفاء يعرفون ذلك ويعدون عطاءهم لهؤلاء عطاء لأهل المدينة (٣) وليس ذلك خاصا بفئة منهم بل كان شاملا الاكثرين ، حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما ، فكانت عائشة هذه تفد على الخليفة وربما كانت في ضيق ، فتشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة ألف درهم مثلا ، فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر أو الفارس فتعطيه الألف بعد الألف حتى تستنفد ما جاءت به (٤) - حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم فيمن حولهم ، ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل الى أيديهم من المال لا يزالون مدينين ويموت أكثرهم فقراء (٥)

ولما أفضى الأمر الى العباسيين ساروا على هذه السنة في الأعطيات والجوائز، وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة في أيامهم . وكان أصحابهم يفرقونها في الناس ، فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويفد على بغداد فيرده المهدي متقلا بالأموال ، فلما يصل الى المدينة يجعلها صررا يفرقها في أهلها (٦) وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين ، وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر أحواله . وربما أنفقوا بعضه في حاشية الخليفة أو غلمانة (٧) ليسهلوا لهم الدخول عليه

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء أو الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضا يؤيدون به سلطتهم . أما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهو الضيافة ، فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم الى الطعام ، فيجتمع على مائدة الأمير ألوف من العامة يأكلون معا صباحا ومساء . ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين ، جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام في استرضاء القبائل المختلفة ، فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق ، وأول من فعل

(١) العقد الفريد ٨٥ ج ١

(٢) المسعودي ١١١ ج ٢

(٣) العقد الفريد ١١٠ ج ١

(٤) الاغانى ٦١ ج ١٠

(٥) الاغانى ١٧٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧

(٦) ابن خلكان ١٣١ ج ٢

(٧) الاغانى ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢

ذلك عبید الله بن عباس (١) واشتهر في صدر الاسلام غير واحد من الاءجواد ممن كانوا يقبضون الاءعطية الكبيرة من خلفاء بنى أمية فينفقونها في البذل والسخاء ، وقد تقدم ذكر بعضهم

وجرى الدهاة من عمال الأمويين على هذه السنة، فنصبوا الموائد على الطرق، فكان الحجاج يضع في كل يوم من أيام رمضان ألف خوان ، وفي سائر الايام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر ٠ وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقدھا ، يحملونه اليها في محفة وينتقلون به من خوان الى خوان ، فاذا رأى أرزة ليس عليها سكر أمر الخباز أن يجيء بسكرها ، فاذا أبطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر به فضرب ٢٠٠ سوط ٠ وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن ، فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء (٢) وكان يوسف ابن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان (٣) وكان يزيد بن هبيرة يضع ألف خوان يطعم الناس (٤) وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كابن طولون بمصر ، فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعام (٥) وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين بمصر ، فانه كان يفرق ١٢٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم ، واذا دخل رمضان أضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه (٦) هذا غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الأموال على سبيل الصدقة ، فكان لكل من الخلفاء والأمراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم ، على ما قدمناه في الجزء الثاني من الكتاب، وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة في الأجر أو عملا بمقتضى الأريحية

واطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصا بالمسلمين ، وانما هو أيضا من سنن الأعصر الغابرة ٠ فقد كان العامة في رومية يعيشون من أطعمة يفرقها فيهم أهل الدولة من الدقيق واللحم ، وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى أو عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب أو لبن وسمكة مصنوعة (٧) والمسلمون جروا على هذا الترتيب افتداء بالفرس ، مثل اقتدائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية

وأما الخاصة أو من جرى مجراهم من المقربين غير الموظفين فكان الخلفاء يهبونهم

-
- (١) العقد الفريد ٨٣ ج ١
(٢) العقد الفريد ٦ ج ٢ وابن خلكان ٨٢ ج ١
(٣) العقد الفريد ٦ ج ٢
(٤) ابن خلكان ٢٧١ ج ٢
(٥) ابن خلكان ٥٥ ج ١
(٦) المقرئى ٨٥ ج ١
(٧) ترتيب الدول ١٢٠

الهيئات أو يعينون لهم الرواتب لتقييد ارادتهم (١) كما تقدم ، ولذلك كان أهل الأنفة يكرهون صلوات الخلفاء ويبعدون عن جوائزهم رغبة في الاستقلال ، وأكثر ما يقع ذلك لأهل البادية الذين لم تذلمهم الحضارة ، ولا سيما بعد نكبة البرامكة ، فقد طال حديث الناس يومئذ بأمرهم وغلب على اعتقادهم أن من يثرى من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر - ذكروا بدويا غيرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى أن قالت : « هذا فلان قد أخذ الأموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضباعا ، وأنت ههنا كما ترى . . » وكانت امرأته باهلية فأنشأ يقول :

تلوم على ترك الغنى باهلية
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرا
أسرك أنى نلت ما نال جعفر
وأن أمير المؤمنين أغصنى
رأيت رفيعات الأمور مشوبة
دعيني تجيء منيتى مطمئنة
ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
مقلدة أعناقها بالقلائد
من العيش أو مانال يحيى بن خالد؟
بغصهما بالمشرفات النوارد؟
بمستودعات فى بطون الأساود
ولم أتجشم هول تلك الموارد (٢)

الهيئات والدين

على أن الفقهاء وأهل التقوى كانوا فى صدر الاسلام وأوائل دولة بنى أمية يعدون صلوات الخلفاء رشوة ويترددون فى قبولها ، فما لبثوا أن ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها . قال ذو الرمة :

وما كان مالى من تراث ورثته
ولكن عطاء الله من كل رحلة
ولا دية كانت ولا كسب ماتم
الى كل محجوب السرادق خضرم (٣)

ثم صاروا يتزلفون الى أصحاب الأموال ويستجدونهم رغبة فى الارتزاق . فبعضهم ينال رزقه صلة أو جائزة ، وآخرون يقبضونه راتبا معيناً ، وهؤلاء على الغالب من أهل البأساء وأيتامهم وأراملهم (٤) أو زعماء القبائل ورؤساء الأحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة والأمير أو يتوسم فيه الأجر والثواب . فكان بعضهم يفرض الفروض لأولاد الأنصار والمهاجرين، وغيره يعطى العلويين أو الطالبين ، وغيره يعطى قريشا أو اليمن ، وقس عليه . فكان ابن عيسى وزير المقتدر يعطى الطالبين والعباسيين وأبناء الأنصار (٥) وكان ابن الفرات

(١) الاغانى ١٥٤ ج ١٧

(٢) الاغانى ٩ ج ١٢

(٣) العقد الفريد ٨٧ ج ١

(٤) ابن الاثير ١٥٤ ج ٦

(٥) تاريخ الوزراء ٣٢٣

يعطى الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات ، أكثرهم مائة دينار في الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك (١) وكان لكافور الاخشيدى بمصر مال خاص يجرى منه الارزاق على من يأتيه ناقما على الخليفة ببغداد أو غيره (٢)

ولهذه الأسباب كان الخلفاء يستحلون أجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال ، لأنهم يعدون ذلك فى سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفاعا عن أنفسهم ، بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من أهل النفوذ الدينى سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن أنفسهم ، كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثورى (٣)

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال فى ارتزاق الصغير من الكبير فى التمدن الاسلامى، أما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضا ولكن على سبيل الهدية ، فيعدون عطية الأمير الى الصغير جائزة أو صلة ، ويسمون ما يقدمه الأصاغر الى الأمير والوزير هدية . وكانت الهدايا شائعة على الخصوص فى العصر العباسى ، فاذا تولى الأمير على بلد فأول ما يدخلها يبعث أهلها اليه بالهدايا من الاموال وألجوارى والدواب والسياب(٤) وهو يبعث الى الوزير الذى ولاه أو الخليفة بالأموال بسبيل الهدية أيضا ، واذا طال مقامه أصبحت تلك الهدايا فرضا واجبا يبعث بها كل سنة ، فاذا أمسكها سنة عدوا أمسكها تمردا(٥) فالسخاء كان سنة عامة فى عهد ذلك التمدن ، لا يستثنى عنه عصر أو طائفة وان تفاوتت مقاديره واختلفت صورته وأشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا فى أول عهد الأمويين الابل والحيل والماشية ، فيأمر الخليفة أو الأمير لمن يستجديه بلقحة وفحلها وراعيها ، أو جارية وفرس ، غير ما فرضوه من الأعطيات فانها كانت تعطى عينا أو ورقا . ثم صارت فى أواسط الدولة نخوت الشياب من الوشى ونحوه والوصائف فضلا عن النقود ، وصارت فى بنى العباس البدر من الدنانير وعقود الجواهر ونخوت الديبقي والقصور والضياع وغيرها

المجاملة فى المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة فى نفوس العرب . وذهب بعض الباحثين الى أنها فطرية فى أصل أرومتهم ، وما هى كذلك وانما تولدت فيهم بتوالى

(١) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١
 (٢) الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج ٢
 (٣) سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثانى من هذا الكتاب
 (٤) ابن الاثير ٥١ ج ٦
 (٥) ابن الاثير ١٢١ ج ٧

الأجيال وتقلب الأحوال • لأن العرب كانوا مفتورين على استقلال الفكر وحرية الرأي كما رأيت ، وظلوا على ذلك الى انقضاء عصر الراشدين ، ثم أخذت أفكارهم فى الانحباس وعقولهم فى التقييد من عصر الأمويين ، لما اقتضاه طمع بنى أمية فى الملك من الشدة والحيلة ، فاضطر الناس للمداجاة والتمويه • وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يداجون الناس ويجاملونهم ، رغبة فى نصرتهم أو قطع ألسنتهم ويعدون ذلك « حلما »

وأشهر الحكماء وأقدمهم معاوية بن أبى سفيان ، فقد ذكرنا فى الجزء الرابع أنه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الأحزاب فيه وفى دولته ويفضى ، وربما أحسن الى الطاعنين أو تظاهر بالاستخفاف ، كما فعل بشعبة ابن غريص • وكان فى الكعبة ومعاوية هناك ، فبعث يدعو فأتاه رسوله فقال : « أجب أمير المؤمنين »

قال : « أو ليس قد مات أمير المؤمنين ؟ » (يعنى عليا) فقال له : « أجب معاوية » • فأتاه ولم يسلم عليه بالخلافة ، فقال له معاوية : « ما فعلت أرضك التى بتيماء ؟ » قال : « يكسى منها العارى ويرد فضلها على الجار » قال : « أتبيعها ؟ » قال : « نعم » قال : « بكم ؟ » قال : « بستين ألف دينار ، ولولا خلة أصابت الحى لم أبعها » قال : « لقد أغليت » قال : « أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف دينار ثم لم تبال » قال : « أجل • واذ بخلت بأرضك فأشددنى شعر أبيك يرثى نفسه »

فأنشده تلك الأبيات فأعجب بها معاوية وقال : « أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك » قال : « كذبت ولوؤمت ! » قال : « أما كذبت فنعم ، وأما لوؤمت فلم ؟ » قال : « لأنك كنت ميت الحق فى الجاهلية وميته فى الاسلام • أما فى الجاهلية فقاتلت النبى صلى الله عليه وسلم والوحى حتى جعل الله كيدك المردود ، وأما فى الاسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة ، وما أنت وهى أنت طليق ابن طليق ؟ » فقال معاوية : « قد خرف الشيخ فأقيموه » فأخذ بيده فأقيم

وكان معاوية اذا أعجزه اصطناع الأحزاب بالعطاء أو بالحلم أو بالسيف جهارا عمدا الى قتلهم غيلة ، وكان أنصاره يعرفون ذلك فيه وأنه يصانعهم ليغلب بهم ، فكانوا يصانعونه طمعا فى مال أو منصب ، فكانت المصانعة والمداجاة أساس سياسة معاوية • وقد قواهما واستثمرهما بدهائه وحزمه ففاز ، وتحدث المسلمون بحلمه وسعة صدره وجعلوه قدوتهم ، والناس على دين ملوكهم • فكثرت الميل الى المصانعة فى ذلك العصر ، وهى على الغالب بين الدولة ورجالها - على أن الأريحية كانت تحول دون تمكنها

فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين أغضى أبو مسلم عن الوفاء والأريحية وقتل على التهمة ، فأصبح الناس يخافون على حياتهم وان لم يقتربوا ذنباً ، فزادت حاجتهم الى المصانعة . ولما فاز أبو مسلم بحزبه وسلم مقاليد الدولة الى العباسيين ، كانت فوضى بينهم وبين العلويين . فلما تقلدها المنصور وطمع فى استخلاصها للعباسيين ، فتك بأبى مسلم ثم قتل من قتله من العلويين ، وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم ، فاستخدموهم على غل ولجأوا فى الاحتراس منهم واتقاء أذاهم الى الجاسوسية ، فبثوا الارصاد على وزرائهم وعمالهم ، يستطلعون أخبارهم ويبعثون بها اليهم سرا . والأرصاد نوعان : الأول أصحاب البريد فى الأطراف والعمال يعلمون أنهم رقباء على أعمالهم ، والثانى العيون الخفية يتخذونهم من الجوارى والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره أو عامله ، فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون فى جملة الندماء أو المغنين أو القيان أو أصحاب الشراب ، ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سرا الى الخليفة . وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاغنة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة ، وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الأريحية وزوال الأنفة وعزة النفس من العرب ، على أثر تضعض العنصر العربى وتغلب العناصر الأعجمية مع تنافس أصحاب المطامع من هؤلاء فى أواسط الدولة العباسية بابتزاز الأموال . واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد أن فسدت الأحكام فى الدول الإسلامية واستبد السلاطين والأمراء غير العرب بمن أقام فى ممالكهم من أهل اللسان العربى ، ويسمونهم عربا وهم أخلاط من مولدى الأمم الأخرى . فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم - الا الذين أوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة أجيالا متوالية

العائلة فى التمدن الاسلامى

كانت العائلة فى أواسط التمدن الاسلامى نحو ما هى عليه اليوم، وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها ، فلا نطيل القول فى ذلك الآن وانما نقول كلمة فى بعض خصائص العائلة الاسلامية ، كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق

١ - الحجاب

إذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه فهو ليس من محدثات الاسلام ، بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئاً

منه ، وظل معروفا في أوروبا الى العصور الوسطى وما بعدها ، ولا تزال آثاره باقية في أوروبا الى الآن

واذا أريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامي ، لأنه لم يكن شائعا قبله . على أنه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة ، الا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين واركانهم الى الترف والرشاء . وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية أنها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والاقدام والحزم والرأى والتجارة والأدب والشعر وغيرها . فلما انتشر الاسلام وكثرت الجوارى وشاع التسرى في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة ، فقلت غيرته عليها وأساء كل منهما الظن في صاحبه ، والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب وأقام عليها الأرصاء والعيون من أوائل الدولة الاموية ، اذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض

فالحجاب الضيق على نحو ما شاع بين العائلات الاسلامية في الشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده بأهل بيته واستثثاره بالملذات لنفسه ، وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الأذهان . ولو راجعت ما جاء في القرآن الكريم من هذا القبيل لرأيت تفسيره أقرب الى ما يراد من رفع الحجاب (*) . ولكن الناس تعودوا أن يفسروا الآيات القرآنية بما يوافق عاداتهم أو أغراضهم أو أميالهم . اعتبر ذلك في كل دين تمدن أهله وعمدوا الى تفسير كتبه ، فكتب النصراني مثلا ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامرأتين فأكثر ، ولكن الكنيسة رأت أن الاقتصار على امرأة أقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع ، فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل . والمسلمون لما استكثروا من الجوارى وساءت الظنون بينهم وبين نسايتهم أرادوا الحجر عليهن ، ولم يعدموا تفسيراً يساعدهم على ما أرادوا فحبسوهن وضيقوا عليهن . واعتقدت المرأة بتوالي الأجيال أنه يحل للرجل ما لا يحل لها ، فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه . فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزا ، وغادرها تجالس الخدم والعبيد ، وأصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحادثها الا نادرا ، وأعلن ارتياحه في أمانتها وأصبح يفتخر بأنها لا تخرج من منزلها الا الى القبر

على أن ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن ، لأنه

(*) كتب المؤلف هذا الجزء في عصر كان الحجاب فيه مضروبا على المرأة ، وكان زعماء النهضة الفكرية والاجتماعية يدمون الى السفور ويطالبون بحرية المرأة كما نرى في دعوة قاسم أمين . وكان جرجي زيدان من قادة الفكر في العالم العربي اذ ذلك ، وهو يبسط في هذا الفصل رأيه في تحرير المرأة ويؤيد دعوة قاسم أمين وأنصاره من التقدميين

يأمر بالمودة والرحمة بين الزوجين ، وهذا نص الآية « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » وقوله « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقوله « وعاشروهن بالمعروف » ، ولكن الرجل أبى الا الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العسلم ، اذ اقتصر الفقهاء على النظر فى الأبحاث الدينية الجديدة ، وخيم الجهل على العقول كما أصاب النصرانية فى الأجيال المظلمة ، فأخذوا يفسرون الآيات والأحاديث على ما يوافق ميولهم وأهواءهم . وكانت الأحكام قد فسدت واستبد الحكام فى الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة

لأن الرجل فى طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعسفه ويكظم ما فى نفسه، حتى اذا جاء منزله عامل أهله مثل معاملة الحاكم له انتقاما لنفسه . . تلك سنة من سنن العمران على اختلاف أطوار التمدن . فالبلاد التى يتولاها حاكم ظالم يقنطدى به أرباب العائلات بظلم نساءهم وأولادهم ، وأما فى الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل فى حكومته . فالبيت دولة صغيرة تمثل دولة الأمة

وما زالت المرأة المسلمة فى نحو ما تقدم الى أوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت ، حتى تصدى بعض أرباب الأقلام من المسلمين فى أواسط القرن الماضى ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرصوا اخوانهم على تركه . وأقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق فكتب الفصول الضافية فى « الجوائب » بالاستئانة ثم كتب غيره فصولا لا تشفى غليلا . حتى ظهر كتاب تحرير المرأة فى آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك أمين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالا لسائل

٢ - تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الاسلامية تعدد الزوجات ، وهى أن يتخذ الرجل زوجتين الى أربع ، والشرع الاسلامى يجيز له ذلك بشرط اذا روعى حق مراعاته لم يتخذ الرجل الا زوجة واحدة . لأن الآية التى تجيز تعدد الزوجات تشترط أن يعدل الرجل بينهن فاذا خاف ألا يعدل فيقتصر على واحدة ، وهذا نص الآية « فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وفى محل آخر « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » فاذا جمعت بين الآيتين رأيت فحواهما أقرب الى النهى عن تعدد الزوجات منه الى الأمر به . ولذلك رأيت الغالب فى العقلاء وأهل المروءة أن يكتفوا بزوجة واحدة . وكان ذلك سهلا فى عصر التسرى ، اذ قد يأتى النسل من بعض الجوارى فلا يجد الرجل ضرورة الى

الزواج ثانية أو ثالثة اكتفاء بجواريه ومن يأتينه بما يشتهي من النسل .
على أن تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في أهل الفضيلة والعقل إلى اليوم ولكن
على قلة . وإذا أحصى المتزوجون بأكثر من امرأة لا نظنهم يزيدون على خمسة
في المائة أو عشرة من مجموع المتزوجين ، وهم في الغالب من العامة وإذا كانوا
من الخاصة فإنما فعلوا ذلك لأسباب قهرية

ومن أجاز تعدد الزوجات ذهب إلى تفسير « العدل » بالعدل في النفقة لا في
المحبة ، على أن كثيرين من أهل الوجاهة والشرف في العصور الإسلامية
الوسطى كانوا يجمعون بين التسرى وتعدد الأزواج ، والغالب أن تكون السيادة
للمرأة الأولى وإن اختلف ذلك باختلاف الأحوال - ولكن المرأة العاقلة التقية
كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجوارى الحسان فضيلة ، كما فعلت أم
جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير

وقد تساعد المرأة التقية زوجها على الزواج بامرأة أخرى تتوقع من مساعها
في ذلك ثواباً - روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن إحدى أزواج أبيه قال
إنها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطبعة له ، ومن
جملة برها له أنها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها وتنظمن
بالحلى والملابس وتقدمهن إليه وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك ، وكان
ينزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسوؤها فعله ولا يحصل عندها ما يحصل
عند النساء من الغيرة (١)

٣ - الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات ، فالعقلاء يذهبون إلى كره
الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله تعالى « وإن خفتم
شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق
الله بينهما » وقوله « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً
كثيراً » وفي الحديث « أبغض الحلال عند الله الطلاق » ، ومع ذلك كان بعض
كبار الصحابة يكثر من كثرة مدهشاً ، كما فعل الحسن بن علي بن أبي
طالب فإنه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ ، وكان أبوه يضجر من ذلك ويكرهه
حياء من أهليهن ، وكان يقول في خطبه : « إن حسناً مطلقاً فلا تزوجوه » .
ويليه المغيرة بن شعبه فقد تزوج نحو هذا العدد (٢) على أن الطلاق ما زال
مكروهاً كما رأيت من كلام الإمام علي وأهل الانفة والفضل لا يطلقون إلا لعل

(١) الجبرتي ١٨٢ ج ٣

(٢) الف باء ٢٤٨ و ٢٤٩ ج ٢

كبيرة أو عذر شرعى • ولو أحصيت حوادث الطلاق لرأيت أكثرها فى طبقات العامة

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة فى الحجاب ، فيتنزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها فإذا لم توافقه هان عليه طلاقها ، لأنه لم يرض الزواج على هذا الشرط الا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته إذا لم تعجبه • وهذا التضييق ليس من الدين فى شىء ، لورود عدة أحاديث تجيز للرجل أن يرى خطيبته قبل الزواج ، وأحاديث تأمر برؤيتها صريحا (١) فلو عملوا بذلك لقلت البواعث على الطلاق • على أن للطلاق فى بعض الاحوال فوائد اجتماعية حرمت منها الطوائف التى لا طلاق عندها

العيشة العائلية

١ - الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصرا على الألبان وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبن ، ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على أبسط ما يكون من أحوالها كما يفعل أهل البادية اليوم ، وأكثر ألبانهم ولحومهم من الابل ، وقد يصنعون منها أطعمة تتركب على نسب معينة كالثرديد فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز . ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيذة والعصيدة ، أو يصنع من السمن والدقيق كالبكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة ، ولهم من أمثال هذه الأطعمة نحو أربعين لونا

ذلك هو طعام أهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة، وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الابل أو الضأن ، وانما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد ، واذا جاعوا أكلوا العلهز وهو وبر الابل يمهونه بالحجارة فى الدم فيطحنونه ، وكان حال القرشيين قريبا من ذلك (١) وربما أكلوا القرامطة ونحاتة القرون والأظلاف والمناسب من برادتها ، أو القررة وهى الدقيق المختلط بالشعر . وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء ، شربوا الفظ وهو عصارة الفرث أو المجدوح وهو مصل دم الابل (٢)

فلما جاء الاسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ، ووقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها ، فأشكل عليهم أمرها وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فأحضره الى أصحابه فظنوه ملحاً، فطبخوا طعاما ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعما ولم يعلموا ماهو ، فرآه رجل عرف ما فيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوى درهمين (٣) ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعا يكتب عليها (٤) وشاهدوا الأرز فظنوه طعاما مسموما (٥) ثم مالبتوا أن أقاموا بين أولئك الاقوام حتى تعرفوا ماكلهم ولاسيما الفرس ، فأخذوها عنهم كما أخذوا أكثر مبادئ الحضارة وكثيرا من العادات والآداب ، وليس فى الشرع الاسلامى ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الأطعمة الا ما جاء النص بتحريمه

(١) ابن خلدون ١٧٠ ج ١

(٢) كتاب البهلاء ١٨٣

(٣) الفخرى ٧٤

(٤) ابن خلدون ١٤٤ ج ١

(٥) الهمداني ١٨٨

فأخذوا بأطراف الحضارة من أيام بنى أمية ، وأول من قلده الأعاجم بأسباب الترف معاوية ، فتنعم بما كلفه ومشربه (١) واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ، ولا سيما بعد أن كثرت الأموال بين أيديهم فأكلوا السكباج ، وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل ، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدرج ونحوه ، وكانوا يسمونه سيد المرق . والقالودج وهو نوع من الحلوى ، وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر ، والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها ، وتفننوا في معالجة اللحوم بالألبان والخضار والتوابل على أساليب شتى

٢ - اللباس

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطا مثل طعامهم وسائر طرق معاشهم ، ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الاسلام ، وهو عبارة عن القميص والحلّة والازار والشملة والعباءة والعمامة ، ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الاثنية (٢) وانما هي فارسية ، وكذلك النعال والخفاف ، ولكن بعض الخاصة كان يلبسها . وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم ، وثيابهم على الاجمال قصيرة الى أسفل الركب (٣)

وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي (صلعم) فقد ذكروا أن احب اللباس اليه البرود (٤) والبياض والخبرة ، وهي ضرب من البرود فيه حمرة ، وكان كمه قصيرا الى الرسغ ، يلبس أحيانا حلة حمراء وازارا ورداء ، والازار قصير الى أسفل الركبة ، ولبس الخف والنعل (٤) وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجر على الارض من الخيلاء ، ومن أقواله : « فضل الازار في النار » (٥) ولم يكن العرب يعرفون من الأنسجة غير القطن والصوف

على أن الذين كانوا يفسدون على الشام والعراق من اغنيائهم لتجارة أو زيادة كانوا يقلدون أهلها بملابسهم الفاخرة ، فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولاسيما في أوائل الاسلام . ومن المأثور عندهم أن أول من لبس الخبز الادكن من العرب عبد الله بن عامر ، وأول من لبس الدراريح السود (٦)

(١) الدمري ٥٥ ج ١

(٢) البيان والتبيين ٥٣ ج ٢

(٣) سراج الملوك

(٤) البرود جمع برودة ، وهي شملة من الصوف الغليظ يلتف بها الانسان ويلتحفها في الليل ، ولونها بني أو رمادي . والبياض كساء ابيض خفيف من الكتان أو القطن . والخبرة ، بفتح

الحاء وكسر الباء ، برودة حمراء

(٤) تهذيب الاسماء ٦٠

(٥) الكامل للمبرد ٢٦

(٦) الدراريح جمع درامة ، بضم الدال وتشديد الراء ، وهي قميص طويل أو جلباب من القطن أو النيل مفتوحة الصدر الى الوسط ، وفي فتحها ازوار . وكانت تلبس بيضاء أو على ألوان اشهرها البنفسجي : وقد صارت مع الزمن ملابس الوزراء حتى أصبحت وكأنها زي خاص بهم

المختار بن أبى عبيد ، وأول من لبس الطيلسان فى المدينة جبير بن مطعم (١) وقس عليه سائر ما اتخذوه من لباس الأعاجم بعد الاسلام . والمعادة أن يبدأ الأمراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس . وأول من أقدم على تقليد الاعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله . فزياد بن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج (٢) وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه ، وتفننوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوشى وأكثروا من لبسه ، فقلدهم الناس فى ذلك فراجت المنسوجات الموشاة فى أيامهم ، واتخذوا كثيرا من البسة الروم ، ولكنهم لرغبتهم فى المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق ، وكان الأحنف يقول : « لاتزال العرب عربيا ما لبست العمائم وتقلدت السيوف » (٣)

اللباس فى عصر الحضارة

فلما أفضت الخلافة الى العباسيين ، واستسلموا للفرس واخذوا نظامهم وآدابهم ، قلدوهم باللبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمى من أوائل دولتهم . فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها ، بدل العمائم ، أو يعتموا فوقها بعمامة صغيرة . وأن يعلقوا السيوف فى أوساطهم ، وأن يكون اللباس الأسود عاما فيهم ، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الامويين . فلا بد للداخل على الخليفة العباسى من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطى سائر الثياب . والبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها « فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم » (٤) وبعث الى عماله فى سائر الاقطار أن يأمرؤا رجالهم بمثل ذلك (٥)

فأقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس فى الملابس ، ولا سيما أهل الدولة ورجال الحكومة ، فلبسوا الأقبية والسراويلات والطيايسة والخفاف والجوارب وغيرها ، مع بقاء البسة العرب عند عامتهم . ثم اختصت كل طائفة أو طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان أسود (٦) وأول من غير لباس العلماء على هذه الصورة أبو يوسف قاضى الرشيد (٧) وأما لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيايسة الرقاق ، ويختلف ذلك باختلاف الدول والأمصر مما لا محل لاستيفائه

(١) المعارف لابن قتيبة ١٨٧

(٢) الاغانى ١٠٤ ج ١٤

(٣) الكامل للمبرد ١٠٠

(٤) الاغانى ١٢١ ج ٩ وابن الاثير ٢٨٩ ج ٥ والمقد الفريد ٧٤ ج ١

(٥) ابن تفرى بردى ٤٣٧ والمقربرى ٣٠٧ ج ١

(٦) الاغانى ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦ وطبقات الاطباء ٤ ج ٢

(٧) ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢

أما عامة الناس فتختلف أشكال البستهم باختلاف صناعاتهم وأحوالهم وطبقاتهم ، وباختلاف الأصقاع والأطوار مما لا يمكن حصره ، وإنما يقال بالأجمال أن لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال ، على نحو لباس المصريين والسوريين في أوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الآن (*)

ثياب المنادمة والتطيب والخضاب

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم البسة لمجالس الانس والشراب يسمونها «ثياب المنادمة» ، وهي أثواب مصبغة بالألوان الزاهية: الاحمر أو الاصفر أو الاخضر ، يصقلونها حتى تلمع وتشرق ، ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون ، ولهم البسة يتخففون بها في منازلهم وأخرى يلبسونها في الأسفار وغير ذلك

أما التطيب فقد كان من دلائل الفنى والنبل عندهم ، ومن أمثالهم : « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدري من هم : رجل رأته راكبا ، أو سمعته يعرب كلامه ، أو شممت منه طيبا » (***)

والخضاب كان مستحسنا عندهم ، وأصله هندي أخذه الفرس عن الهنود (١) ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام ، ويقال ان أول من خضب بالسواد من أهل مكة عبد المطلب (٢) وقالوا بل المغيرة بن شعبة . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب ، فصاروا يخضبون بالحناء للحمره وبالزعفران للصفرة فضلا عن الخضاب الاسود، وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت (٣) وأول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر (٤) وكان حسان ابن ثابت يخضب لحيته على أسلوب خاص ، فيلون شاريه وعنقته بالحناء دون سائر لحيته ، فيبدو لأول وهلة كأنه أسد والغ في الدم (٥) وقس على ذلك تفننهم في الخضاب للرجال والنساء ، ولا يزال ذلك شائعا في الشرق الى الآن ،

(*) في كل ما يتصل بملابس المسلمين انظر قاموس دوزى عن الملابس العربية وقد أشرنا اليه سابقا. وانظر أيضا فهارس النجوم الزاهرة لابي المحاسن بن تغرى بردى ، والسلوك لمعرفة دول الملوك لتقى الدين أحمد بن علي القريري ، وكذلك الخطط من تأليفه ، الجزء الذي نشره جاستون فييت في القاهرة ، والجزمين اللذين نشرهما الدكتور جمال الدين الشيبان من مفرج الكروب لجمال الدين بن واصل ، وانظر بصفة خاصة فهرس كتاب الموشى لمحمد بن اسحاق ابن يحيى الوشاء ، وجامع المفردات Glossarium الذي وضعه دى غويه لتاريخ الطبرى (***) انظر كتاب الموشى الذي أشرنا اليه في التعليق السابق ، فصول : ذكر زى الظرفاء في الطعام (ص ١٦٧ من طبعة القاهرة ١٩٥٣) وذكر زيهم في الشراب (ص ١٧١)

(١) المسعودى ١١٥ ج ١

(٢) لطائف المعارف ٨

(٣) الف باء ٣٤٤ ج ٢

(٤) المعارف لابن قتيبة ٩٩

(٥) الاغانى ٣ ج ٤

والاكثرون يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء ويندر الخضاب بالزعفران ،
ولا نعرف أحدا يبيض شعره بالكبريت

٣ - الماوى

مساكن العرب

كان العرب قبل الاسلام أهل خيام وأنعام ، يحملون منازلهم على ظهورهم ،
الا من أقام منهم في مكة أو المدينة أو الطائف أو غيرها من مدن الجاهلية ، ولما
نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة أسباب تغلبهم . فلما فتحوا الأمصار
تحاشوا سكنى المدن ، ونصبوا مضاربهم في ضواحيها أو بنوا بيوتامن القصب(*)
معسكرا لهم ، لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء ، كأنهم محتلون
الى أجل . وكانوا اذا فسد ما بنوه من القصب أو احترق ، استأذنوا الخليفة
عمر في بنائها بالحجارة ، مثل المدن التى فتحوها بمصر والشام والعراق ،
ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفا عليهم من الترف والرخاء ، ولهذا السبب
ايضا منعهم من الزرع . ثم أذن لهم بالبناء ، ولكنه اشترط الاقتصاد فيه ،
فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم : « افعلوا ، ولا يزيدن أحد
على ثلاثة أبيات، ولا تطاولوا في البنيان ، والزمو السنة تلزمكم الدولة » (١)

على أن ناموس العمران غلب على ما أرادته عمر من بقاء المسلمين يقيمون في
المعسكرات ، فما لبثوا أن تحضروا وتحولت تلك المعسكرات الى مدن عامرة ،
ونزلوا المدن القديمة التى فتحوها ، وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها ابنية
الدول السالفة

أساليب البناء في الاسلام

وكانت أساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الأمم ، ولكل منها نمط تولد
عندها بتوالى الأجيال ، اما رأسا أو اقتباسا . وأهمها النمط البيزنطى فى الشام
ومصر ، والفارسى فى فارس وخراسان ، والقوطى فى الأندلس ومايلها . فلما
تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المباني استخدموا فى بنائها مهندسين من الروم
والفرس ، فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الأساليب التى ذكرناها . ثم أخذ
العرب تلك الصناعة وأدخلوا فيها تغييرا يوافق الذوق الشرقى ويلائم الاسلام .
فتولد نمط اسلامى خاص يعرف بالنمط العربى أو الشرقى يختلف باختلاف
الأصقاع واختلاف العصور والدول ، وترجع تنوعاته الى ثلاثة أعصر كبرى :

(*) المراد بالقصب هنا أعواد النباتات مثل الدرة والقمح والقصب الذى ينمو على شواطئ
الانهار ، فكانوا يقيمون هيكل البيت بالخشب ثم يغطونه بالقصب من كل نواحيه . وكانت
بيوت القصب معرضة للحريق ، وقد احترقت الكوفة والبصرة أكثر من مرة عندما بنيتا
بالقصب لأول أمرهما

(١) ابن خلدون ٢٩٩ ج ١

أولاً - العصر العربي الرومى : هو أقدم أعصر البناء فى الاسلام ، وأساسه النمط البيزنطى ، وتنوع فى أثناء التمدن الاسلامى وتفرع الى خمسة أشكال : (١) النمط السورى ومثاله الجامع الأقصى فى القدس والجامع الاموى فى الشام ، (٢) النمط المصرى ومثاله جامع عمرو بالفسطاط ، (٣) النمط الافريقى ومنه جامع القيروان (٤) النمط الصقلى فى صقلية بايطاليا ومن أمثله قلاع سرقوسة (٥) وغيرها (٥) النمط الاندلسى ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية فى طليطلة مما بنى قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد

ثانياً - العصر العربي البحت : وهو يشمل الاشكال التى تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الأصول التى نقلت عنها وهى قسمان : (١) النمط المصرى ومنه الابنية التى اقيمت فى مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفى جملتها الجوامع التى بناها السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن ، (٢) النمط الاندلسى وهو مابنى فى الاندلس بعد القرن العاشر ومن أمثله ابنية اشبيلية وغرناطة ولانزال آثارها باقية الى الآن

ثالثاً - العصر المختلط : ويدخل فيه : (١) النمط الاسبانى العربى ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الاندلس وخروج المسلمين منها ، (٢) النمط الاسرائيلى العربى ومن أمثله الآثار الباقية لليهود فى طليطلة من انقضاء الكنائس ، (٣) النمط الفارسى العربى كالجوامع التى بناها الفرس بعد الاسلام ولاسيما فى أصبهان ، (٤) النمط الهندى العربى وهو خليط من النمطين الهندى والعربى كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين ، (٥) النمط المغولى العربى كالأبنية التى اقيمت فى الهند أثناء سلطة المغول وأشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها (١)

فمساكن الناس فى عهد التمدن الاسلامى كانت تختلف شكلا باختلاف البلاد والعصور ، وتتفاوت سعة وقدرا بتفاوت طبقات الناس : من الاكواخ الحقيرة الى القصور الفخيمة ، وسنأتى بأمثلة من القصور وسائر الأبنية الاسلامية عند الكلام على الحضارة (**)

(**) فى الاصل زيزا وكوبا ، وهو خطأ مطبعى ، لان المراد سرقوسة من مدن صقلية ، وهى تكتب بالفرنسية Syracuse

(1) La Civilisation des Arabes, 597

(**) تقدمت دراسات العمارة والفنون الاسلامية تقديما عظيما خلال نصف القرن المنقضى ، ولورد فيما يلى بيانا بأهم المراجع التى يستطيع الدارس أن يرجع اليها :
George Marçais: Manuel d'art musulman (l'architecture: Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile) Vol. du IXe au XIIe siècle. Paris, 1926. Vol. II, du XIIIe au XIXe siècle. Paris, 1927.

وفى كل من هذين المجلدين ثبت بالمراجع عن العمارة فى تونس والجزائر ومراكش والاندلس وصقلية

وانظر أيضا الفصلين الخاصين بالعمارة الاسلامية والفنون الاسلامية الصغيرة من كتاب

تراث الاسلام ، الترجمة العربية ظهرت في القاهرة سنة ١٩٣٨
وكذلك فصل الفن الاسلامي في

T. Cuyler Young. Near East: Culture and Society. New York, 1953.
الترجمة العربية ظهرت في القاهرة بقلم الدكتور عبد الرحمن أيوب ، مجموعة الالف كتاب
القاهرة ١٩٥٧

وفي الترجمة الاسبانية التي قام بها اميليو غرسيه غومس للجزء الثالث من كتاب « تاريخ
اسبانيا الاسلامية » لليفى بروفنسال ، قسم خاص جديد عن العمارة الاندلسية يشغل نصفه
تقريبا بقلم ليوبولدو توريس بالباس Leopoldo Torres Balbas وهذا القسم يقع في
المجلد الخامس من كتاب Historia de Espana الذي يشرف عليه R. Menendez Pidal
ومن أهم المراجع عن الفن الاسلامي بصفة عامة والفنون الزخرفية بصورة خاصة : م. س.
ديماند : الفنون الاسلامية ، ترجمة الاستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٣
وكذلك : زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٥١

وقد استعمل المؤلف في هذه الفقرة مصطلحات لا يستعملها دارسو الآثار الآن ، واليك
مصطلحاته وما يقابلها الآن : العصر العربي الرومي = العصر العربي البيزنطي ، نمط = طراز،
النمط الافريقي = الطراز المغربي ، النمط الاسباني العربي = الطراز الاندلسي المغربي
أما ما ذكره المؤلف باسم النمط الاسرائيلي المغربي فيدخل تحت طراز من طرز العمارة
الاندلسية يسمى الطراز المدجني
انظر عن طرز الفن الاندلسي :

حسين مؤنس : تطور العمارة الاسلامية في الاندلس . حوليات كلية الآداب بجامعة عين
شمس ، المجلد الاول سنة ١٩٥١ ص ١٨٥ - ٢٥٨

حضارة الدولة الإسلامية

حضارة الدولة الإسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع في أسباب الترف والرغد في أرقى درجات عمرانها . والدولة الإسلامية أدركت تلك الدرجات أولاً في العصر العباسي ببغداد من أواسط القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) الى أواسط الرابع (العاشر الميلادي) ، وفي العصر الأموي بالاندلس في القرن الرابع ، وفي العصر الفاطمي بمصر من أواسط الرابع الى أواسط السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

وأسباب الحضارة فيما نحن فيه تقسم الى قسمين كبيرين : الأول العمارة أى انشاء المدن وبناء المصانع والقصور ، والثاني الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش . فنتكلم أولاً عن المدن ، فالمباني ، ثم نبين ما بلغت اليه الامة من الثروة وأسباب الترف والرفاهية

عمارة المدن والقصور

ان المدن التي سكنها المسلمون وحواسها التمدن الاسلامي تعد بالآلاف ، وهي منتشرة في آسيا وافريقيا وأوروبا ، ومنها ما كان عامراً قبل الاسلام ، ومنها ما بناه المسلمون لأنفسهم . وقد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب فصلاً في المدن الإسلامية ، وما بلغت اليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الاسلامي واقتصرنا على أعظم تلك المدن : البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، وبغداد . وأجلنا الكلام فيما بقى الى هذا الجزء فنقول :

القطر المصري

مساحة الارض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم (حوالى سنة ١٩١٠) في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حد استغربه الناس وخافوا رد الفعل (١) لأنهم رأوا غلاء في الأسعار، مفاجئاً لم يعهدوا مثله ، وزادت مساحة الارض الزراعية ستة أضعافها في قرن واحد . فبعد أن كانت مساحتها في أيام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان(*) . وبعد أن كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهاً

(١) فصلنا ذلك بمقالات في « النهضة المالية المصرية » في السنتين ١٣ و ١٤ من الهلال (*) المعروف ان المساحة المنزرعة الآن تبلغ نحو ٦٠٠.٠٠٠ فدان

بيع بمائة جنيهه ، أو مائة وخمسين جنيها أو أكثر . فكيف لو علموا أن مساحة الأرض الزراعية في إبان التمدن الاسلامى زادت على ٢٥٠٠٠٠٠٠ فدان ؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب نقلا عن ثقات مؤرخى العرب ، فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة أو الاكذوبة على عادتهم في الاستخفاف بأقوال مؤرخى المسلمين . ولا نرى باعثا على هذا الاستخفاف ، والمسلمون أو العرب من أكثر الأمم تحقيقا في حوادث التاريخ ، لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالاسناد ونحوه (**)

على أننا لا نلومهم اذا استغربوا تلك الرواية ، لأن الناس يقيسون الأشياء بما علموه من أشباهها ، فشروة القطر المصرى اذا قيست بما ألفناه من أحوال عمرانه فى القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحته الزراعية الى ثلاثة أضعاف ما بلغت اليه اليوم . ولكن لو قيل لأهل هذا الجيل أن مساحة الارض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين أو ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق ، لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون

(**) ناقشنا في تعليقاتنا على الجزء الثانى من هذا الكتاب رأينا فى تقدير العرب لمساحة المزروع من أرض مصر أيام الفتح الاسلامى ، ونضيف الى ما ذكرناه هناك أن الاحوال المناخية فى مصر اذذاك كانت تختلف عما هى عليه الآن ، فقبل ثلاثة عشر فرنا كان المطر فى مصر وكل المناطق الواقعة على خط عرضها أكثر جدا مما هى عليه اليوم ، فكان معظم شبه الجزيرة العربية وشبه جزيرة سينا وصحارى مصر الحالية مناطق سهوب وأعشاب تخضر فى الشتاء والربيع والخريف وترعاها الماشية ، وكانت عيون الماء أكثر مما هى عليه اليوم ، فكانت صحراء مصر الشرقية والغربية كثيرة الواحات تزرع منها مساحات واسعة ، ولهذا فقد كان معظم الصحارى القاحلة الآن أرضا صالحة للسكنى تمشى فيها جماعات كثيرة من البدو والرعاة ، وعند عيون الماء قامت منشآت أهمها الاديرة ، وقد كانت الصجراوان الشرقية والغربية غنيتين بها ، وقد جفت هذه النواحي وانعدمت الحياة فيها شيئا فشيئا حتى صارت الى ما هى عليه اليوم . ولهذا فقد قدر الناس أن أرض مصر كلها مزروعة وحسبوا على هذا الاساس فقللوا أن الارض المزروعة ٢٥ مليون فدان ، بل للمقريزى رواية تقول أنها ٣٠ مليون فدان ، أما الارض المزروعة زراعة منتظمة ويجبى عليها الخراج الكامل فكانت أقل من ذلك بكثير . ولا نستطيع الاعتماد على تقديرات الخراج فى تقدير مساحة الارض المزروعة ، لان هذه التقديرات تشمل ضريبة الارض وضريبة الرعوس ، وكان العرب أول الامر يجبون مال مصر جملة واحدة دون تقدير خراج أو جزية ، ثم جاء الفقهاء بعد ذلك وحاولوا التوفيق بين المبالغ المجموعة وما تقضى به الشريعة ، فجعلوا شيئا من المال المجموع جزية وبعضه خراجا . وعندما انتشر الاسلام فى مصر وتلاشت الجزية أصبح المال المجموع كله يمثل الخراج والعشور التى كانت تجبى على بعض صنوف الارض ثم الضرائب الاضافية الاخرى ، وقد ثبتت جباية مصر ابتداء من أيام معاوية بن أبى سفيان عند ٤ مليون دينار ، ثم هبطت فى العصر العباسى الى ٣٢٠٠٠٠٠ دينار تقريبا ، فاذا قلنا ان الضرائب الاضافية والزكاة وجزية من بقى على دينه تقدر فى مجموعها بنصف مليون دينار ، كان الباقي ٢٧٠٠٠٠٠ دينار ، ومن المعروف أن ضريبة الفدان كانت دينارا ، فمعنى ذلك أن مساحة المزروع فى العصر العباسى كانت ٢٧٠٠٠٠٠٠ فدان ، فاذا فرضنا أن مقدار الجباية هبط أيام العباسيين بسبب الاضطراب والفوضى عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين والأمويين أمكننا أن نقول أن مساحة أرض مصر المزروعة زمن الفتح الاسلامى كانت حوالى ٣٥٠٠٠٠٠ فدان ، وربما كان هذا هو الذى أراد المقريزى قوله ، ثم وقع الغلط من النقل والتصحيح

وقد ناقشنا ذلك مناقشة وافية فى الفصل الذى كتبناه عن تاريخ مصر من الفتح الاسلامى الى نهاية العصر الاخشيدى فى كتاب تاريخ مصر الذى نشره حاليا وزارة الارشاد القومى والثقافة

فدان الى ثمانية ملايين . أما لو قيل ذلك لاهل أواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلا ، لأن مساحة أرض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ٧٠٠٠٠٠٠ فدان ، وهاك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠ (١) باعتبار الفدان :

أرض مزروعة	غير مزروعة	الجملة	
٢٢٤٩٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٣٨٠٠٠٠٠	مصر السفلى
٨٥٦٨٢٦	٧٦٣١٧٤	١٦٢٠٠٠٠	» الوسطى
٧٥٠٤٠٠	٨٤٣٦٠٠	١٥٩٤٠٠٠	» العليا
٣٨٥٦٢٢٦	٣١٥٧٧٧٤	٧٠١٤٠٠٠	

فتكون مساحة الأرض التي يمكن زرعها بمصر ٧٠١٤٠٠٠ فدان . فمن كان هذا اعتقاده في أطيان مصر لا يصدق اذا قيل له أن مساحة هذه الأطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان ، أو ١٢ مليوناً بعد بضع عشرة سنة

عدد السكان

ويقال نحو ذلك في عدد السكان ، فلو قيل في أواسط القرن الماضي ان القطر المصرى سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين أو ١٢ مليوناً لعدوا قولنا من الخرافات ، أو كما قال الدكتور كلوت بك : « من عادات الشرقيين في المبالغة » ، لأن عددهم في أيامه لم يكن يزيد على ٣٠٠٠٠٠٠ نفس ، فكيف يصدق زيادته الى أربعة أضعافه ؟ لانقول ذلك تحكما أو افتراضا ، ولكننا ننقل للقارىء قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هذا الشأن - فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصرى سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين نفس ، فصدر بحثه بمقدمة عن احصائهم في الزمن القديم قال فيها مامعناه : « يؤخذ من احصاء مؤرخى اليونان أن سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية ، وأما مؤرخو العرب فزعموا أن عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليوناً ، وهو قول يدل على عادة الشرقيين في المبالغة في كتاباتهم . . . لأننا لو قسنا مصر بما نعلمه في سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة مايتوطنونه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفى كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ، ومهما قلنا في خصب وادى النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة ، ولو سلمنا بإمكان استثمار البقاع الرملية - فمع كل هذه الوسائل لايرجى زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذى ذكره العرب » (أى نحو ٦٣٣٣٠٠٠ نفس) - هذا هو رأيه ، وأنت ترى أن سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين ،

ولن تمضى بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليوناً ، أو ضعف ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول إليه

وقياساً على ما تقدم لأنرى مانعاً من بلوغ سكان القطر المصرى الى ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد فى ابان التمدن الاسلامى - وانما انكر أبناء هذا الجيل ذلك استخفافاً برواية العرب ، مع أنها مبنية على احصاءات رسمية واقعية فى أزمنة معينة لأجل تعديل الجزية أو الخراج ، وليست من قبيل الحدىس أو الرجم بالغيب . الاحصاء الأول وقع فى زمن الفتح على أيام عمر . ذكر المقرئى أنهم أحصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية فبلغ عددهم ٨٠٠٠٠٠٠ نفس ، فاذا اعتبرناهم ثلث الأمة كان مجموعها ٢٤٠٠٠٠٠٠ نفس . والاحصاء الثانى فى ولاية الوليد بن رفاعة سنة ١١٠هـ ، ذكروا أنه خرج ليحصى أهلها وينظر فى تعديل الخراج ، فأقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد حتى بلغ أسوان ، ومعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير ، وثلاثة أشهر فى الوجه البحرى ، فأحصوا من القرى عشرة آلاف قرية ، فى أصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، فتكون جملة ذلك على الأقل ٥٠٠٠٠٠٠ رجل ، وعلى متوسط ما يلحق ذلك من النساء والأطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ نفس

مساحة الارض الزراعية

ويقال نحو ذلك فى الأرض الزراعية ، فانهم استخرجوا مساحتها بالاحصاءات الرسمية لأجل تعديل الخراج . منها احصاء لعبيد الله بن الحبحاب سنة ١٠٧هـ فبلغت مساحة الأرض الزراعية مما يركبه النيل ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان ، أى نحو أربعة أضعاف ما بلغت إليه مساحتها اليوم ، مع اجتهاد حكومتنا فى تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى أذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد أنها مكذوبة ، أما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة فالمقرئى وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضاً ولا تركوا فى قولهم التباساً . وذكروا فى أمكنة أخرى أن الأرض الزراعية نقصت فى أيام ابن المدبر ، أى بعد قرن ونصف قرن ، الى ٢٤٠٠٠٠٠٠ فدان ، ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع ، واشتروا عدداً معلوماً منهم فاذا نقص نقصت غلة الأرض (١)

ولا يتجلى لنا وجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التى كانت عامرة فى ذلك

العصر . فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الآن ، أى يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والغربية ، لحكمتنا باستحالة زعمهم . لأن مساحة مصر الجغرافية اليوم ، وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والعريش ، نحو ٤٠٠.٠٠٠ ميل مربع ، معظمها صحراء قاحلة . أما الأرض الزراعية فمساحتها ١٧٨٢٦ ميل مربعاً ، يخرج منها ٨٥٠ ر { ميلاً مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها ، فالباقي ١٢٩٧٦ ميل مربعاً ، أى نحو ٨٠٠.٠٠٠ فدان ، وهى الأرض المزروعة الآن فلا سبيل إلى المزيد

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن أحوال مصر فى إبان تمدنهم ، ومما جاء من أخبارها القديمة ، أن حدودها الزراعية كانت أوسع من ذلك كثيراً - ذكروا أنها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة (١) وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش ، ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان مأوها غزيراً . ولا تزال آثار العمارة باقية فى تلك البقاع ، فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الارض بالمسبار (*)

وكان الصعيد عامراً ويمتد من جهته الشرقية الى البحر الأحمر وأراضى البجة (١) وكانت أطيان الفيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اعتبرنا مذكروه من هذا القبيل ، وأن النيل كان أكثر قروعا وأغزر ماء وأوسع فيضاناً مما هو عليه اليوم ، هان علينا قبول أقوالهم وان كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحارى المحيطة بوادى النيل شرقاً وغرباً ، بنزع ما يغطيها من الرمال وأروائها بالترع المتصلة اليها من النيل أو الآبار الارتوازية ، نرى أقوالهم معقولة . ولا نظن ذلك بعيداً ، ورجال الأعمال يدرسون أمثال هذه المشروعات

مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصرى فى الاسلام الفسطاط والقاهرة ، وقد ذكرنا عمارة الفسطاط فى الجزء الثانى . وأما القاهرة فقد بناها القائد جوهر فى أواسط القرن الرابع للهجرة معقلاً لمولاه المعز لدين الله الفاطمى وجنده . فظلت فى أثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وانما كانت العمارة للفسطاط والقطائع . وذكر المقرئى أنه كان فى هاتين المدينتين - غير القاهرة - ١٠٠.٠٠٠ بيت ، فى بعضها

(١) المقرئى ١٨٢ ج ١
 (*) هذا يؤيد ما قلناه فى تعليقنا السابق
 (٢) المقرئى ١٨٩ ج ١

مائة انسان ومئتان، اذ يكون البيت مؤلفا من خمس طبقات أو ست أو سبع (١) ومع ذلك فهى فى تقديره لاتزيد على ثلث بغداد ، فكم تكون عمارة هذه ؟ ولما أفضت الدولة الى السلطان صلاح الدين أذن للناس بسكنى القاهرة ، فاتصلت بمدينة الفسطاط . وكانت الفسطاط تسمى « مصر » ، فلما صارتا مدينة واحدة أطلقوا عليها اسم « مصر والقاهرة » ، ثم قالوا « مصر القاهرة » ، ولما خربت الفسطاط ظل الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور (**)

الأندلس

لما فتح المسلمون الأندلس كانت عامرة أهلة ، فأقاموا فى مدنها وزادوها عمراناً ، وأشهر تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه فى ضواحيها من القصور الكبيرة أشباه المدن الضخمة مما سنذكره

قرطبة

هى من أعمال الأندلس ، واقعة على الوادى الكبير تستقى ماءها منه ، وكانت عامرة قبل الاسلام ويظن أنها من بناء القرطجيين ودخلت فى حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد ، وتوالت عليها أحوال شتى حتى فتح المسلمون الأندلس واستولوا على طليطلة ، ثم جعلوا مقر الامارة فى قرطبة ، وزاد الأمويون عمارتها بما أنشأوه من القصور والمساجد والجسور وغيرها ، فاتسعت مساحتها ، وكان محيط المدينة الاصلية ٣٣٠٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب ، فنشأ حولها ٢١ ربضاً فى كل ربض من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله . فصار

(١) المقرئى ٣٤١ ج ١

(**) تاريخ مدينة القاهرة طويل ولا يزال متصلاً ، فقد اختطف عام ٩٦٩/٣٥٩ أى أنها عبرت الى الآن ٩٨٩ سنة حافلة بالتطورات والاحداث ، وقد ألف الدكتور عبد الرحمن زكى فى تاريخها سلسلة من الكتب بعنوان « القاهرة » استوفى فيها تاريخها وتطورها ، ولهذا فسنكتفى بذكر أهم المراجع القديمة والحديثة :

المقرئى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآبار ، جزءان ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، وقد نشر جاستون فييت قسماً من الجزء الاول فى أربعة مجلدات ، القاهرة ١٩١١ - ١٩٢٤
ابراهيم بن محمد بن ايدمر بن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الامصار ، طبعة Vollers فى خمسة أجزاء ، بولاق ١٣٠٩
ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الخامس الخاص بمصر ، نشر الدكتور زكى محمد حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥٢

السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، القاهرة ١٩٤٧

المقرئى : اعماظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، القاهرة ١٩٤٨

أبو المحاسن جمال الدين بن تفرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ظهر منه ٩ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٤٣ ، ابتداء من الجزء الرابع
شرف الدين يحيى بن الجيمان : التحفة السنوية بأسماء البلاد المصرية ، نشره المستشرق موريتز ، القاهرة ١٨٩٨

على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءاً ، القاهرة ١٣٠٤ - ١٣٠٦

ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٠٦

ابن الريات : الكواكب السيارة ، القاهرة ١٣٢٥

طولها ٢٤ ميلا وعرضها ستة أميال أو ١٤٤ ميلا مربعا (ومساحة لندن ١١٧ ميلا) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادى المذكور

وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها في ابان عمرانها احصاءات مختلفة خلاصتها أن عدد الأبنية فيها كما يأتى :

	عدد
دور الرعايا	١١٣ر٠٠٠
» القصر الكبير	٤٣٠
» أهل الدولة	٦ر٣٠٠
المساجد	٣ر٨٧٣
الحمامات	٩٠٠
	١٢٤ر٥٠٣

وذكروا أن عدد الأبنية بلغ في أيام ابن أبى عامر ٢٠٠ر٠٠٠ دار للرعية ، و ٦٠ر٣٠٠ دار لأهل الدولة ، و ٨٠ر٤٥٥ حانوتا غير الحمامات والخانات (**)(١) ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة ، والأول أقرب الى الصواب . واذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفى عدد أبنية القاهرة اليوم

على أنك ترى في هذا التقسيم تمييزا بين الخاصة والعامة في المساكن ، وأن دور الخاصة نحو ٦ في المائة من دور العامة - على حين أن دور الأشراف في رومية لم يزد عددها في ابان عمرانها على ٢ر٠٠٠ دار (٢) فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد ، وأما سكانها فكانوا يناهزون المليونين ، وسيأتى الكلام على قصورها (**)

(*) وهذا التقدير يخالف الاول ، وقد روى المقرئ الخبيرين في الفصل الذى عقده لقرطبة من كتاب نفع الطيب

(١) نفع الطيب ٢٥٦ ج ١

(٢) Gibbon, 1829

(**) لم يكتب بعد وصف قرطبة وتاريخها في العربية ، وأهم المراجع العربية القديمة عنها وتاريخها أقصر من تاريخ القاهرة ، فقد اتخذها المسلمون عاصمة الاندلس عام ٧١٦/٩٦ واستولى عليها فرناندو الثالث ملك قشتالة في شوال سنة ٦٣٣ / يونيو ١٢٣٦ ، أى أنها ظلت عاصمة اسلامية ٥٢٠ عاما ، ولكن تاريخها القصير حائل بالتطورات والاحداث ، وقد روى تاريخها ووصفها حتى القرن العاشر ليفى بروفنسال في كتابه المعروف « اسبانيا الاسلامية في القرن العاشر » ، باريس ١٩٣١ ، في الفصل السادس ، ص ١٩٤ وما يليها ، ثم عاد فأكمل ذلك الوصف في الجزء الثالث من « تاريخ اسبانيا الاسلامية » ، في الفصل الخاص بالمدن . وأهم مرجع عربى قديم في وصفها : نفع الطيب للمقرئ ، طبعة مصطفى محمد ، القاهرة ١٩٤٩ ، الجزء الرابع ، ص ٤ وما يليها ، وهناك فصول عنها في صفة المغرب للرازى ، الترجمة الفرنسية التى نشرها ليفى بروفنسال في مجلة الاندلس سنة ١٩٥٣ - والروض المطار لابن

غرناطة

وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الأندلس ، لكثرة أثمارها وأغابها وفاكهتها وتمتاز عن سائر مدائن الأندلس بنهر يتوزع على دورها وأسواقها وحماماتها وأرجائها الداخلة والخارجة وبساتينها ، كما يتوزع نهر بردى في دمشق . وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية ، وأشهر ملوكها ابن الأحمر ، في أواسط القرن الثامن للهجرة ، وهو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة (١٠) . ونتقدم الى ذكر القصور والمباني

القصور والمباني

قال ابن خلدون : « ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة ، بالنسبة الى قدرتها وبالقيااس على من كان من الدول قبلها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من أسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفتن ، ونظرنا الى مابقى من ابنيتها في مصر والشام والعراق وفارس والهند والأندلس ، رأيناها أكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف . ولعل الذي بعثه على هذا القول أن كثيراً من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك في مصر ، وبعضها لم يتصل علمه به مما في بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان للخلفاء والأمراء ، على اختلاف الدول والممالك ، عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في هندامها واتقانها ، فضلا عن المتنزهات والحدائق مما ينفقون فيه الأموال الطائلة ، فيجلبون اليه الأفراس من أطراف المعمور ، ويتفننون في تزيين مجالسهم بالأشعار والتصاوير الموهبة بالذهب ، وبينها رسوم الحيوانات والأدميين والأزهار وغيرها مما ستراه

عبد النعم الحميرى ومعجم الادباء لياقوت ، والمسالك والممالك لابن خرداذبة ، وصورة الارض لابن حوقل ، والمغرب في حلى المغرب لابن سميعيد ، وغيرها من كتب الجغرافية . ومن أهم الأبحاث الحديثة عنها :

Levi Provencal. L'Espagne musulmane au Xème siècle (Paris, 1932) chap. XI, Cordoue

Ibidem. Histoire de l'Espagne musulmane, Vol. III. Paris, 1954. Index.

Manuel Gomez Moreno. Ars Hispanicae, Vol. III. Madrid, 1951.

(*) كانت غرناطة أول الامر قرية صغيرة الى جانب مدينة البيرة Elvira التي اتخذها المسلمون قاعدة للكورة التي تحمل نفس الاسم في جنوب الأندلس ، وقد بدأت أهميتها تظهر في عصر الطوائف عندما اتخذها بنو زيري قاعدة لامارتهم التي كانت مملكة من ممالك الطوائف (١٠١٢ - ١٠٩٠ م) فانتقلت الأهمية من البيرة اليها وأخذت تتسع ، وبنى لها سور عظيم ، وعندما اتخذها محمد بن نصر المعروف بابن الأحمر قاعدة لمملكته في سنة ١٢٣٢ بدأ نجم المدينة يصعد ، وانشئت فيها حصون الحمراء وقصورها ومسجدها ، وشيئا فشيئا أصبحت أعظم ما بقى في أيدي المسلمين من بلاد الأندلس وبلغ عدد سكانها الى مليون ونصف ، وظلت معقل الاسلام في الجزيرة حتى سقوطها في يد فرناندو وايزابيلا ملكي قشتالة وارجون في سنة ١٤٩٢ ، وبسقوطها انتهى أمر المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية

انظر مادة غرناطة أو أغرناطة عند ياقوت وابن عبد النعم الحميرى - كتاب الروض المطار في خير الاقطار ، طبعة ليفى بروفنسال والادريسي وجغرافية ابي الفدا ، وانظر فهرس المكتبة الجغرافية

١ - مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر الا « الجامع الأموي » الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق ، وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا ، فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على أن تقسم الكنيسة مناصفة : المسيحيون يصلون في نصفها الغربي ، والمسلمون في النصف الشرقي . فلما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك أخذ النصفين جميعا وجدد بناء الجامع ، فاستقدم نحو ١٢٠٠٠ صانع من بلاد الروم ، تأفقوا في بنائه فغطوا جدرانها كلها بفصوص من الفسيفساء صبغت بأنواع الاصبغة الغريبة فمثلت أشجارا ، وفرعت أغصانا منظومة بالفصوص ببدايع الصنعة الانيقة . فأنفق في ذلك نحو ١١٢٠٠٠٠٠ دينار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع ، وعرضه ٢٠٠ ذراع ، قائم على ٦٨ عمودا . وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع وقد زاره ابن جبير الرحالة الأندلسي في القرن السادس للهجرة ، ووصفه وصفا مطولا وذكر تاريخه الى أيامه مما يضييق عنه المقام (١) ولا يزال هذا الجامع قائما الى الآن ، ويعد من أفخر أبنية المسلمين

وبنى الحجاج بن يوسف قبة الاسلام في واسط ، وكانت من أفخم الأبنية وفيها يقول الشاعر :

بنى قبة الاسلام حتى كأنما أتى الناس من بعد الضلال رسول (٢)

٢ - مباني العباسيين بالعراق

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ليحول أذهان الناس عن الكعبة اليها ، وبنى الجامع والحصون والقصور في بغداد ، كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما ، وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراءهم وأمراؤهم ، فأقاموا قصورا فخيمة تعرف غالبا بأسماء بانيتها ، كقصور البرامكة في السامرية ، وقصر ابن الخصيب ، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، وقصر بني خلف بالبصرة ، وقصر عيسى ابن علي وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور ، وقصر وضاح بنه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر ابن مقلة ، غير ما أطلقوا عليه لفظ الدار كدار الشجرة الآتى ذكرها ، ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك . وأخذت

(١) رحلة ابن جبير ٢٦٣

(٢) الكامل للمبرد ٢٨٧

رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدينة وأغرقوا في الترف والرخاء . على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها وأولهم المعتصم بالله ، فقد كان كلغا بالبناء فبنى سامرا لأتراكه وأقطعهم فيها القطائع . والمتوكل على الله كان مغرما بالعمارة ، فبذل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث أساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله ، منها النمط الحيرى والكمين ذات الأروقة . وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهأرونى والجوسق والجعفرى ، بذل في بنائها جميعا أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم (١) أنفق منها على القصر الجعفرى أكثر من ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار (٢) أو نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء والأغنياء ، فضلا عن المتنزهات ، فبنى اسماعيل ابن على متنزها أنفق فيه ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم (٣)

قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محبا للعمارة أيضا ، فبنى قصرا في الجانب الشرقى من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم في أيامه فأتمه ابنه المكتفى . وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكى ثم سكنه الحسن بن سهل فسمى القصر الحسنى . فلما تولى المعتضد سنة ٢٨٩ هـ أضاف إليه ماجوره ، فوسعه وكبره وأدار عليه سورا واتخذ حوله منازل كثيرة ودورا ، واقتطع من البرية قطعة عملها ميدانا . وأخذ في بناء قصر التاج ، فاتفق خروجه الى آمد ، فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار ، فكرهه وابتنى على ميلين منه قصرا سماه « قصر الثريا » طوله ثلاثة فراسخ أنفق فيه ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار (٤) وصله بالقصر الحسنى وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سردابا تمشى فيه جواريه وحرمه وسراريه ، وما زال باقيا الى الغرق الأول الذى صار ببغداد (٥) . وفى قصر الثريا يقول ابن المعنز :

فلا زلت فينا باقيا واسع العمر
فلا زال معمورا وبورك من قصر
وأورقن بالأثمار والورق الخضر
تنقل من وكر لهن الى وكر
كمثل نساء قد تربعن في أزر

سلمت أمير المؤمنين على الدهر
حللت الثريا خير دار ومنزل
جنان وأشجار تلاقى غصونها
ترى الطير فى أغصانها هواتفا
وبنيان قصر قد علت شرفاته

(١) المسعودى ٢٧٩ ج ٢

(٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٧

(٣) ابن الأثير ٢٨ ج ٦

(٤) المسعودى ٣٢٨ ج ٢

(٥) عن قصور بغداد انظر الفصل الثامن عشر من كتاب

وأنهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر
عطايا اله منعم كان عالما * بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر
ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفى سنة ٢٨٩ هـ فآتم بناء قصر التاج ،
وكان وجهه مبنيًا على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين في خمسة
أذرع (١)

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع دارا فسيحة ذات بساطين مونقة
عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في
وسط بركة كبيرة أمام أيوانها وبين شجر بساطينها ، لها ثمانية عشر غصنا من
الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكلفة بأنواع الجواهر على شكل
الثمار ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها
أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير . وفي جانب الدار من يمين
البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا ، ومثلها عن يسار
البركة قد ألبسوا أنواع الحرير المديح ، مقلدين بالسيوف وفي أيديهم المطارد ،
يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد
صاحبه (٢)

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية ، أنفق في
بنائه ١٠٠٠٠٠ دينار وموه سقفه بالذهب - ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه
بدلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠٠ دينار (٣) ولم يبق لهذه القصور
أو الدور أثر الآن (*)

(١) معجم ياقوت ٨٠٦ و ٩٢٤ ج ١

(٢) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣

(*) عن بغداد أنظر : اليعقوبي ، كتاب البلدان لآحمد بن محمد بن أبي يعقوب بن واضح
المعروف باليعقوبي ، طبعة جوينبول T.G.J. Juynboll ، لندن ١٨٦٠ ص ١ - ٢٨

ابن سراييون : صفة الجزيرة وبغداد نشره وترجمه الى الانجليزية Guy Le Strange
في مجلة الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٨٩٥

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣٢ الجزء الاول . وقد ترجم معظم هذا الجزء
G. Salmon بعنوان Introduction topographique de l'histoire de Baghdad

الفصل الخاص ببغداد من المسالك والممالك للاصطخرى ، وصورة الارض لابن حوقل ،
وأحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي

رحلة بنيامين التيطلي : طبعة عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥

حمد الله مستوفى : نزهة القلوب ، طبعة بومباي ١٨٩٤/١٣١١ Voyage en Arabia

ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الساسي ، القاهرة ١٩٠٦ ، مادة بغداد

رحلة ابن بطوطة طبعة Defrémery et Sanguinetti ج ٢ ص ١٠٠ ومايليها

وأهم المؤلفات الحديثة :

Guy Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate. Oxford 1900

Tavernier, Les six voyages. Utrecht C. Niebuhr, Reisebeschreibung

Voyage en Arabie. ترجمه الى الفرنسية بعنوان

٣ - مباني الامويين بالاندلس

اما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصورا سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقيا الى اليوم ، وأكثرها في قرطبة وغرناطة - فمنها في قرطبة :

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان ، شرع في بنائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة ، وأتمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله . وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ دارا ، بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص ، كالكمال والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرشيقي وقصر السرور والبديع . وقد غالوا في زخرفها واتقانها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصحاريح والاحواض ، جلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال ، حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها ، وفي ساحاتها ونواحيها بواسطة تلك القنوات التي تؤديها الى المصانع (أى المنشآت) ، هذا الى صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه ، الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصحاريح القريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الصور الجميلة على أشكال بديعة (١)

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ، ذكروا أنه لم يكن في بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء ، وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الأموي في دمشق ، ثم أخذوا في توسيعه والزيادة فيه بأنقاض الكنائس على توالي الأجيال . وأعجب ما فيه صومعته أو المثدنة ، قالوا لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها ، بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعا ، والى أعلى الرمانة الأخيرة ٧٣ ذراعا ، وعرضها في كل تربيعة ١٨ ذراعا

وتدرج الجامع في الاتساع بتوالي التجديد فيه ، حتى بلغت مساحته في أيام

ونشر في امستردام ١٧٧٦ - ١٧٨٦ - وترجم الى العربية ونشر في مجلة سومر سنة ١٩٥٤
J. F. Jones, Memoire on the Province of Baghdad in Selections from the Records of the Bombay Government, Number 43 new series pp. 304 sqq. M. Streck, Die Alte Landschaft Babylonien.
Sarre und Herzfeld, Archæologische Reise im Euphrat und Tigris gebiet
C. Huart, Histoire de Baghdad dans les temps modernes.

(١) نفع الطيب ٢١٩ ج ١

الخليفة الناصر ٢٢٥ ذراعا في ٢٠٥ أذرع ، وزاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة أذرع فصار طوله ٣٣٠ ذراعا ، وزاد ابن أبي عامر في عرضه ثمانين ذراعا فصار ٢٨٥ ، وأرضه مرصفة باحدى عشرة بلاطة ، الوسطى عرضها ١٦ ذراعا ، وعرض كل واحدة من الست الباقية ١١ ذراعا ، وزاد ابن أبي عامر ثمانى بلاطات عرض كل واحدة عشرة أذرع (**) . وكان سقفه قائما على ١٢٩٣ سارية من الرخام ، وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا ، منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة . وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل الف مصباح وكان للجامع تسعة أبواب مصفحة بالنحاس الأصفر ، الا باب المقصورة فانه من الذهب ، وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء . وفي رأس الصومعة ثلاثة تفافيج ، دور كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف ، اثنتان من الذهب الابريز وواحدة من الفضة . وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ، ورومانه ذهب صغيرة على رأس الزج . وكان في بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان ، وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت ، وفوقه أغشية الديباج . وهو موضوع على كرسى من العود الرطب بمسامير الذهب . وقد أفاض صاحب نفع الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك (١) وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الافرنج الى كنيسة ، ولا يزال على بنائه الاسلامى وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية (***)

قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » ، بدأ بانشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على أربعة أميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة . وهى عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠ ، وعدد أعمدته أو سواريه ٣٠٠ سارية ، بعضها حمل الى قرطبة من روما وافريقية وتونس ، وبعضها أهدها صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردى والمجزع . وكان في الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق ، على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها ، وأحواض

(**) الاصح هنا ان يقال : وكان عرض المسجد احدى عشرة بلاطة ، الوسطى منها امرض من الباقيات ، اذ ان عرضها كان ١٦ ذراعا اما الباقيات فكان عرضها ١٤ ذراعا ، اما في الطول فكان عدد البلاطات اثنتى عشرة . والمراد بالبلاطة هنا الجزء من البناء الذى يقع بين عمودين ويدور عليه من أعلى قوس واحد

(١) نفع الطيب ٢٦٠ ج ١

(**) المراجع عن مسجد قرطبة الجامع كثيرة ما بين قديمة وحديثة ، وقد اجملنا وصفه وأتينا بالتصوص الخاصة بذلك والمراجع التى اعتمدنا عليها في مقالنا عن تطور العمارة الاسلامية في الاندلس ، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس، المجلد الاول سنة ١٩٥١ ص ١٩٢-١٩٤

الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان ، جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة ، بصورة أسد بجانبه غزال الى جانبه تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجواهر يجرى الماء من أفواهاها (١)

ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور الى ابنه الحكم بعده . وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة ، وكانت ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء . وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه . ٤ سنة ، فلو فرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر أن الانفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة الا في بضع سنين ، وأما في سائر مسدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيرا (*)

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيامه ٣٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، فاذا حسبنا ما أنفقه ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفقه هو بالاضافة الى المقدار السنوي المذكور - كان مجموع ما دخل في بناء هذه المدينة نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار على الاقل . ولا غرابة في ذلك ، لآنا اذا أعدنا النظر في تفاصيلها رأينا فيها ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيها شيئا كثيرا من الذهب حتى جعلوا بعض قرميدها منه . وقد كان يتصرف في بنائها من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و ١٥٠٠ دابة . وأغرب من كل ذلك أن الناصر انما عمد الى بناء الزهراء مرضاة لمحظية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه أن يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢)

(١) نفع الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢ (*) أنظر عن مدينة الزهراء التي ابتناها عبد الرحمن الناصر وأنها ابنه الحكم المستنصر ومدينة الزاهرة التي بناها المنصور محمد بن أبي عامر Ricardo Velasquez Bosco, Medina Azzahra y Alamiyya (Madrid, 1912) والمراد بالعامرية هنا مدينة الزاهرة التي بناها المنصور محمد بن أبي عامر ، وهي منسوبة اليه ، وتسمى أيضا مدينة المنصور . وقد أكمل ابحاث بلاسكت بوسكو الأستاذ ليوبولدو توريس بالباس في القسم الذي كتبه عن العمارة الاندلسية الى نهاية الخلافة في المجلد الخامس من تاريخ اسبانيا الذي يشرف على تحريره رامون منندز بيدال . وهذا الجزء نصفه الاول ترجمة اسبانية للمجلد الثالث من تاريخ اسبانيا الاسلامية لليفي بروفنسال ، والثاني دراسة عامة عن الفن الاندلسي الى نهاية عصر الخلافة . وانظر أيضا :

Manuel Gomez Moreno, El arte arabe espanol hasta los Almohades Vol. 3 Ars Hispaniae, Madrid, 1951.

(٢) نفع الطيب ٢٤٨ ج ١

الزاهرة

واقتمدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبى عامر ، فابتنى سنة ٣٦٨ هـ قصرًا (***) لاقامته سباه «الزاهرة» ليكون معقلا له يحميه من أعدائه ، فأقامه فى طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، وحشد له الصناع والفعلة وبالف فى رفع أسواره وجعل فيه أبنية كثيرة من جملتها أهراء ودواوين ، وأقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق ، فقامت الأسواق وتنافس الناس فى النزول فى أكنافها تقريبا من صاحب الدولة ، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السرج

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا فى هذا المقام الإشارة الى القنطرة الفخيمة التى أقامها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الاسلام ثم سقطت فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقى ، وطولها ٨٠٠ ذراع ، وعرضها عشرون ذراعا ، وارتفاعها ٦٠ ذراعا ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وأبراجها ١٩ برجاً (١) (***)

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير فى غرناطة لا يزال شكله محفوظا الى الآن يقصده السياح من كل مكان ، بناه ابن الأحمر فى أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم فى أرض مساحتها ٣٥ فدانا على مرتفع فسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها ، وفى هذا القصر كانت بركة السباع ، وفى وسطها تماثيل سود تقذف المياه من أفواهها على شكل جميل (***)

وبنى المنصور بن الأعلى قصرًا فخيمًا فى بجاية ، أنشأ فيه بركة على حافاتها أسود يجرى الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها فى الماء ، وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة وصنع عجيب ، على مثال الشجرة التى ذكرنا أنها نصبت فى قصر المقتدر العباسى عند كلامنا عن أبنية العباسيين . وقد نظم أحمد بن حمدى الشاعر الأندلسى قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود قال منها :

(*) يصف المؤلف الزهراء والزاهرة على انهما قصران ، والحقيقة انهما كانتا ضاحيتين لقرطبة فى كل منهما القصور والمساجد ودور للإدارات الحكومية

(١) نفع الطيب ٢٢٦ ج ١

(**) وأعيد بناء القنطرة مرة أخرى أيام هشام بن عبد الرحمن الداخل وأصلحها الحكم المستنصر والمنصور بن أبى عامر

(***) بدىء فى بناء قصور الحمراء فى أيام أبى الحجاج يوسف بن اسماعيل بن نصر ، سابع سلاطين بنى الأحمر (٧٢٣ - ٧٥٥ / ١٣٣٢ - ١٣٥٤) واجتهد فى استكمالها ابنه أبو عبد الله وحفيده محمد الخامس الملقب بالفنى بالله (٧٥٥ - ٧٩٣ / ١٣٥١ - ١٣٩٠) ومن جاء بعدهم أنظر منها مقالنا الألف الذكر عن تطور العمارة الأندلسية ، ص ٢٢١ وما يليها

وضراغم سكنت عرين رياسة
فكانما غشى النضار جسومها
أسد كأن سكونها متحرك
وتذكرت فتكاتها فكانما
وتخالها والشمس تجلو لونها
فكانما سلت سيوف جداول
وكانما نسج النسيم لمائه
وقس على ذلك قصر المأمون بن ذى النون الأندلسي ، فانه أنفق في بنائه
بيوت الاموال ، وكان من عجائبه أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبنى في
وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة
بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطا
بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر والمأمون
قاعد فيها (٢)

٤ - مباني مصر

مباني آل طولون

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون ،
لا تزال آثاره الى الآن بالقاهرة . والقصر الذي بناه في القطائع وجعل له
ميادانا كبيرا ، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستانا
زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وتقل اليه الشجر اللطيف الذي
ينال ثمره القائم (أى الرجل الواقف) ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف
خيار النخل . وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد،
وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل
بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان
يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتتصدر الى فساق معمولة ، ويفيض
منها الماء الى مجار تسقى سائر البستان . وغرس فيه من الرياحان المزروع
على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهد بها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد
ورقة على ورقة . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والازرق والاصفر الجنوى
العجيب . وأهدى اليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب ، وطعموا له
شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبنى
فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص ،

(١) نفع الطيب ٢٢٣ ج ١

(٢) سراج الملوك ٥٠

وزوقه بأصناف الاصبغ وبلط أرضه وجعل في تضاعيفه أنهارا لطافا جداولها يجري الماء مدبرا من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقى منها الأشجار وغيرها . وسرح في هذا البرج من أصناف القمارى والدباسى والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الانهار الجارية في البرج ، وجعل فيه أوكارا في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الخيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيدانا ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضا بالصياح . وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئا كثيرا (*)

وعمل في داره مجلسا برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المحلى باللازورد المعمول في احسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياها والمغنيات اللاتي تغنيه بأحسن تصوير وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الاكالييل من الذهب الخالص الابريز الرزين . والكوادن المرصعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الاجراس الشقال الوزن المحكمة الصنعة ، وهى مسمرة في الخيطان ولونت اجسامها أشباه الثياب من الاصبغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا

وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملاءها زئبقا . وذلك انه شكا طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتدليك فأنف من ذلك وقال : « لا أقدر على وضع يد احد على » فقال له : « تأمر بعمل بركة من زئبق » فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعا طولا في خمسين ذراعا عرضا وملاءها من الزئبق فأنفق في ذلك أموالا عظيمة . وجعل في أركان البركة سككا من الفضة الخالصة ، وجعل في السكك زنابير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل فرشاً من آدم (أى جلد) يحشى بالرياح حتى ينتفخ فيحكّم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنابير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة ، وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه . وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يرى لها في الليالى المقمرة منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزئبق (١)

مباني الفاطميين

ولما أفضى الأمر الى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر ، وهو عامر الى

(*) انظر صفة ذلك بالتفصيل في النجوم الزاهرة لابن المحاسن ، المجلد الثالث الفصل الخاص بخمارويه بن احمد بن طولون
(١) المقرئى ٣١٦ ج ١

اليوم ، وقصورا أشهرها القصران الشرقي والغربي ، وأنفقوا على الأخير منهما ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار (١) فقس على ذلك ما أنفقوه في سائر القصور والدور ، كدار الفطرة ودار الديباج وغيرهما . ولما استبحر عمرانهم تفننوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل ، كمنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الغزالة بجانبها ، ومنظرة السكرية ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة المقس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة (**) دار الملك ، غير المتزهات العظيمة والقصور الفخيمة في الجزيرة والروضة ، كالقصر الذي بناه الأمر بأحكام الله لمحبوته البدوية وسماه الهودج

وكانوا يتأنقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقا عظيما يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء ، كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر أبيات نظمها في ذكر المنظرة ، وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب ، فاذا دخل الخليفة وقرا الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارا ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرته (٢)

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ، ولا تزال قائمة إلى اليوم ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية إنما هو من أعمال السلاطين المماليك ولاسيما المساجد ، كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباي وقلاوون وغيرها . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم ، وأن نسبت إلى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم . وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الجيزة كلها ، وصور فيه أمراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه ، وقصر يلبغا ، بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ لسكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة ، وغيرها

(١) المقرئى ٤٥٧ ج ١
 (***) المنظرة هي الغرفة الفسيحة يعمل الحائط المطل منها على النيل أو الحديقة من الزجاج وتفتح فيه أبواب تؤدي إلى شرفة واسعة ، أى أنها كانت أقرب شيء إلى ما نسميه اليسوم terrace أو esplanade ومن لفظ منظرة جاء اللفظ العامى « منندرة » بمعنى حجرة
 (٢) المقرئى ٤٨٦ ج ١

الثروة والرخاء ونتائجهما

واشتغال الخلفاء والأمراء بانشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات انما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الاموال ، فتنقل الى رجال الدولة وغيرهم على ما بيناه في نظام الاجتماع ، ولذلك كان الخليفة اكثر الناس مالا لانه قابض على بيت المال ، يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالاتباع والتجار وغيرهم ، واليك امثلة من ذلك

ثروة الخلفاء واهليهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا اكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها الى الوزراء تحولت الثروة اليهم واصبح الخلفاء احيانا مثل سائر الفقراء (١) والاصل في ثروة بيت المال ان تكون للدولة تنفق في مصالحها ، وللخليفة بيت مال خاص به . ولكن الخلفاء تصرفوا في اموال الدولة اولا لاعتبارهم انفاقها مساعدا على تأييدها ، ثم انفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية ، وتدرجوا الى بدلها في ملذاتهم وسائر اسباب تنعمهم . وكان يبقى مع ذلك في بيوت الاموال شىء كثير . وقد بينا في الجزء الثانى من هذا الكتاب مقدار مابقى منها في خزائن الخلفاء الاولين من بنى العباس : المنصور والمهدى والمعتصم والمستعين والمكتفى وغيرهم ، وما صار اليهم من الضياع الكثيرة ، وذكرنا مابلغت اليه ثروة امهات الخلفاء ولاسيما الخيزران أم الرشيد وقبيحة أم المعتز وغيرهما ، فلا حاجة الى التكرار . وانما نأتى ببعض التفصيل على سبيل المثال - ذكروا ان المكتفى خلف ١٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار هذا تفصيلها (٢)

دينار

من العين والورق (اى الفضة) والأواني المعمولة	٢٠٠٠٠٠٠٠٠
» الفرش	٢٠٠٠٠٠٠٠٠
» الكراع والسلاح والفلمان	٢٠٠٠٠٠٠٠٠
» الضياع والعقار والاملاك	٢٠٠٠٠٠٠٠٠
» الجوهر والطيب وما يجرى مجراهما	٢٠٠٠٠٠٠٠٠

(١) الجزء الثانى من هذا الكتاب

(٢) لطائف المعارف ٧٢

ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني أيضا سبب ثروة الوزراء ومقادير الأموال التي حصلها الحسن بن الفرات والمدرائي وابن كلس والأفضل وابن شهيد الاندلسي واليك أمثله أخرى :

أول من أثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد ، فكثرت ضياعهم (الابعديات والجفالك) (**) حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة . ولما نكبوا وقبضت أموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣٠٠٦٧٦٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش (١) ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر ، وقد أثرى منهم جماعة كبيرة كآل المدرائي(**) في أواسط القرن الثالث للهجرة ، فملك أحدهم محمد بن على المدرائي ما قيمته ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والأمتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب . وكانت غلته ٤٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة (٢) وهو مع ذلك لا يعد شيئا بالنظر الى البرامكة . ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضا

(*) الابعدية هي الضيعة او العزبة ، وهو لفظ عامى مصرى ، والجفلك هو الضيعة باللغة التركية

(١) المقند الفريد ٢٢ ج ٣

(**) في الاصل المارداني والصحيح المدرائي ، وقد جاء الخطأ من نسخة « الخطط » التي رجع اليها المؤلف . والمدرائيون أسرة فارسية الاصل ، أصلها من مادرايا ، وفد أول رجل منهم الى مصر أيام أحمد بن طولون على الاغلب ، ودخل في خدمة الدولة وارتقى في مناصبها ثم استندى أقاربه ، فتكاثروا في مصر

وقد عظم أمر المدرائيين في مصر خلال العصرين الطولوني والاششيدى وما بينهما ، وبسطوا أيديهم على الشؤون المالية للبلاد ، فكانوا أشبه بوزراء المالية ، وربما لقب بعضهم بالوزير . وكانوا يضمون جبايات مصر للحكام بمبالغ لا يستطيع غيرها التقدم بها ، وكانت لهم من المعرفة بشئون البلاد الخراجية والمالية ما يمكن لهم من جمع المبالغ التي يرتبطون بها ، وكان هذا سر قوتهم ، إذ لم يكن أحد من الحكام يستغنى عنهم ، وظلوا مسيطرين على ماليات مصر سبعين سنة انتهت بدخول الفاطميين مصر . وأهم رجال هذه الأسرة :

١ - أحمد بن ابراهيم أو محمد بن أحمد بن ابراهيم المدرائي تولى خراج مصر سنة ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ شركة مع على بن الحسين بن شعيب المدايني ، وقد ولاه الخراج أحمد ابن طولون

٢ - على بن أحمد المدرائي ، وهو أخو الاول أو ابنه وكان يعينه في عمله ، وقد أصبح كبير البيت وعميد الأسرة أيام خمارويه بن أحمد بن طولون

٣ - أبو بكر بن على بن أحمد بن المدرائي السابق ذكره ، وهو أكبر رجال البيت قاطبة ، وظل المسيطر على شئون مصر المالية حتى وفاته في سن الخامسة والثمانين باستثناء فترة ١٤ عاما

٤ - أبو على الحسين بن أحمد المدرائي عم ابي بكر السابق ذكره ويلقب بأبى زنبور ، وهو يلى أبا بكر في الاهمية والكفاية

أنظر فصل « المدرائيين » من كتاب « مصر في عهد الاخشيديين » للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٧ - ٥٢

H., Gottschalk, Die Madarijrun (Berlin und Leipzig 1931).

Wuestenfeld, Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen, Göttingen 1875

Zaky M. Hassam, Les Tulunides, Paris 1933

أما العمال والأمراء فقد كانوا يحشدون الأموال الكثيرة ، ولاسيما المفوضين منهم ، ويسهل ذلك عليهم لاطلاق أيديهم في مصادر الجباية فيجمعون ماشاءوا وكيف شاءوا . وقد أثروا وكثرت أموالهم من أيام بنى أمية قبل زمن الوزراء ، فخلف عمرو بن العاص سبعين بهارا من الدنانير - والبهار أردبان بالمصرى - ذهبا (١) وبلغت غلة خالد القسرى ١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٢) وصاروا في عهد بنى العباس أوفر ثروة ، ولاسيما بعد أن طمعوا في الاستقلال ، فخلف يعقوب ابن الليث الصغار في بيت ماله ٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم و ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ دينار (٣) وقس على ذلك أموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم . وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلى تقدر بالأرطال والقناطير والصناديق - مثال ذلك ما خلفه الأمير سيف الدين تنكز التستري منها ١٩ رطلا من الزمرد والياقوت ، وستة صناديق جواهر وفصوص الماس ، و ١ر٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال ، و ٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠ مثقال ذهب ، و ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فضة ، وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور ، وستة قناطير فضيات ، و ١ر٢٠٠ر٠٠٠ دينار . فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين والمماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم

غير ثروة الحواشي والاتباع ، ممن أثرى بالصناعة والأدب أو التجارة ، فقد ذكرنا ثروة بعض التجار فيما تقدم ، فاعتبر ذلك في سواهم من الأطباء والمغنين والشعراء ، فان إبراهيم الموصلى مغنى الرشيد توفى عن ٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (٤) وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثانى ما كان يقبضه جبرائيل بن بختيشوع طبيبه

نتائج الثروة

من قواعد العمران اذا تكاثرت الأموال في أيدي الناس أن يتوسعوا في الانفاق ويتنعموا بمعيشتهم ، فيتأنقوا في الطعام والشراب والسماع وغيرها من الملذات الجسدية ، ويتنعموا باللبسة الثمينة والرياش الفاخر . ثم يطلبوا الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء المجوهرات والعقارات ، ويلتمسوا سعة الشهرة فيقربوا من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار في ذلك العهد ، كما يفعل بعض أغنياء زماننا بالتقرب من أرباب الصحافة . ونقسم الكلام في هذا الباب الى فصول :

(١) القريرى ٣٠١ ج ١

(٢) ابن الاثير ١٠٣ ج ٥

(٣) المسعودى ٣١٤ ج ٢ وابن خلكان ٣١٩ ج ٢

(٤) سير الملوك ١١٣

١ - التائق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن أطعمة العرب أنها كانت ساذجة قليلة ، ثم تعددت بعد الاختلاط بالأعاجم ولا سيما الفرس . والعرب قلدوا الفرس في أكثر أسباب الحضارة فضلا عن نظام الحكومة . فكانوا إذا أحوجهم الاحتفال بعيد أو عرس أو ختان سألوا عما يفعله الفرس في مثله وقلدوهم فيه - هموا بذلك من عهد الأمويين ، وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التمتع اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم . فأبو موسى الأشعري كان يتجافى عن أكل الدجاج لأن العرب لم يهدوا ذلك . وكانوا يتجنبون الاكثار من أكل اللحوم ويعتقدون أضرارها ، نحو ما يعتقدونه النباتيون اليوم تمثلا بما قاله عمر بن الخطاب : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . فلما حكم الأمويون ومالوا الى التمتع كان الفرس أحسن مثال لهم . وأراد غير واحد من أمراء العراق تقليدهم في ذلك ، ولكن البداوة كانت تغلب عليهم فيرجعون . ذكروا أن الحجاج بن يوسف أولم لختان أحد أولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال : « أخبرني بأعظم صنيع شهدته » فقال : « شهدت أيها الأمير بعض مرازية كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعا أحضر فيه صحائف الذهب على أخونة الفضة أربعة على كل واحد ، وتحمله أربع وصائف ويجلس عليه أربعة من الناس ، فاذا أطمعوا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك أكبره وغلبت عليه البداوة فقال : « يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس . . » (١)

على أنهم مالبثوا أن رضخوا لتيار الترف وتكيفوا لموافقة البيئة التي تحف بهم ، فبعد أن كانوا يحسبون الكافور ملحاً والأرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كافداً ، وبعد أن أكلوا العلهز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالها (٢) فاقوا الفرس والروم في التائق والتنعيم ، فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بنى هاشم إذا جلسوا الى الطعام يقف الأطباء بين أيديهم ومعهم البراني (٣) بالجوارشنيات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر . ويقفون في الصيف ومعهم الأشربة الباردة والجوارشنيات الموافقة لذلك الفصل (٤) واقتدى بهم سائر الأمراء وأهل الدولة فكانوا يستشيرون الأطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم ، حتى في أثناء

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١

(٢) ابن خلدون ١٧٠ ج ١

(٣) البراني جمع برنية ، وهي الاناء الصغير . والجوارشنيات مساحيق كانوا يتماطونها لتسهيل الهضم

(٤) طبقات الأطباء ١٧٥ ج ١

الطعام وهم على المائدة ، وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طيبيا أرزاقهم جارية

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطيبه من الوان اللحوم والطيور والفاكهة ولو بعد مكانه ، فيحملونه على البريد ينفقون في ذلك الأموال الكثيرة (١) وكانوا يربون الطيور الداجنة على أطعمة مغذية يتوهمون أنها تزيد في لذة طعمها أو نفعها أو تسهل هضمها . فكانوا يعلفون الفراريج الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب (٢) وتفنن الطهاة في اصطناع الأطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير أو النفع الصحى ، وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة في الاحتفاء ، كما فعل ابراهيم ابن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له أطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه ، فسأله الرشيد عن ذلك فقال : « يا أمير المؤمنين هذه السنة السمك » وقدرت نفقة ما في ذلك الجام بألف درهم (٣) وقس عليه تفننهم في اصطناع الفالودج بدهن الفستق والملح المعقود بالسكر والطبرز والعسل

فانسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع في النفقة عليها ، حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس ، وبلغت علوفة البط وحدها على أيام المقتدر العباسى ٣٠ قفيزا من الشعير كل شهر (٤) فاعتبر كم يحتاج اليه احدهم اذا أراد نقل مطبخه من الدواب لحمله . ذكروا أن عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل (٥) وكان للخليفة المقتدى العباسى ثمانون جملا تحمل الماء من دجلة لشرب عياله (٦) وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له ، على أنهم كانوا يجعلونه أضعاف ما يحتاجون اليه مخافة أن يطرقهم أضياف ، فكانت الأطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها (٧)

فنتج من الانغماس في الأكل والتفنن في التشويق اليه كثير من علل القنائة الهضمية ، توالى على أهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا ، وغيرها من عواقب النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما وتسلطت السويداء على أمزجتهم ، وتولتتهم حدة المزاج فجرهم الغضب الى

-
- (١) لطائف المعارف ٩٥ وابن بطوطة ٣ ج ٢
 (٢) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١
 (٣) المسعودى ١٩٩ ج ٢
 (٤) تاريخ الوزراء ٢٥١
 (٥) الفخرى ٢٣٢
 (٦) الفخرى ٢٧٦
 (٧) المقرئى ٣١٨ ج ١

سرعة الفتك والقتل من تغلب السويدياء ، كما يتضح من مراجعة أخبارهم .
وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم . واشتهر من الخلفاء والأمراء غير واحد
من الأكلة ، منهم في أيام بنى أمية معاوية بن أبى سفيان وعبيد الله بن زياد
والحجاج بن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بنى العباس محمد
الأمين (١)

٢ - البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف في
المطعم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشى في الأسواق وعليه القميص
الخلق المرقوع الى نصف ساقه ، أو ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان
من ليف وحمائل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفي الحد بها (٢) . وكان
عمالهم في مثل حالهم ، اذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم
بعمامة دكناء واحتذى خفين ودخل عليه (٣) وأول من اتخذ زى
الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام . وقدم عليه عمر بن
الخطاب في أثناء ذلك فلما رآه في ابهة الملك أنكرها عليه وقال له : « أكسروية
يا معاوية ؟ » (٤)

ثم تحضروا وكثرت الأموال بين أيديهم وخالطوا أهل الترف من الاعاجم ،
فاضطروا بطبيعة المدينة الى التبسط في العيش والتنعم باللباس . وأحب
الامويون الوشى كما تقدم ، واكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك ،
فاجتمع عنده ١٢٠٠٠ قميص وشى و ١٠٠٠٠٠ تكة حرير . وكانت كسوته
اذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل (٥) وفي أيامهم تسابق الصناع الى اجادة الوشى .
وزاد المسلمون بدخاً في أيام بنى العباس ، ورغب أهل التجارة في حمل أصناف
المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب أو الفضة
ومرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التى يصنع فيها ، على نحو
ماييناه في كلامنا عما يحمل من أصناف التجارة الى بغداد

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز ، وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن
وبر الخرز وهو ذكر الارانب (٦) والابريسم حرير خالص ، والديباج نسيج
حريرى موشى بالقصب باشكال الحيوانات ونحوها ، والبز نسيج قطنى ثمين
وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والأودارى ، والملحم والمعلم والمنير

(١) المسعودى ٢٦٧ ج ٢ والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢

(٢) الفخرى ٢٥ و ٦٦

(٣) العقد الفريد ٦ ج ١

(٤) ابن خلدون ١٦٩ ج ١

(٥) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢

(٦) الف باء ١٨٧ ج ٢

ومنسوجات الشعر أو الوبر أو الصوف ، ومايلحق ذلك من أنواع السمور والقاقم وغيره - يصنعون منها الأقبية والدراريع والطبالسة والجيب والعمائم والأبراد والفلائل والملاحف والمآزر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها وكان الصناعات يتبارون في اتقان هذه الصناعات ويفالون في ترفيعها ، لما يلاقونه من البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ولاسيما الخليفة وأهل دولته . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الالبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديبقي خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها . وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ . وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولاسيما الخلفاء - مثاله ماخلفه المكتفى بالله من الالبسة وهو :

	عدد
من الثياب المقصورة سوى الخامات	٤٠٠٠٠٠٠
« الأتواب الخراسانية المروية	٦٣٠٠٠
« الملاءات	٨٠٠٠
« العمائم المروية	١٣٠٠٠
« الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب	١٨٠٠
« البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب	١٨٠٠٠
« الأبسطة الارمنية	١٨٠٠٠

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي ، ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته ألف سروال ديبقي بألف تكة حرير

وغالوا في البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة ، وكان الفاطميون يلبسون الفيلة اجلة في الخسرواني الاحمر المذهب (**) . وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع أنواع الثياب والبز ، ويكسون بها الناس على اختلاف اصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصل المقرئ ما تحويه تلك الدار من الالوان والاشكال (١) ولما جهز خمارويه ابنه قطر الندى الى الخليفة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز ألف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير (٢) وقس عليه سائر الملابس

(*) أي يجلونها بالخسرواني الاحمر المذهب

(١) المقرئ ٤٠٩ ج ١

(٢) المقرئ ٣١٦ ج ١

٣ - الأثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الأرض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم ، فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الأرض مع العرب ، ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الأيدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ ، فيجلس عليه وهو على ماتقدم ، وفاء له بما اعتقد معهم من الذمة واطراحا لأبهة الملك . فما لبث المسلمون أن تحضروا وأثروا حتى اتخذوا الأسرة من الذهب والعاج وفاقوا الأكاصرة والقياصرة قبلهم . وأول من اتخذ السرير في الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، ويريدون بالسرير المقعد أو الكرسي الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك إلا بعد استئذان المسلمين ، واعتذر بثقل جسمه فزعم أنه بدين ، فأذنوا له فاتخذه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء (١)

الأثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان أكثر مالقوه من الفرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس وعند فتح المدائن ، فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته . ذكروا بدويا ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغا عظيما فلم يدر قيمته ، فاشتراه منه بعضهم بألف درهم ثم علم أنه كان يساوي أضعاف ذلك المبلغ فلأمله أصحابه على تفريطه به فقال : « لو عرفت عددا أكثر من الألف لطلبته » (٢)

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجواهر ، وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر . وظفر آخرون بسفطين في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباته (*) الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكلل بالجواهر ، وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكلل بالجواهر . ووقع لهم بساط يسمونه القظيف طوله ٦٠ ذراعا في ٦٠ مطرزا بالصور وعليه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة ، وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافته كالارض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع ، والورق من الحرير على قضبان الذهب والفضة وثمره الجواهر . وحمل هذا البساط الى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في أصحابه مثل سائر الغنائم (٣)

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجواهر بكى لما كان يخافه من

(١) ابن خلدون ٢١٧ ج ١

(٢) الفخرى ٧٤

(*) أى صدره

(٣) ابن الأثير ٢٥٥ ج ٢

مصر المسلمين الى الترف المؤذن بالانحدار . وكذلك أبو بكر الصديق ، وله سبق في نصره الاسلام والفضل في تأييده ، فلما حضرته الوفاة وبخ المهاجرين وخوفهم وقال : « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبي (صلم) قبلهما نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب (١) فلم ينفعهم ذلك كله ، فما كادوا يأخذون بأطراف الحضارة حتى انغمسوا في أسباب التمتع بالفرش الوثير والرياش الفاخر

بدا بذلك الأمويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويلهم الخلافة الى الملك ، فأكثر خلفاؤهم المسرفون ولاسيما الوليد بن يزيد من عقود الجواهر يغيرها في كل يوم كما تغير الثياب ، وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى اغلاه (٢) على أنهم اقتصروا من أسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة . الا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تصنع لهم في مصر كما تصنع للروم من قبل ، عليها طراز باليونانية مفاده البسملة عند النصارى (٣) فأبدلها عبد الملك بالطراز العربى بصورة التوحيد . غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة

اللائث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين . اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا الى الترف فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقتنوا الأجرة الذهب المرصعة بالجواهر أو الابنوس المطعم بالعاج ، واتخذوا المقاعد والتمارق والكراسى ، ونصبوا منائر الذهب أوقدوا فيها الشموع من العنبر ، وعلقوا الستور المطرزة والموشاة ، وأفترشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المكلفة بالدر والياقوت (٤) وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعات وأئمنها فحملوا الستور المعلمة من فسا ، والبسط والمصليات من تستر وبخارا ، والحصر من عبادان ، والمقاعد من دشت - على أن أحسن أصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من أرمينية . والطاغم الأرمنى - وهو عشر مصليات بمخادها ومساندها ومطارجها وبساطها - يساوى خمسة آلاف دينار (٥) وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة وأكثره وارد في الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء . ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به

(١) ألف باء ١٨٧ ج ٢

(٢) الاغانى ١٢٩ ج ٦

(٣) الديميرى ٥٨ ج ١

(٤) ابن خلدون ١٤٥ ج ١

(٥) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١

المثل بالرقعة والصفاء فيقال أرق من زجاج الشام وأصفى من زجاج الشام (١) - اتخذوا ماتقدم من الآنية والمفروشات تقليدا للفارس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة (٢) ويزركشون البسط والطنافس فيرسومون في أواسطها أشكالا وصورا مما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أبياتا من الشعر وربما طرزوا دور البساط (أى حافته) بقصيدة (٣) وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الأشعار على آنية البلور وأطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها - يتفاوت ذلك شكلا ومقدارا بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحريز الى المزركش بالقصب فالمحلى بالذهب فالمرصع بالجواهر - كالבساط الذي كان لام المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر أنفقت في صنعه ١٣٠٠٠٠٠٠ درهم (٤)

وأحدث العباسيون في عهد الرشيد أشكالا من الفرش وفنونه لم يسبقهم إليها أحد ، منها ما ينسبون اختراعه الى زوجته زبيدة ، فقد ذكروا أنها أول من اتخذ القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلاسيها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج وأنواع الحرير الاحمر والاصفر والاخضر والازرق (٥)

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم (٦) وتفننوا في تزيينها وكتابة الأشعار عليها مما يناسب المراد بها أو يشار به الى غرض . كما فعل أبو العتاهية في طلب الجارية عتبة من الرشيد ، وكان يخاف أن يرده ، فأهدى اليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتا هذا مجموعها :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتى فاذا لها من راحتيه شميم
أعلقت نفسى من رجائك ماله عنق يحث اليك بى ورسيم
ولربما استأسييت ثم أقول لا ان الذى ضمن النجاح كريم (٧)
على أن كتابة الأشعار على المراوح كانت معروفة في أيام بنى أمية (٨)

-
- (١) لطائف المعارف ٩٥
(٢) الاتليدى ٩٨
(٣) الاغانى ٤١ ج ١٥
(٤) المستطرف ١٢٤ ج ١
(٥) المسعودى ٣٦٦ ج ١
(٦) الاغانى ٨١ ج ١٢
(٧) المسعودى ١٩٦ ج ٢
(٨) العقد الفريد ١٨٤ ج ٢

المجوهرات عند العباسيين

غالى الخلفاء العباسيون فى اقتناء المجوهرات ، ولا سيما الدر وهو اللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر القانى ويسمى البهرمانى ، ويتلوه الأحمر المشرقى الرمانى ثم الأزرق الغميق وتشوب زرقته حمرة ويسمى الاسمانجونى ، وبعده الاصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبى . ولكل من هذه الأشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد وأحسنه يعرف بالدبابى لقرب لونه من لون الدباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة - هذا أهم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة ، وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرتهم

وأكثر ما تناقله المسلمون من الحجارة الكريمة فى أوائل دولتهم مأخوذ من غنائم الفرس ، لأنهم غنموا ما يفوق الخضر من الجواهر التى قضى الفرس الأجيال وهم يجمعونها ويتوارثونها ، فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفا . وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الأكراد فانهم غنموا سقطا فيه جوهر حملوه الى عمر فى جملة الغنائم فأمر ببيعه وقسمة ثمنه فى المسلمين ، فباعه وقسمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفا (١)

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالأثمان الغالية ، فاشتري الرشيد فص ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار وكان قديما ويعرف بالجبل والملوك تصونه ، فنقش عليه الرشيد اسمه (٢) واشتري فصا آخر بمائة وعشرين ألف درهم (٣) وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على يحيى بن خالد سقط جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم (٤)

وكثيرا ما كانوا يستخدمون الجواهر بدلا من المبالغ الكبيرة فاذا عزم أحدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلا ، فبدلا من أن يحمل ذلك المال ذهبيا أو فضة استبدله بجوهرة أو عدة جواهر يسهل حملها فى الجيب . فاذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر وأنفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحاويل المصارف المالية أو البنكنوت (العملة الورقية)

وكان الأمويون يرغبون فى المجوهرات أيضا ، وقد رصعوا بها الخلى وبعض الآنية واصطنعوا منها العقود لبسهم ولبس نسائهم وجواريتهم . أما العباسيون

(١) ابن الأثير ٢٤ ج ٣

(٢) المسعودى ٣٠٠ ج ٢

(٣) الألبندى ١٤١

(٤) الطبرى ١٨٩ ج ٢

فبالغوا في ذلك حتى نظموها في عصائب نسائهم كما فعلت أخت الرشيد (١) ورسعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته (٢)

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الآنية والفرش والمجوهرات والثياب مالا يعلم مقداره الا الله ، يدلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفى وغيره وما اخرجوه من خزائهم في فتنة البساسيري في أواسط القرن الخامس من جملته ٧٥٠٠٠ قطعة ديباج و ١١٠٠٠٠ كزاغند و ٣٠٠٠٠٠ سيف ، وهو بعض ما كان في دار الخليفة ، ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى

وقد أنكر ابن خلدون ما ذكره المؤرخون عن ترف بنى العباس في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم ، لما كانوا عليه من خشونة البداوة (٢) واستشهد بالمسعودي والطبري . ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه . لأن المسعودي هو الذي أخبرنا بنظم الجوهر في خفاف أم جعفر وهي من أقرب الناس للتقوى . والطبري أورد أخبارا كثيرة ، تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد . غير ما ذكره غيرهما من ثقات التاريخ والأدب المتقدمين كأصحاب الاغانى والعقد الفريد والكمال والمعارف (٣) وغيرهم . ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه - حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه « أن المأمون أعطى بوران في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت ، وقد أوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من وثلثان ، وبسط لها فرشاً كان الحصر منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت » (٤) ويلوح لنا أن ما كانوا يتجافون عنه في صدر الدولة العباسية إنما هو الركوب بحلية الذهب ، وأول من ركب فيها منهم المعتز بالله (٥) فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسيين عن الترف وهم من أعرق الخلفاء فيه

بدخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الاسلامية في مصر والشام والمغرب والأندلس ، فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في أسباب الحضارة ، وكان التمدن الاسلامي قد نضج والدولة العباسية اخذت في التقهقر ، ففاقوهم في كثير من أسباب البدخ والترف ولا سيما من

(١) الاغانى ٨٣ ج ١

(٢) المسعودي ٣٦٦ ج ٢

(٣) ابن خلدون ١٥ ج ١

(*) هم على الترتيب : الاصفهاني وابن عبد ربه وابن الاثير وابن قتيبة

(٤) ابن خلدون ١٤٥ ج ١

(٥) المسعودي ٣٠٥ ج ٢

حيث الأثاث والرياش والثياب ، فقد رأيت أن العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ، ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعا بالجواهر ، وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس ، وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فإذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة أو تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب ، عليها أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها ، معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها ، المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان ، في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده ، وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكات فضة وذهب ، وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات ، وعلى رءوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته وأشكال من سائر الوحوش ، وأصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة (١)

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ يسمونها خزائن ، بعضها للفرش والبعض الآخر للجواهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسرّج أو الدرق أو الكسوات أو الادم أو الشراب أو التوابل أو الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة . وقد توسع المقريري في وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والاطياب مما يضيق عنه هذا المقام فليراجع في مكانه (٢) ونأتى بشيء من ذلك على سبيل المثال :

الحلى والجواهر عند الفاطميين

فمما أخرجوه من خزانة الجواهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجودا . واستخرجوا خريطة فيها وية جواهر قال الصياغ ان قيمته لا تقدر وأصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين ألف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من أقداح البلور المنقوش والمجروح وصحون من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير ، وفي

(١) المقريري ٤٧٢ ج ١

(٢) المقريري ٤٠٩ - ٤٢٥ ج ١

مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح أثمانها بين عشرة دنانير وألف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بأنواع النقوش ، و ١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب ، ونحو مائة كأس بادزهر وأشباهها على أكثرها اسم هرون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وأنصابتها من الجواهر المختلفة ، وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصنيدل والعود والابنوس والعاج ، محلاة بالجواهر مما يساوى ألف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة أزيار مملوءة كافورا وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠٠ من الثياب المصمت ألوانا و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ومعجمات بجواهر من أيام المعز ، وبيت هرون الرشيد الخز الاسود الذى مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز أيضا ويطول شرحه . وخزائن مملوءة بأنواع الصينى تساوى القطعة منها ألف دينار، وحصير من الذهب وزنه عشرة أرطال يظن أنه الحصير الذى حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون كما تقدم ، وصوان من الذهب كان ملك الروم أهداها الى العزيز بالله

ووجدوا أنواعا من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة أو العاج أو الابنوس ، وعددا كبيرا من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة أقل تمثال منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحده . والكلوتة (أى الطاقية للرأس) المرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلا . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر عيناه من ياقوت أحمر وريشه من الزجاج الميناء المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر بطنه أبيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكلفة بالجواهر وبديع الدر فى اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفتة وهيئته من الجواهر قيمتها لا تقدر . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة أرطال ومزيرة مكلفة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من أمثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا فى خزائن الفرش من أصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك ١٠٠٠٠٠ قطعة خسروانى أكثرها مذهب ، ومراتب خسروانى وقلمونى

ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار ، وأجلة معمولة للفيلة من الخسروانى الاحمر المذهب ، و ٣٠٠٠ قطعة خسروانى احمر مطرز بأبيض من هذبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعته وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج وسائر انواع الحرير وعليها أشكال الصور من كل شيء . ونحو ألف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف الوانها وأطوالها ، فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله ، و ٤٠٠٠ رزمة خسروانى مذهب فى كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعليقه وسائر آلاته منسوجة فى خيوط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله ، وفيه صورة اقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسكنها شسبه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة أو الحرير ، وقد كتب فى آخره « مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله فى سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقى المدنية والحضارة ، وكم تكون قيمتها لو وجدت الآن وكم يدفع المتمولون من المبالغ فى الحصول عليها

وقس عليه ما كان فى سائر الخزائن من التحف ، وفى خزانة السلاح سيف الحسين بن على ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر الصادق ، ومئات الألوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفى خزانة السروج ألوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوى ألف دينار . وفى خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور ، والشراعات والمشارع العمومية من الديباج والخسروانى والديباج المكي والارمنى والبهنساوى والكردوانى ، وغير ذلك على اختلاف الألوان والنقوش من الفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من أشكال السباع والطيور والأدميين مما ينصب على أعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعا كبيرا يحمله مع ملحقاته مائة جمل . وفى خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها

ومن أدلة الترف والاسراف فى هذه الدولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت إياها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهباً ، منها مركب واحد مرصع ومرغوب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في العصور الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها ، واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق (١) ولذلك قالوا : « من دخل مصر ولم يستغن فلا اغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف وامثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف رأى العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التى اقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ماكان باقيا في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما اصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره - قال : « وحمل الجميع الى صلاح الدين ، وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء ، وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ، ومن الجواهر التى لم توجد عند غيرهم ، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو ١٧ مثقالا أنا لا أشك ، لاني رأيتـه ووزنته ، واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد كبير » (٢)

بذخ الاندلسيين

واقتردى بالعباسيين فى الترف والبذخ الاندلسيون ، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيهما . على أن بعضهم تفنن بذلك على شكل لم يسبقه أحد الى مثله ، فالمنصور بن أبى عامر فى أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم ، وهو أعظم ملوك النصارى فى ذلك الزمان ، ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم . فأراد المنصور أن يبيغته بما يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة ، فأمر أن يفرس فى بركة عظيمة ذات أميال نيلوفر ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً قدر ما تسع النيلوفرة ، وملاً بها جميع النيلوفر وبعث الى الرسول فحضر عنده قبل الفجر فى مجلسه بالزاهرة فأجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم الاقبية والمناطق من الذهب والفضة ، ويبدأ منهم أطباق من ذهب ويبدأ . ٥٠٥ أطباق من فضة ، فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم . فحين اشرقت الشمس ظهر النيلوفر فى البركة وبادروا لأخذ الذهب والفضة منه وكانوا يجعلون الذهب فى أطباق الفضة والفضة فى أطباق الذهب ، حتى التقطوا جميع ما فيها وجاءوا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوما ، فتعجب الرسول من ذلك وطلب المهادنة . واصطنع المنصور هذا نموذج قصر من فضة لصبح أم هشام وحمله اليها على

(١) ابن خلدون ٢٠٢ ج ١ .

(٢) ابن الاثير ١٦٥ ج ١١ .

رعوس الرجال استجلابا لحبها (١)

وأغرب منه ما فعله المعتمد الاندلسي لام أولاده الرميكية الملقبة اعتماد ، وقد رأت ذات يوم نساء البادية بأشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت : « ياسيدى أشتهى أن أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء » فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طينا في القصر ، وجعل لها قربا وحبالا من الابريسم وخرجت هي وجواريتها تخوض في ذلك الطين (٢)

وقس على ذلك سائر ملوك الاسلام في عصر الترف ، فقد كان عند سنجر ابن ملكشاه ١٠٣٠ رطلا من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك . وكانوا يقيسون الاسراف أحيانا بما ينفقونه من الشمع في الاضواء ، فذكروا أن وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة الف رطل من شمع في الشهر (٣) واشتهر محمد الامين بكبر شمعته . ولم يكن ذلك الترف قاصرا على الخلفاء والملوك والامراء ، ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة ومن يرتزق منهم ، وأما العامة فربما كانوا في أشد الضيق - راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب

٤ - التسرى

هو اقتناء الجوارى للتمتع بهن أو استيلادهن . وقد علمت ما كان من تكاثرهن والاتجار بهن وتربيتهن وتهاديهن في ذلك العصر ، وبتكلم هنا عما بعث عليه الترف من تسريهن . وكثيرا ما يعقب التسرى التزوج ، فاذا ولدت الجزائرية لأحدهم تزوجها . وكان العرب يكرهون التزوج بالجوارى ، فمع كثرتهم في صدر الاسلام لم يتزوج الراشدون جارية (٤) ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش . فتوفي الامام على عن ٤ نسوة و ١٧ سرية (٥) وكانت تلد الجارية لأحدهم فيبيعهما كما يبيع سائر الجوارى ، فنهى عمر عن بيع أمهات الاولاد (٦) وكانت العرب على كل حال تحتقر أبناء الجوارى ، حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد (٧) فرغب الناس في التسرى (**)

(١) نفع الطيب ٧٣١ و ٧٣٢ ج ٢

(٢) نفع الطيب ٢٠٨ ج ١

(٣) ابن خلكان ٨٧ ج ١ و ٦٣ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٢٦ و ٩٢ ج ٣

(٥) الف باء ٣٤٧ ج ٢

(٦) ابن الاثير ٢٩ ج ٣

(٧) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

(**) روى خير أولئك الثلاثة أبو العباس المبرد في الكامل من كتاب ربيع الزمان للزمخشري، وخلصته أن بنات يزدجرد الثالث وقعن في أسر المسلمين ، فاشتراهن على بن أبي طالب ودفع واحدة لعبد الله بن عمرو وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق ، فأولد

وليس المسلمون أول من اقتنى السرارى ، فالتسرى كان شائعا عند الرومانيين ، والسرية عندهم أحط منزلة من الزوجة ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية . وكانوا في أول أمرهم كالعرب يكرهون التسرى ، حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار أمرائهم فعكفوا عليه (١)

وزادت رغبة المسلمين في التسرى في إبان الحضارة ، حتى أصبح أكثر أبناء الخلفاء من أولاد الجوارى (٢) وأكثر نساء أهل الدولة منهن ، واقتدى بهم سائر الوجهاء والاعنياء . فعمدوا الى اقتناء السرارى ، ومن ولدت له تزوجها أو اعتقها . فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ، ذكروا انه كان للمتوكل العباسى ٤٠٠٠ جارية وطئن جميعا (٣) وعلم الامراء برغبته فيهن فتقربوا اليه بالهدايا منهن ، فأهداه عبد الله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة (٤) . وكان لنصر الدولة صاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عداد أيام السنة (٥) غير ما كانوا يقتنونه من الجوارى للغناء ، فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية (٦) منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب (٧)

وأصبح الاستكثار من الجوارى عادة مألوفة ، حتى صار النساء يقتنينهن للزينة . فكان عند أم جعفر البرمكى ٤٠٠ وصيفة يخدمنها (٨) وقد رأيت ما اتخذته زبيدة من الجوارى المقدودات وكيف البستهن ملابس الغلمان فقلدتها الوجيها من أهل اليسار ، فاتخذن الجوارى المطمومات أو الغلاميات ، ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء في ذلك ، حتى ألف القاهر بالله العباسى جوقا من الجوارى بقدر واحد البسهن القراطق والاقبية والطرر والاقفية والمناطق من الذهب أو الفضة كأنهن الغلمان (٩)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب ، وقد فاق الفاطميون سواهم في الاكثار من الجوارى أيضا ، فكان في قصر الحاكم بأمر الله ١٠٠٠٠ جارية وخادم (١٠) وكان عند أخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠٠ جارية منها

عبد الله ولده سالما ، وأولد الحسين عليا زين العابدين ، وأولد محمد بن أبى بكر ولده القاسم . وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الاولاد ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين والقاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبد الله بن عمرو ففاقوا أهل المدينة فقها وورما ، فرغب الناس في السرارى .

(١) Gibbon, 11. 205

(٢) الجزء الرابع من هذا الكتاب

(٣) المسعودى ٢٧٩ ج ٢

(٤) الاغانى ١٢٣ ج ١٩

(٥) ابن خلكان ٥٧ ج ١

(٦) الاغانى ٨٨ ج ٦

(٧) الاثليدى ٦٧

(٨) المسعودى ٢٠٨ ج ٢

(٩) المسعودى ٣٦٦ ج ٢

(١٠) المقرئى ٣٦ ج ١

١٥٠٠ من البنات الابكار (١) ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢٠٠٠ نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة واهله واولاده ، غير الخدم والفلمسان والامتعة والتحف ، واطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين (٢) ويقال نحو ذلك في السلاطين المماليك بمصر وبني امية في الاندلس مما يطول شرحه ، ولا يزال مثاله عند بعض امراء الشرق وملوكه الى اليوم (قبل الحرب العالمية الاولى)

اثمان الجوارى

والاستكثار من الجوارى في اوائل الاسلام لم يكن يحتاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا ، فلما نضج التمدن صاروا يتعاونهن ويغالون في رفع اثمانهن ، وكانت أسعارهن تتضاعف اذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء . ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة آلاف أو مائة ألف دينار . وأول من بذل في هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد اخوسليمان بن عبد الملك ، فابتاع « الذلقاء » الجارية الشهيرة بمليون درهم (٣) (نحو ٧٠٠٠٠ دينار)

وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار (٤) وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلى بمبلغ ٣٦٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها الى الفضل وطلب محمد الأمين الى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها « بذل » فأبى ، فأمر فأوقروا قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠ درهم (٥) أى أكثر من مليون دينار - وهذا اذا صح كان أعظم ما بلغ اليه بذلهم في اثمان الجوارى

وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموى « سلامة » المغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية « ضياء » بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكى جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها « الصالحية » بعشرة آلاف دينار . وقس عليه مادون ذلك وما فوقه ، واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهن

٥ - السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم ، وأنهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الاسلام حتى أصبح من قواعد الارتزاق فيمن

(١) القريرى ٤٨٥ ج ٢

(٢) القريرى ٤٩٧ ج ١

(٣) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢

(٤) المطبرى ١٣٣٢ ج ٢

(٥) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغاني ١٤٥ ج ١٥

يحمون حول الخليفة وأهل الدولة ، فلما توفرت الأموال في أيدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجات والكماليات من الملاذ الجسدية تطلبوا الملاذ المعنوية بحسن الأحدث ، وهم أهل أريحية يستفزههم الاطراء والاستنجاد ، فوجدوا في السخاء بابا واسعا لتلك الملاذ ، فبدلوا الأموال على الشعراء والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات ، لما في ذلك من لذة الفخر أو توقع الأجر

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ماالذي بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة والمدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ، فكان الأمويون يعطون بالالف درهم أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية أو الكسوة أو الخيل ، وإذا توسموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف أو عشرات الألوف أو مائة ألف أو مئات الألوف ، كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بنى هاشم الى حزبه ، فانه جعل صلوات أبناء الصحابة ملايين يبدلها رواتب كل عام . وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب أو لغير سبب ، كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبدل له ١٠٠٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية فرضي ، ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام (١)

واقتمدى بمعاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية ، كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية (٢) ومن أسخياء عمالهم خالد القسرى والحجاج بن يوسف اذا مست الحاجة الى السخاء . فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أسماء ثلاثين غلاما مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل الى أحد هدية مع عبد الا كان العبد في جملتها (٤)

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفر ، فبلغت عطياتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يوقرون الزوارق ذهبا أو فضة ، أو يهدون الغلمان يخملون بدر المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، أو يولون

(١) الاغانى ٧١ ج ١١

(٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢

(٣) الاغانى ١٣٠ ج ١

(٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢

(٥) لطائف المعارف ١٦

الولايات والاعمال ، وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب أو استفزهم الاطراء فقد ولى السفاح رجلا الأهواز بقصيدة (١) والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسى يعود نفعه على الدولة ، كما فعل المنصور اذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها في أعمامه ووجوه قواده ليقطع السنتمهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار ، وجلس مجلسا عاما فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠ درهم ، وقرر لكل واحد من أهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة (٢) وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فريضة يضعها حيث شاء (٣) وفرق الرشيد في يوم واحد ١٣٥٠٠٠٠ دينار (٤) وطرب يوما فنثر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم (٥) وأعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالا أرسله اليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم (٦) وأعطى الأمين الى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم (٧) واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً أو فضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة فاذا جاءه شاعر أو طالب في زورق وأخذته الأريحية واستخفه الطرب قال : « أوقروا زورق هذا ذهباً أو فضة » . وقلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب أن يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي ، فانه مدح الأمين بقصيدة اطربته فأمر الفضل بن الربيع أن يوقر زورقه مالا فقال : « نعم ياسيدي » فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل : « أنت مجنون ! من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ » ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠ درهم (٨) وأجاز المأمون طبيبه بمليون درهم والى كرخ حنطة (٩) وفرق المأمون في ساعة ٢٦٠٠٠٠٠ درهم ، ومدحه امرأى فأجازه بثلاثين ألف دينار (١٠) وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح (١١) وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء ، وانما ذكرنا أعظمها لبيان مبلغ ذلك في ابان التمدن

فلما افتقر الخلفاء العباسيون في أواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية والقباب الشرف يسترضون الناس بها . وهذه أبيات يقولون أن أبا بكر الخوارزمي نظمها بهذا المعنى :

-
- (١) فوات الوفيات ٢٠ ج ١
 - (٢) سير الملوك ٦٥ و ٦٦
 - (٣) الاغانى ٩٨ ج ١٨
 - (٤) المستطرف ١٣٥ ج ١
 - (٥) الاغانى ٨٨ ج ٠ و ١٢٤ و ج ١٧
 - (٦) ابن الأثير ٤٢ ج ٦
 - (٧) المستطرف ١٣٣ ج ١
 - (٨) الاغانى ١١٨ ج ١٨
 - (٩) طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١
 - (١٠) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١
 - (١١) الاغانى ٣ ج ١١

مالي رأيت بنى العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ما كان يرضى به للحبس بوابا
قل الدراهم في كفى خليفتنا هذا فأنفق في الاقوام القابا

سخاء البرامكة

على أن العصر العباسي الأول انما زها بالبرامكة ، وهم الذين رغبوا الخلفاء في السخاء ، وأولهم خالد بن برمك وزير المنصور ، والثروة لم تنضج في أيامه ، ومع ذلك فالوafdون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال ، فقال خالد : « هذا والله اسم أستقله لطلاب الخير ، وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين ، لأن فيهم الأشراف والاحرار وأبناء النعيم ، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ، ولكننا نسميهم الزوار » وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد في فعله حذو برمك فمجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله بلفظ على الاعدام فيه دليل
يسمون بـ «السؤال» في كل موطن وان كان فيهم نابه وجليل
فسماهم « الزوار » سترا عليهم فأستاره في المهتدين سدول

فأعطاه خالد عن كل بيت ألف درهم (١)

وكان ابنه يحيى بن خالد اذا ركب اعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم (٢) ، ويروون من أخبار سخائه ما هو أشبه بالخرافات منه بالحقائق : نذكر حادثة تواتر ذكرها في كتب التاريخ والأدب ، وهي تمثل سخاء يحيى أحسن تمثيل . وذلك أن البرامكة لما تكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم أو رثائهم ، فمن ذكرهم انما يذكرهم سرا . وظلوا على ذلك في أيام الأمين والمأمون . فسمع المأمون بشيخ يأتى خرابات البرامكة ويبكى وينتحب طويلا ثم ينشد شعرا يرثيهم به وينصرف ، فبعث في طلبه فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو وبم استحق البرامكة منه ما يصنع ، فقال الرجل وهو غير هائب : « للبرامكة عندي إياد خضر ، فان أمر أمير المؤمنين حدثته ببعضها » فقال : « هات » . فقال : « أنا المنذر بن المغيرة الدمشقي ، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت الى بيع دارى وأملقت الى غاية ، فأشير على بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعى نيف وعشرون امرأة وصبيبا ، فدخلت بهم الى مسجد ببغداد ثم خرجت وتركتهم جياعا لا نفقة لهم . فمررت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زى ، فجلست معهم أردد في صدرى ما أخاطبهم به فتحيد نفسى عن

(١) الافانى ٢٦ ج ٣

(٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ٢

ذل المسألة ، واذا خادم قد أزعج القوم فقاموا فقامت معهم ، ودخلوا دارا كبيرة فدخلت ، فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم مجمرة ذهب فيها قطعة عنبر ، فتبخروا وأقبل يحيى على القاضي وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة . فخطب وعقد النكاح وأخذنا النشار من فتات المسك وبنادق العنبر وتمائيل الند ، فالتقط الناس والتقطت . ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كفه والصينية تحت ابطه ويخرج ، فبقيت وحدي لا أجسر أفعل ذلك ، فغمزني بعض الخدم وقال : خذها وقم . فأخذتها وقمت وجعلت أمشي وألتفت خوفا من أن تؤخذ مني ، ويحيى يلاحظني من حيث لا أظن . فلما قاربت الأستر رددت ، فيئست من الصينية ، فجنّته فأمرني بالجلوس فجلست ، فسألني عن حالي فحدثته عن قصتي فبكي ثم قال : على بموسى . فجاءه ، فقال : يابني ، هذا رجل من أولاد النعم قد رمته الايام بصرفها ، فخذها اليك فاخبطه بنفسك . فأخذني وخلع على وأمرني بحفظ الصينية لي ، فكننت في الذعش يومي وليلتي . ثم استدعى أخاه العباس وقال : ان الوزير قد سلم الى هذا وأريد الركوب الى دار أمير المؤمنين فليكن عندك اليوم ، فكان يومي مثل أمس . فاقبلوا يتداولوني وأنا قلق بأمر عيالي ولا اتجاسر ان أذكرهم . فلما كان في اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى فأقمت عنده يومي وليلتي ، فلما أصبحت جاءني خادم فقال : قم الى عيالك وصبيانك . فقلت : انا لله ، ذهب الصينية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ! وقمت والخادم يمشي بين يدي ، فأخرجني من الدار فازداد مابي ، ثم أدخلني الى دار كأن الشمس تطلع في جوانبها ، وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور ، وقد حمل اليهم مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم الى الخادم صكا باسم ضيعتين جليلتين وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك ، فأقمت مع البرامكة في أخفض عيش الى الآن . ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين والزمني من خراجهما مالا يفي به دخلهما ، فكلما لحقتني نائبة قصدت دورهم فبكييت «

فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وأمره ان يرد على الرجل ما استخرج منه ، ويقرر خواجه على ماكان في أيام البرامكة . فبكي الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : « ألم أستأنف بك جميلا ؟ » فقال : « بلى ، ولكن هذا من بركة البرامكة ! » فقال : « امض مصاحبا ، فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الإيمان » (١)

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاليدى ١٣٢

وعلى ذلك شب جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة ، وتوسعوا في السخاء حتى عينوا الرواتب لأهل الحاجات . فقد ذكرنا فيما تقدم أن غلتهم بلغت ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار في السنة ، فلما قتل جعفر وقبضت أموالهم وجدوا ١٢٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار في بدر مختومة وعليها صكوك لأناس على سبيل الرواتب أو الصلات أو نحو ذلك (١) . ومن فنون سخائهم أن الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعا بخطه فحواها « امض الى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا دينارا » حسبما يجريه الله على يده ، ويركب في الليل أو في القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها . وسئل عن ذلك فقال : « أردت أن يصل برى الى من لا يصل الى ولا يعرفه ولا يعرفنى » ، فاذا وجد أحد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفي فيأخذها منه ويعطيه ما فيها ، وعند الصيرفي أمين جالس لثلا يصلح على بعضها . ولا يعطى لأحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه ، وربما جاءت بيد الصبى والمرأة والدمى فيأخذ ما فيها (٢)

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في أيام المقتدر ، فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والأدباء والفقهاء وأهل الفاقة ، وقد تكبوا كما تكب البرامكة ، ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم ، فأصبحوا مضرب الأمثال في الكرم . ولا يزال الناس يتداولون أخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون أريحية العظماء على السخاء بما يروون من أحاديثهم ، حتى ظننا بعضهم موضوعة لهذه الغاية . ولا يبعد أن تكون رغبة الناس في الاستحاث بعثت على المبالغة في بعضها ، ولكنها صحيحة على أجمالها - قال السلطان العادل الأيوبي مرة وقد جرى ذكر البرامكة وأمثالهم من الكرماء : « هذا كذب مختلق من الوراقين ومن المؤرخين ، يقصدون بذلك أن يحركوا همم الملوك والأكابر للسخاء وتبذير الاموال »

فقال بعض الحضور : « ياخوند ، ولأى شيء يكذبون عليك ؟ » (٣) (*)

السخاء على الشعراء والمفنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء ، فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامة من أوائل الاسلام لأسباب تقدم ذكرها ، ويشبه ذلك ماتنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها أو تأخذ بيدها في نشر مبدأ أو رأى .

(١) العقد الفريد ٢٢ ج ٣

(٢) ترتيب الدول ٢٢

(٣) نفع الطيب ٤٧٢ ج ١

(*) الخوند - بفتح الخاء والواو وسكون النون - هو المولى أو السيد . والمراد : يامولانا . وهذه الملاحظة من ذلك الرجل اشارة الى بخل السلطان العادل .

وتعودوا أن يسموا ما يعطى للشاعر جائزة أو صلة ، كما يسمون ما يعطى للصحف امانة أو راتباً . على أن بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة أو مسانهة ، وربما عدوا الجائزة راتباً يناله الشاعر اذا وفد على الخليفة أو الأمير في يوم معين من السنة . وقد تكلمنا عن الشعر وسائر أحواله فيما تقدم ، ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في ابان الحضارة

أول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو أمية ، وأسخاهم الوليد بن يزيد وهو أول من عد أبيات الشعر وأعطى على كل بيت ألف درهم (١) واقتدى به من جاء بعده منهم . أما العباسيون فزادوا القيمة وأعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠٠٠ درهم ، وأول من نال هذه الصلة منهم مروان بن أبى حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها :

« طرقتك زائرة فحى خيالها » (٢) ومدحه سلم الخاسر بقصيدة مطلعها :

« حضر الرحيل وشدت الأحداج »

فأراد أن ينقص له من جائزة مروان فحلف أنه لا يأخذ الا مائة ألف درهم ، ويقال انه أعطاه اياها (٣) والغالب انه أعطاه مائة ألف فقط ، وانما أضيفت الألف الأخرى خطأ من النساخ

وكان المنصور قبله بخيلا على الشعراء ، اذا أحب أن يعطى شاعره ابا دلامة فرض على الهاشميين دينارين ليعطيها له (٤) أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي ، أى مائة ألف درهم (٥) وأعطاه مرة ٥٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطى ابا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون (٦) وفاقهم المتوكل في ذلك لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها ، وهو أول من أعطى ذلك (٧) وكان المعتصم اذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً ، وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك (٨)

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلفاء ، فكان خالد القسرى يجلس للشعراء في

(١) ابن الأثير ١٣٧ ج ٥ والاعاني ١٤٨ ج ١٧ و ٣٩ ج ٩

(٢) ابن خلكان ١١٢ ج ٢

(٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١

(٤) الاعاني ١٢٨ و ١٣١ ج ٩

(٥) الاعاني ١٩ ج ١٢

(٦) الاعاني ١٥٧ ج ٣

(٧) الاعاني ١٨٤ ج ٦

(٨) الاعاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١

يوم معين ويجيزهم . وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الاعطية والجوائز (١)
أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يدخروا وسعا في أجازة الشعراء ،
وخصوصا الفضل بن يحيى وقد قال فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء (٢)

وكان أبوه يحيى إذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته (٣) وقد فاق
البرامكة الخلفاء في اجازة الشعراء ، فنال شاعرهم أبان اللاهثي على قصيدة
واحدة مثل ماناله مروان بن أبي حفصة من الرشيد كل عمره (٤) وقس
على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء ، فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله
لشاعر (٥)

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدي دحمان المغنى
في ليلة واحدة ٥٠٠٠ ر. د. دينار لأنه أطربه . وأعطى الأمين اسحق الموصلى
١٠٠٠ ر. درهم لأنه غناه شعرا في مدحه فحملها الى داره مائة فراش (٥)
وكان الهادي يجرى على ابراهيم الموصلى عشرة آلاف درهم في الشهر سوى
صلاته . أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد حتى ولى اسماعيل بن صالح
مصر لأنه أطربه بغنائه (٧) وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا محل لها
واقتنى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدول الاسلامية ،
وان لم يبلغوا شأوهم

٦ - المسكر

كان المسكر شائعا قبل الاسلام في الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة
العرب وغيرها ، وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات . ويقال
ان الرومانيين لم يتعودوا المسكر الا بعد فتحهم آسيا . على أن عقلاء الناس
كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب ، فان جماعة منهم حرموه على
أنفسهم وأهلهم ، واذا عربد أحدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه
ونفوه . فلما جاء الاسلام ورد النص بتحريمه ، وأقيمت الحدود في منعه
بالجلد والحبس وحلق الرأس أو اللحية والشوارب أو قطع العطاء ، وعاقبوا
بائعيه وكسروا أوانيهم ولاسيما في عصر الراشدين وأوائل أيام بنى أمية ، حتى

(١) الاغانى ١٦٤ ج ١١
(٢) ابن خلكان ٤١١ ج ١
(٣) الاغانى ٨ ج ٥
(٤) الاغانى ٧٣ ج ٢٠
(٥) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢
(٦) الاغانى ٩٩ و ١٤٢ ج ٥
(٧) حلية الكمي ٦٣ و ٦٤

عنف عمر بن الخطاب خالد بن الوليد على تملكه في الحمام بغسل فيه خمر ، وقال له : « ان الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها بأجسادكم » ومع ذلك فاختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عودهم اياها ، حتى شربها جماعة من الصحابة وأبنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب . وأول من عوقب على شربها وحشى بن حرب قاتل حمزة (١) ثم عوقب غير واحد منهم ومن ابنائهم ، وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد بن عقبة ، ويزيد بن معاوية ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعاصم ، والعباس بن عبد الله ابن عباس ، وقدامة بن مظعون ، وعبد العزيز بن مروان ، وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي ، وأبي محجن الثقفي وغيرهم (٢)

ومما ساعد على اقبال نفر من المسلمين على الخمر أن بعض الخلفاء الامويين كانوا يشربونها ، كيزيد بن معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد (٣) والوليد هذا أول من وصف الخمر وتغزل بها فسرق الشعراء معانيه وأدخلوها في أشعارهم . وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة ، فخوفه أصحابه من الناس فامسك . وقد أفسده وعلمه الخلاعة مؤدبه عبد الصمد بن عبد الأعلى (٤) على أن رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها ، حتى كثيرا ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوها منه (٥) وأشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر ابن عبد العزيز الأموي والمهتدي العباسي ، ومع ذلك فقد كانت تزداد انتشارا باتساع أسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالفناء والجوارى حتى صاروا يشربونها جهارا . واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء وأهلهم ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب . فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين الى انتحال المسوغات لشربها ، فأخذوا يبحثون في الفرق بين أنواعها ويميزوا بين المحلل والمحرم منها فأجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ ، وفي أى أنواعه حلال وأيها حرام ، ويقال بالاجمال ان أهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرمونه (٦)

والنبيذ يصنع من أكثر أنواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والتفاح والمشمش ومن الدرة . ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق عمله ، وهو عصير بعض هذه الأثمار أو منقوعها كما ينقع الزبيب اليوم (الخشاف)

(١) المعارف لابن قتيبة ١١٢
 (٢) العقد الفريد ٣١٤ ج ٣
 (٣) الاغانى ١٥٤ ج ١٩ و ١٥٧ ج ١٣ والعقد الفريد ٢١٤ ج ٣
 (٤) ابن الاثير ١٢٤ و ١٣٦ ج ٥
 (٥) المقرئ ٢٩٧ ج ٢
 (٦) ابن الاثير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١

وقد يضيّقون اليه العسل أو الدبس أو يصنعونه من أحدهما مع الحب على النار (١) وكانوا إذا أقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالأقداح الكبيرة ، وربما صنعوا الخمر منه . وإذا صفى في القناني صعب تمييزه من الخمر أو منقوع الزبيب أو مذاب العسل (٢) فمن أحب الشرب استحل تناوله على أنه نبيذ ، فإذا أكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرا ، وآخرون يحللون شرب الخمر إلا إذا أدت إلى السكر (٣) ولكن الأكثرين حكموا بتحريمها ، ولهم في ذلك أقوال يطول شرحها تراها مبسوطا في كتب الشرع

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا أنهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ ، وهو حلو منعش فيكثرون منه حتى يسكروا . ويؤيد ذلك أنهم كانوا يشربونه بالأرطال ، وإذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلا . وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون . وربما أتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين . وأقطع مايروى من هذا القبيل أن الملك الناصر بن الملك المعظم الأيوبي كان إذا سكر يقول : « أشتهى أن أرى غلامى فلانا طائرا في الهواء ! » فيرمى ذلك المسكين بالمنجنيق ، ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول : « أشتهى أن أشم رائحة فلان وهو يشوى ! » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى (٤) . وكتب التاريخ والأدب مشحونة بأخبار مجالس الشراب ، وهى فى الغالب مجالس الفناء ، ويندر أن يترفع خليفة أو وزير عنها . ومن أكثر العباسيين رغبة فيها الهادى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، وأكثرهم نفورا منها المنصور والمهتدى . واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر (٥) واشتهر بمقاومتها الحاكم بأمر الله ، وكثيرا ما أمر باراقة الخمر وأراقة العسل حتى لا تصنع منه

أما العامة فانغمس الكثيرون منهم فى المسكر وشربوه على أنواعه ، شأنهم فى كل زمان وان لم يشربه حكاهم ، فكيف إذا كانوا يشربون ؟ والغالب فى شاربي النبيذ أن ينبذوه فى بيوتهم ، وبعضهم يشربه عند أخوانه ، وآخرون يتناولونه فى الحانات وكانت كثيرة ، وأكثر أصحابها من اليهود ، وقد يشربون الخمر فى الأديار وخمرها مشهورة بجودتها

٧ - التهتك

وطبيعى فيما قدمناه من الحضارة والترف أن يعثورها شىء من التهتك

-
- (١) كتاب الخلاء ٥١
 (٢) الاغانى ٤ ج ٥ و ١١٢ ج ٤ و ٣٥ ج ٢
 (٣) المقد الفريد ٣٠٩ و ٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والف باء ٨١ ج ١
 (٤) فوات الوفيات ١٥٧ ج ١
 (٥) المقريزى ١٥٤ ج ٢

والفحشاء، وان كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ، ولكنه يكثر غالبا في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتنعم عندهم . كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات ينتحيها الفتيان ، وكان بعض الناس يكرهون اماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا (١) ولكن ذلك شأن الحضرة منهم ، لان البدو اقرب الى صحة الآداب ، فاعتبر كم تكون أسباب التهلكة أوفر في المدن الكبرى ، حيث تتزاحم الاقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجوارى ويتفشى الفناء والمسكر ، كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في ابان ذلك التمدن . فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء في بعض الاحيان صناعة عليها رئيس يحتكم اليه البغاةون عند الحاجة (٢) وتفنونوا في ترويح تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات (٣) وأصبح أهل القصف من الاغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون . وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في امكانهم (٤) ولما عجزوا عن كف اذاها بالقوة ضرب بعضهم عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات (٥)

وأقبح ما ظهر من التهلكة في أثناء هذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريحهم ، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الامين ، وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم وفيهم الارقاء بالاسر أو بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابقوا الى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتطيينهم . وكانوا يخصصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريتهم . وفشا حب الغلمان في أهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشعراء (٦) حتى غارت النساء من ذلك فعمدن الى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال (٧)

وكثرة الجوارى في بعض القصور جرتهن الى التفنن في اساليب الفحشاء ، وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج ، كما فعلت جوارى خمارويه صاحب مصر (٨) حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء أو لاسباب أخرى كان يجرحهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلّة

(١) المقد الفريد ٢ ج ٣

(٢) الفرع بعد الشدة ١٤٣ ج ٢

(٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزي ٣١٦ ج ١

(٥) المقريزي ٨٩ ج ١

(٦) تزيين الاسواق ١٦٣

(٧) المقريزي ١٠٤ ج ٢

(٨) ابن الاثير ١٨٨ ج ٧

التزويج (١) ذكروا أن ابنة الاخشيذ صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك - وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل - فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيذ استبشر وقال : « هذا دليل السقوط » وجند على مصر وفتحها ، والعفاف سياج العمران

أجهزة الدولة

أبهة الدولة

الابهة « العظمة والبهجة والكبر والنخوة » ، وتريد بها مظاهر الدولة في أبهج أحوالها وأفخم أطوارها ، والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم وألعابهم وملاهيهم وملابسهم ، وغير ذلك مما سنفصله . ولما كانت الدولة العباسية أسبق الدول الإسلامية الى تلك المظاهر وقدوتها فيها ، رأينا أن نحصر كلامنا عن الابهة في العصر العباسي ، مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول :

مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلا وأبهة باختلاف الدول ، وفي الدولة الواحدة باختلاف أطوارها ، وفي كل طور باختلاف المراد منها . فكانت مجالس الراشدين في المسجد أو المنزل ، يقعدون على حصير أو جلد يلتفون بعباءة أو نحوها ، فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم بأسمائهم ، لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . وإذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول ، وأوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل . وكان عمالهم في الأمصار على نحو ذلك ، على أن العمال - نظرا لأقامتهم في مدن عمرها الفرس أو الروم مع ما رآوه من أحوال تينك الدولتين - كانوا أقرب الى مظاهر الابهة ، وكان الخلفاء اذا علموا بذلك أنبوههم كما فعل عمر لما علم أن سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة اتخذ قصرا وجعل عليه بابا ، فأرسل اليه رجلا من خاصته وأمره أن يحرق الباب عليه ففعل

ثم ان طبيعة العمران غلبت على تلك السداجة ، فتدرج الخلفاء والأمراء في مظاهر الابهة واتخاذ الحجاب - بدأ بذلك معاوية بن أبي سفيان ، وأعانه عليه أمراؤه في العراق ومصر ، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم ، واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية . وزاد العباسيون أسباب الابهة بمن قربوهم من الفرس ، فأدخلوا في الدولة كثيرا مما كان عليه الأكاسة في مجالسهم وسائر أحوالهم ، فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلسا للحكم وآخر للمنادمة أو للمناظرة أو للمذاكرة أو غيرها ، ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتبا على أن مؤسسى الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شؤون

الدولة ، فمعاوية بن أبي سفيان (١) وأبو جعفر المنصور (٢) كانا يوزعان ساعات النهار على ما لديهما من الاعمال من ادارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة . أما في أواسط الدولة فتعددت المجالس ، والمراد هنا بالاكثـر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة

شكل المجلس وفرشه

قلنا ان الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون في المساجد ، لان الاسلام كان لا يزال غضا ، فلما جعله الامويون دولة جلسوا في قصور كانت للدول السابقة أو بنوا قصورا لأنفسهم نصبوا بها الاسرة والكراسى ، وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور وأقاموا الحجاب . فالاسرة أول من اتخذها معاوية ، قلد بها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس ، وأما الكراسى فيظهر انه قلد بها مرازمة الفرس لأن أول من استخدمها من أمراء المسلمين زياد بن أبيه عامله على فارس (٣) فلعله نقلها الى الشام ، وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأسا - وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الابهة من الطراز ونقش الاشعار في صدور المجلس ، وفرش الديباج والخز واصطناع الاسرة من الابنوس أو الصندل أو العاج أو الذهب أو غيرها

وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بادارة . وأصبح لبعض كبار الرجال ادارات خاصة بأعماله تشبه ما للخلفاء من ادارات الكتاب والحساب والاطباء وغيرهم (٤) وكان لمجلس الحكم في العصر العباسى داران ، دار خاصة ودار عامة ، يجلس الخليفة في الاولى مع رجال الدولة أو من يفد عليه من كبار الامراء أو الملوك . وينظر في الثانية في سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية

والمجلس في ابان الحضارة كان ينعقد في قاعة أو بهو كبير ، على جدرانه صور ممثلة بالذهب والفضة لما في البر والبحر من شجر أو حيوان أو جبال ، ويكسو أرضه بساط واحد أو عدة أسطحة من الديباج أو نحوه ، وفي أطراف البهو مناور من الذهب أو الفضة توضع عليها الشموع (٥) ويسبل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير أو غيره مطرزة بشارة الدولة أو بأشعار أو حكم أو آيات أو أحاديث أو رسوم مدن أو أنهر أو جبال .

(١) المسعودى ٥١ ج ٢
 (٢) ابن الاثير ١١ ج ٦
 (٣) العقد الفريد ٤ ج ٣
 (٤) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١
 (٥) العقد الفريد ١٠٨ ج ٣

وفي وسط القاعة سدة أو سرير يجلس عليه الخليفة (١) يصنع من العاج أو الابنوس أو الصندل يحلى بالذهب . وقد غالى الفاطميون في النفقة على الاسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠٠٠٠ مثقال من الذهب الابريز الخالص (٢) وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف أو نحوها للزينة أو التشاغل بها . فالمعتمد الاندلسي كانوا يضعون امامه في المجالس تماثيل عنبر من جعلتها جمل مرصع بالذهب واللؤلؤ وجمل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلى بنفائس الدر (٣) . ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة سترا بينهم وبين الجلساء (٤) أو يستترون عنهم وراء شبك مخرم . على أن فرشهم يختلف في الشتاء عنه في الصيف ، فيضاف اليه في الشتاء مواقد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون الفراء اللاتقة بالوقت على أشكالها (٥)

مجالسة الخلفاء

الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين أن يقف الرجل بالسباب ويقول : « السلام عليكم . أدخل ؟ » . يكرر ذلك ثلاثا ، فان لم يؤذن له لم بعدها (٦) وربما أقام الراشدون الحجاب لمنع الازدحام أو للاستئذان في بعض الاحوال . فلما انقضى ذلك العصر أقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس في دخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي اوقات معينة لكل طبقة من الجلساء أو الادباء أو الشعراء أو غيرهم (٧) أما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم

وأول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن أبيه في العراق ، أشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس ، فجعل الآذن للناس على البيوتات ثم على الاسنان ثم على الآداب (٨) وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الامويين ، فاذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة أو الامير يؤذن أولا لأشرفهم نسباً ، واذا تساوا في النسب قدموا أكبرهم

-
- (١) طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١
 - (٢) المقریزی ٣٨٥ ج ١
 - (٣) نفع الطيب ١١٢٨ ج ٢
 - (٤) الاعاني ٩٩ ج ٢
 - (٥) ترتيب الدول ١٢٣
 - (٦) العقد الفريد ٢١ ج ١
 - (٧) الاغاني ٦٠ ح ٥
 - (٨) العقد الفريد ٥ ح ٣ و ٢١ ج ١

سنا ، فاذا تساوا في السن قدموا أكثرهم أدبا ، وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الإسلامية

وكانوا في أيام بنى أمية وفي أوائل الدولة العباسية اذا وفد الناس على الخليفة أو الامير وقفوا ببابه يلتمسون الاذن ، فاما أن يأذن لهم أو يصرفهم ، فاذا صرفهم عادوا ثانية واذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم أو يملوا . ويعبرون عن ذلك بقولهم الاذن الاول والثاني والثالث الخ (١) ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم . وأول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد ، فاتخذ في قصره بيوتا للاذن فجرى الامر على ذلك في الدولة العباسية (٢) فكان الوافد يقيم ريثما يستريح ثم يستأذن . وقد يلتمسون اذنا لدخول القصر وآخر لدخول المجلس

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فاذا أذن لاحدهم بالدخول تقدم وألقى التحية . وكانوا في أول الاسلام يحيون تحية عامة ، فيقول الداخل على الخليفة أو الامير أو الوالى : « السلام عليك » ويكرهون قولهم : « عليك السلام » لأنها تحية الموتى (٣) وقد يضاف الى التحية كنية الامير أو الخليفة ، ولا يزيدون على ذلك . فلما خالطوا الاعاجم ، ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرؤوس ، هموا بتقليدهم . وأول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال : « ينبغى أن يكون بين الامير ورعيته فرق » ، وألزم أهل عمله أن يؤمروه أى يحيوه تحية الامراء وهى : « السلام عليك أيها الامير ورحمة الله وبركاته » (٤) أو « السلام على الامير ورحمة الله » ففعلوا . واقتدى بهم سائر المسلمين ، وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة ، فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » أو « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » (٥) وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه ، فقلدوا الدول الاخرى بالتعظيم ، وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب ، واقتصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له . والخدمة تختلف بين أن تكون بانحناء الرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع ، وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية ، وكانوا في أوائل الاسلام يقبلونها عند

-
- (١) الاغانى ٧٠ ج ٦
 (٢) لطائف المعارف ١٤
 (٣) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١
 (٤) الاغانى ٣٥ ج ١٢
 (٥) المقرئى ٢٨٨ ج ٢

البيعة أو تجديد العطاء ، وعند العفو أو الوداع ، وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي (صلعم) وظل متبعاً مع أكثر الخلفاء . ثم ترفع هؤلاء عن أن يلمس الناس أكفهم ، فصار التقبيل للأكمام والعتبات على حسب الاقتدار . وإذا أراد الخليفة تشريف أحد قواده منعه من تقبيل يده أو كفه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة ، فجذب يده منه وقال : « نصونك عنها ولا نصونها عن غيرك » (١) وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الأحوال . فان جوهر القائد لما ودع مولاه المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر أنزل المعز أولاده لوداعه ، فنزلوا عن خيولهم ونزل أهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وجافر فرسه (٢) . وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفاً من الهادي لأنه سبه قبل خلافته ، فرأى منه رعاية وحلماً فلم يتمالك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته (٣) وكذلك فعل إبراهيم الموصلي فقبل حافر دابة الرشيد لانه تنازل لزيارته (٤) وكان أهل الدين والنسك إذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم ، بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار

والداخلون على الخليفة يجلسون في المواضع اللائقة بمراتبهم ، ويتولى اجلاسهم الحاجب أو الأذن ، وكانت الرتبة الأولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني أمية ، يجلسون على الاسرة وبنو هاشم على الكراسي . وأما في الدولة العباسية فصارت الافضلية لبني هاشم ، وصاروا يسمونهم الملوك والاشراف ، فيجلس الخليفة على السرير أو السدة ، ويجلس بنو هاشم على الكراسي ، ويقعد بنو أمية إذا حضروا على الوسائد تثني لهم (٥) لكن الامويين قلما كانوا يحضرون مجلس بني العباس ، بعد أن نكبوهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم أسقطت مرتبته في أيام المستعين سنة ٢٥٠ هـ (٦) ويلى هؤلاء سائر طبقات الجلوساء من أهل الدولة وغيرهم ، وتتفاوت مراتب هؤلاء وتباين على مقتضى الأحوال مما لا حد له

الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الاسلام مثل مجالسة سائر الناس ، لما علمته من سداجة الراشدين ، وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه أو كنيته ، فيقولون : يا عمر أو يامعاوية أو ياعلى ، لا يرون بذلك بأساً . وكان الجلوساء يتخاطبون

(١) ترتيب الدول ٦٠ و ٦١

(٢) ابن خلكان ١١٩ ج ١

(٣) ابن الأثير ٤٢ ج ٦

(٤) الأغاني ٩١ ج ١

(٥) الأغاني ٩٢ ج ٤

(٦) ابن الأثير ٥١ ج ٧

ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب ، لاسباب تقدم بيانها . فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة ، عمل الامويون على التشبه بالدول المستبدة ، وأخذ الدهاة من عمالهم بتعظيم أمر الخليفة وتفخيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس . وأول من فعل ذلك زياد بن أبيه ، فوضع القاعدة « ان لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة » (١) ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الاطلاق ، وأول من منعه عبد الملك بن مروان . وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون أسلافهم ، وأول من تجبر الوليد بن عبد الملك ، فكلف الناس أن لا يكلموه كما كانوا يكلمون أسلافه ، وقال بعد كلام : « واني أعطى الله عهدا يأخذني بالوفاء به لا يكلمني أحد بمثل ذلك الا أتلفت نفسه ، فلعمري ان استخفاف الرعية براعيها سيدعوها الى الاستخفاف بطاعته والجرأة على معصيته » . وقال له رجل من بنى مرة يوما : « اتق الله يا وليد فان الكبرياء لله » فأمر به فوطئ حتى مات ، فاتعظ الناس وهابوه (٢) وهو أول من منع الناس أن يكاتبوه بما كانوا يكاتبون أسلافه او يكاتبون بعضهم بعضا

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء أن لا يدعى لأحد في حضرته (٣) ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة - ثم صارت رسوم أرباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لأحد من خلق الله ممن يدخل عليهم (٤) فلا يتكلم أحد في مجلس الخلفاء الا اذا كلموه ، أى لا يبدأهم أحد بكلام . وجرت العادة أن يطلقوا الكلام للوفاء عليهم بقولهم : « ما أنعمنا بك يا أبا فلان » وهى كلمة كانت تقولها العرب (٥) فيذكر الرجل ما جاء من أجله ، واذا لم يطلق له الكلام ظل ساكتا

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء ، حتى أباح المأمون الكلام لأهل مجلسه للمناظرة بين يديه (٦) واستمر ذلك بعده مع مراعاة الاحوال . أما مباداة الخليفة بالكلام فأول من استطاعها أحمد بن أبى دؤاد وزير المعتصم (٧) . ولما استولى القواد على الامور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم ، حتى أبيع اللعب والضحك والهزل في مجالسهم ، وأول من أباحها المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث للهجرة (٨)

(١) العقد الفريد ٢١٨ و٦ ج ٢

(٢) لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الاثير ٢٥١ ج ٤

(٣) البيان والتبيين ٣٨ ج ٢

(٤) الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١

(٥) ترتيب الدول ٩٢

(٦) الاغانى ٣٦ ج ١٤ والمسعودى ٢٥٧ ج ٢

(٧) ابن خلكان ٢٢ ج ١

(٨) المسعودى ٢٦١ ج ٢

ومن آدابهم في ذلك المجلس ان لا يأمر فيه أحد غير الخليفة (١) واذا نهض نهض سائر الحضور . وأن يصغى المجلس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء . ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل أن معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثاً ، وابن سحرة مصغ قصك جبينه حجر غائر فأدماه ، فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته ونوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع ، حتى نبهه معاوية الى ذلك فأجابته : « ان حديث أمير المؤمنين الهانئ حتى غمر فكرى وغطى على قلبى » فزاد معاوية عطاءه (٢)

والخلفاء لا يعزون ، وانما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل . ولا يقال للخليفة كيف أصبح ولا كيف أمسى ، ولا يسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا أفعاله ، ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغازم ، ولا يشتغل بحضرتة بوداع راحل ولا سلام قادم (٣) ولا يليق أن يرد على الخليفة بلفظ « لا » فيحتال في التخلص منها (٤) . وقد قالوا في الاحتراس في مخاطبة الملوك : « من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالاعمى وليخرج كالاخرس » (٥) ومن أمثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء أن عبد الملك بن صالح وجه الى الرشيد فأكهة في أطباق الخيزران وكتب اليه : « أسعد الله أمير المؤمنين وأسعدنى به . انى دخلت الى بستان لى أفادني كرمك وعمرته لى نعمك ، قد أينعت أشجاره وآتت ثماره ، فوجهت الى أمير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والامكان فى أطباق القضببان ، ليصل الى من بركة دعائه مثل ما وصل الى من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تكتيته عن الخيزران بالقضببان لانه اسم أمه (٦)

وكان الحديث يجرى فى مجلس الخليفة فى أول الاسلام باللغة العربية الفصحى ، فيعربون الكلام ويضبطون حركات الالفاظ ، فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحانا . فكان الامويون يرسلون اولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا الفاظهم ، وقد أحسنوا ذلك الا الوليد بن عبد الملك فان أباه لم يرسله الى البادية فنشأ لحانا ، وكان أبوه يكره اللحن ومن أقواله : « اللحن فى الكلام أقبح من التفتيق فى الثوب والجدري فى الوجه » ، ومنها : « تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض » . وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤلمه ذلك ، وسأله سائل : « لقد عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين » فقال :

(١) المقد الفريد ١١١ ج ٣

(٢) المسعودى ١٥٧ ج ٢

(٣) ترتيب الدول ٦١

(٤) ابن الجوزى ٣٦ و ٦٠

(٥) ترتيب الدول ٩٨

(٦) قوات الوقيات ١٣ ج ٢

« شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » ، وكذلك كان سائر بني أمية . وللوليد أخبار في اللحن مضحكة (١) . وكان عمال بني أمية مثل خلفائهم في المحافظة على الاعراب الا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن أحيانا (٢) فلما استعجمت الدولة في زمن بني العباس قلت عناية الناس بالاعراب ، وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم ، كأبي حنيفة النعمان وأبي عبيدة وغيرهما

احتجاج الخلفاء عن جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ، ثم احتجب الامويون وجعلوا بينهم وبين جلساء حجابا ، ووسطوا في حوائج الناس من يقضيها عنهم . وأول من احتجب معاوية بعد محاولة البرك بن عبدالله الخارجي سنة ٤٠ هـ قتله غيلة، وكان قد قعد له في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه ، فلما شفى ابتنى هناك مقصورة يصلى فيها خوفا من مثل ذلك ، واحتجب عن الناس الا من اختصهم بالمجالسة ، واقتدى به الخلفاء بعده في أوائل دولتهم وكذلك الاوائل من بني العباس (٣) والحجاب كان شائعا عند الفرس من عهد أردشير ، فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة أذرع وبينها وبين جلساء حجابا ، فقلدهم العباسيون . ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الاحوال ، فاتخذوا عدة أستار الواحد وراء الآخر الى ثلاثة أو أربعة ، وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة أيضا (٤) وجعلوا لقصورهم عدة أبواب الواحد وراء الآخر (٥)

كذلك كان شأن العباسيين ، من أبي العباس السفاح الى المتوكل ومن بعده، الا الهادي فانه لم يحتجب عن أحد (٦) على أنهم كانوا يحتجبون غالباً عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة ، وليس عن الخاصة الا أحيانا . فكانوا يقيمون عند الستارة حاجبا يسمونه صاحب الستارة ، يتوسط في نقل ما يريد الخليفة ابلاغه الى جلسائه أو ندمائه ، واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الاسلامية بمصر والأندلس

علامة الصرف

وإذا أراد الخليفة صرف جلسائه أبدى إشارة يعرفونها فينصرفون . وهي عادة فارسية وضعها كسرى أنوشروان ، فكان إذا أحب أن يصرف ندماءه مد رجله فينصرفون . . وتابعه ملوكهم على ذلك، فكان فيروز يدل ذلك عينيه ، وبهرام

(١) العقد الفريد ٢٢٤ ج ١ والفخرى ١١٢

(٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ١

(٣) المسعودي ١٠٦ ج ١

(٤) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١ والالتلیدی ١٣٣

(٥) الالتيدي ١١٥

(٦) الاغانى ١٦ ج ٥

يرفع رأسه الى السماء (١) وقلدهم فيها المسلمون من أيام بنى أمية ، فكان معاوية اذا أراد صرف الناس قال : « اذا شئتم » أو « العزة لله » ، وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله : « على بركة الله » . وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فاذا ألقاها من يده عرف جلاسه أنه يريد انصرفهم (٢) وقس عليه سائر الخلفاء من بنى أمية وأمراءهم ، فكان يزيد بن هبيرة اذا أراد صرف جلسائه دعا بمنديل فيقومون

أما بنو العباس فقد كانت امارة السفاح منهم أن يتشاءب ويلقى المروحة من يده (٣) وكانت علامة المأمون أن يعقد أصبعه الوسطى بابهامه ويقول : « برق يمان برق يمان ! » . ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقري ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى

مجالس الادب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار ، فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من أهل الاخبار والنوادر والادب والشعر ، يحادثون الخليفة بما يلد له سماعه من أخبار العرب ونواديرهم وأشعارهم . وكان الدهاء من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة (٤) يقيمون اناسا يتلون عليهم أعمال القواد والملوك من الروم والفرس ، وأخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأى ، يلتمسون بذلك التوسع في أسباب الدهاء وأفانين السياسة ، كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء

على أنهم كانوا يعقدون مجالس الادب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة ، وتلذذا بالاطلاع على آداب العرب وأخبارهم ، فاختص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من أصحاب الاخبار والشعر ، يجالسونه في أوقات معينة أو اذا دعاهم في ساعة قلقه أو أرقه . وقد يكون ذلك في أواسط الليل والناس نيام . فلا يزال الرجل ينتقل بحديثه من خبر الى نكتة الى نادرة الى شعر ، حتى يزول ما في نفس الخليفة وينشرح صدره . وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمه من الاخبار قبل أن ينشرح صدر الخليفة ، فيضع قصة من عند نفسه بينها على نكتة أو حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة له (٥)

(١) حلية الكعبين ٢٦

(٢) البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والمقد الفريد ٢١٩ ج ١

(٣) الاغانى ٢٠٦ ج ١٨

(٤) ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسعودى ٥١ ج ٢ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢ وسير الملوك ٢٢

(٥) المسعودى ١٦٣ ج ٢

احترام الخلفاء لاهل العلم

وكانوا يجلون أهل الادب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الاموال ويدافعون عنهم ، ولا سيما الرشيد والمأمون . وفيما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء أدلة عديدة على ذلك ، فكان كثير الملاطفة للاصمعي والاجلال له ، فاذا خلا به سأله واستفاد منه علما وأدبا ، فيقول الرشيد عند ذلك : « هكذا وقرنا في الملا وعلمنا في الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة . واكل أبو معاوية الضرير طعاما مع الرشيد ، فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الابريق وصب عليهما والرجل لا يعلم ، فقال له : « أتدرى من يصب الماء على يدك؟ » قال : « لا » قال : « أنا » قال : « أنت يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « نعم ، اجلالا للعلم » (١)

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزبور والنحلة بين سيبويه والكسائي، وكيف انتصر الامين الكسائي والمأمون لسيبويه ، وما جرى من الجدل في ذلك بحضرة الرشيد ، فأخذ الرشيد بناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث

ومن أدلة اجلالهم للعلم انهم كانوا يحرضون أبناءهم على تلقيه وحفظ الاشعار والاختبار ، ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين . فالمنصور ضم الشرقى بن القطامي الى ابنه المهدي وأوصاه ان يعلمه أخبار العرب ومكارم الاخلاق وقراءة الاشعار (٢) والرشيد عهد بتعليم ابنه الامين الى الاحمر النحوى ثم الى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزیدی وسيبويه وغيرهما . وللرشيد وصية يقال انه أوصى بها الاحمر المذكور لما عهد اليه بتأديب الامين وهى :

« يا أحمر ، ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الاخبار ، وروه الاشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا في أوقاته ، وخذ به بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا . مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مفتنم فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمنع في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة » (٣)

وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو ، واتفق ان الفراء أراد أن

(١) سير الملوك ٧٩

(٢) المسعودى ١٨٠ ج ٢ وطبقات الاطباء ٤٢

(٣) ابن خلدون ٤٧٥ ج ١ والمسعودى ١٩٤ ج ٢

ينهض ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدماها له ، فتنازعا أيهما يقدمها ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة . وبلغ ذلك المأمون فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال المأمون : « من أعز الناس ؟ » قال : « لا أعرف أحدا أعز من أمير المؤمنين » فقال : « بل من اذا نهض تقائل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردا » فقال : « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أضعهما عن مكرمة سبقا إليها أو كسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها » (١) . وعهد المتوكل بتعليم أبنائه الى ابن السكيت (٢) وتعلم عبيد الله بن المعتز الادب والعربية على المبرد ونعلب وأحمد بن سعيد الدمشقي (٣)

تقديم الشعراء

ويقال نحو ذلك في تقديمهم الشعراء ، فقد أجزلوا لهم الاعطية ، وعينوا لهم أوقاتا يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان ، وكانوا يفرضون لهم مالا يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة ، أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغا معينا . على أن مقامهم كان يعلو ويهبط تبعا لامرجة الخلفاء وأغراضهم وأحوال السياسة . فمنهم من كان يبعد الشعراء بخلا كعبد الملك ابن مروان وابنه الوليد (٤) . ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء من بابه تورعا لاعتقاده انه لا تصح اجازتهم من بيت المال ، وكان ذلك اعتقاد غير واحد من أبناء الصحابة كعبد الله بن الزبير وغيره . وكان المنصور بخيلا على الشعراء اشتغالا عنهم بتأييد الدولة . فكانوا يخرجون في أيامه من بغداد ويجتمعون ويتذكرون أيامهم في الشام (٥) على عهد بني أمية

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويقربون الشعراء ، وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم أبيات مشهورة . وكان الشعراء يتقربون الى الخلفاء أو الامراء بالمديح ، وقد يرتكبون أقبح الاكاذيب في هذا السبيل ، الا من لم ينتجع بشعره وهم قليلون ، وكانت لهم منزلة رفيعة عند أهل الدولة (٦) وأما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح أو الهجاء . وقيل للحطيثة : « اياك وهجاء الناس » فقال : « اذا يموت عيالي جوعا . هذا مكسبي ومنه معاشي » (٧) وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة في الكسب ،

(١) طبقات الادباء ١٣٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢

(٢) طبقات الادباء ٢٣٨

(٣) فوات الوفيات ٢٤١ ج ١

(٤) الاغانى ١٥٨ ج ١٥ و ١١٩ ج ٢٠

(٥) الاغانى ١٠٢ و ٩١ ج ١٢

(٦) الاغانى ٧٩ ج ٢٠

(٧) الاغانى ٥٥ ج ٢

كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعلياً (١)

وكان الشاعر اذا دخل على الخليفة بقصيدة أنشدها بصوت عال وهو قائم .
واذا تعدد المنشدون قدمهم على الاسنان . وكان الخلفاء يتفهمون معاني
الشعر حتى انهم كثيراً ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت أو الكلمة ، واذا
استبطأوا الشاعر أو الراوية بعثوا في استقدامه من العراق أو الحجاز ، وقد
لا يكون الغرض من ذلك الا سماع بيت أو قصيدة ، كما فعل الوليد بن يزيد
في استقدام حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيها مغنيته (٢) أو لينظم له
شعرا في حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم
ابن الضحاك ليقول في ذلك شعرا (٣) وقد يجيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم ،
كما أجاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته لانه أتاه
بابن جامع (٤)

وكانوا لا يكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء للاستجداء ، فيرسلون في طلبهم
الى الانحاء ، وأرغب الخلفاء في ذلك الرشيد (٥) فتكاثرت الشعراء ببابه حتى
ضاقت بهم بغداد ، واضطروا الى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز ، فعهد يحيى
ابن خالد بذلك الى شاعره ابان اللاحقي (٦) وأصبح الخليفة اذا أحب مجالسة
الشعراء بعث رجلا يثق به ليختار له أحسنهم (٧) أو اذا عن له بيت أو قصيدة
خرج وصيف أو حاجب أو نحوهما فيقول للشعراء : « من منكم يقدر يقول
قول فلان أو يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا » (٨) وكانوا
يطربون للشعر ويستلذونه ، وربما تزاحفوا عن مجالسهم اعجابا وطربا (٩)

مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الادب في أيام بنى أمية وأوائل بنى العباس يقتصر البحث فيها
على المسائل الادبية والعلوم اللسانية كما تقدم ، فلما ترجمت علوم القدماء في
العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء . وقد
سبق الناس الى العناية في ذلك البرامكة ، فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع
فيه المتكلمون وغيرهم من أهل النحل ، يتباحثون في الكون والظهور والقدم

(١) الاغانى ١٣٩ ج ٤

(٢) الاغانى ٦٥ ج ٢

(٣) الاغانى ١٧٨ ج ٦

(٤) الاغانى ٨٣ ج ٦

(٥) الاغانى ٧٤ ج ١٧

(٦) الاغانى ٧٣ ج ٢٠

(٧) الاغانى ٢ ج ١٢

(٨) الاغانى ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧

(٩) سير الملوك ٩٣

والحدوث والاثبات والنفي وغيرها من الأبحاث الفلسفية المبنيّة على علم الكلام (١)

ثم اهتم الخلفاء أنفسهم في ذلك ، ولا سيما بعد أن ظهر القول بخلق القرآن وقام به المؤمنون ، فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواه ، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم : « انزعوا أخفافكم » ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : « أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ، ومن كان خفه ضيقاً فليزرعه ، ومن ثقلت عليه قنيسوته فليضعها » . فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا ، فاستدناهم الخليفة حتى يدنوا منه ويناظروهم أحسن مناظرة وأطفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون (٢) وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة إلى إثبات رأى أو مذهب جديد

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل ما فعل يحيى البرمكى وزير العباسيين ، فأنشأ مجالس للمناظرة في الفقه والادب والشعر وعلم الكلام وغيره ، وغرض هذه الدولة إثبات مذهب الشيعة لأن دولتهم قامت عليه . فأخذ الحاكم بأمر الله يفاوض العلماء ويجيزهم ، ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي أنشأها في القاهرة (٣) وربما عقدوا خلق المناظرة في الجوامع أو غيرها

وصارت تلك المجالس عامة في الدول التي خلفت الدولة العباسية أو تفرعت منها ، وأكثر العقلاء والاقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة — كذلك فعل صلاح الدين الأيوبي وسيف الدولة الحمداني ونظام الملك وزير ملكشاه والحكم المستنصر الأندلسي . واقتدى بهم أهل العلم والوجهاء والأطباء ، وأطلقت حرية البحث في كل شيء . ومن أشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد ، فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والأطباء والأدباء والمتكلمين وغيرهم (٤) ومجلس أبي حامد الأسفراييني كان يحضره ٣٠٠ فقيه . وقس عليهما مجلس ابن المنجم وكان يعقده بحضرة المكتفي (٥)

(١) السعدي ٢٠٢ ج ٢ وابن خلكان ٤٨٠ ج ١

(٢) السعدي ٢٣١ ج ٢ وأبو الفرج الملقب ٢٣٦

(٣) الجزء الثالث من هذا الكتاب

(٤) طبقات الأطباء ١٧٥ ج ١ وأبو الفرج الملقب ٢٢٧

(٥) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢

مجالس الغناء والانس

منزلة المغنين

تقدم الكلام في تاريخ الغناء وأصله وانتشاره ، وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في ابان الحضارة وعصر الرخاء والترف ، وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم (١) وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء ، وعهدوا بهم الى بعض اهل البلاط أو الحاشية ينظرون في أمورهم (٢) . وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد أو نحوه ويجيزونهم (٣) الجوائز الكبرى وهم أقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء ، لانهم كلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب ، فاذا طربوا بذلوا الاموال بلا حساب كما تقدم

ومن أكثر الخلفاء الامويين رغبة في الغناء وبدلا للمغنين يزيد بن عبد الملك ، الذى استخفه الطرب من غناء جاريتيه حباية حتى قال : « أريد أن أطير ! » . فقالت له حباية : « على من تدع الامة وتدعنا ؟ » (٤) وكذلك كان ابنه الوليد ابن يزيد . ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيدي والامين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في أيامهم من الوجهاء والعظماء

على انهم كانوا اذا أهمهم أمر الدولة وخافوا سقوطها أبعثوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم ، كما فعل المأمون لما رجع من خراسان (٥) . وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كابراهيم الموصلى وابنه اسحق وابن جامع ، وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر ، ذكروا عن ابراهيم المذكور انه غنى للامين بشعر أبى نواس :

رشاً لولا ملاحظته خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على ابراهيم وجعل يقبل رأسه ! فنهض ابراهيم وأخذ يقبل اخمص قدمي الامين وما وطئنا من البساط ، فأمر له بثلاثة آلاف درهم ، فقال ابراهيم : « ياسيدى قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم » فقال الامين : « وهل ذلك الا خراج بعض الكور ؟ » (٦) فاعتبر ما دخل على الموصلى من الرشيد وغيره . فلا غرو اذا توفي عن ثروة طائلة . واشتهر في الاندلس على بن نافع المعروف بزرياب المغنى وهو الذى نقل هذه الصناعة الى الاندلس ، فقد أثرى وارتفعت منزلته حتى

(١) الاغانى ٩ ج ١٣

(٢) ابن الاثير ٦١ ج ٨

(٣) الاغانى ١١١ ج ٥

(٤) المسعودى ١٢٦ ج ٢

(٥) الفرق بعد السنة ٨٧ ج ١

(٦) العقد القرئيد ١٩٥ ج ٣

صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق (١) (*)

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجالس الغناء المضحكون والمجانون ، أشهرهم أشعب في دولة بنى أمية وأبو الحسن الخليلي الدمشقي في أيام الرشيد وأبو العبر في أيام المتوكل وغيرهم كثيرون . فكانوا اذا عقدت مجالس الانس ودارت الاقصاد وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلدون بها الدب أو القرد ، يعلقون في أعناقهم الجلاجل والاجراس مما يضحك الثكلى ، وكان بعض الخلفاء اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم ، فالتوكل كان اذا طرب أمر بأبي العبر المجان أن يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير ، فاذا علا في الهواء صاح : « الطريق الطريق ! » ثم يقع في الماء فيخرج السباح . وكان يجلس أحيانا على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة ، ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك (٢) وكان الامين اذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه : « من يكون منكم حمارى ؟ » فكل واحد يقول : « أنا ! » فيركب الواحد ويصله (٣) وكان يقع في مجالس الوليد ابن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتحاشى ذكره . وقد أفرط الخلفاء في التبسط في العيش والتمتع بالملذات ، ولذلك كانوا قصار الاعمار فمات اكثرهم قبل سن الكهولة

(١) الاغانى ١٣٢ ج ١

(*) المادة عن زرياب وافرة ، أهمها نفع الطيب للمقرئ ، فهرس الطبعة الاوروبية ، والمقد الفريد لابن عبد ربه ، طبعة الدكتور أحمد أمين وآخرين ، القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٥٥ ، الفهرس العام في الجزء السابع ، وطوق الحمامة لابن حزم ، طبعة بتروف ، ليون ١٩١٤ ص ١٠٨ ، وتاريخ الموسيقى العربية لفارمر ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٧

Julian Rebera, La musica arabe medieval y su influencia en la espanola. Madrid 1927.

(٢) الاغانى ٩٢ ج ٢٠

(٣) الاغانى ٢٠٣ ج ٦

وفي أيام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي (صلعم) تسمى العنزة ، وأصلها للنجاشي ، فأهداها للزبير بن العوام فأهداها الزبير للنبي (صلعم) وكانت تركز بين يديه في العيدين ، ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها الى المتوكل ، فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه (١) اذا خرج في موكبه

وتدرجوا في الابهة بتدرجهم في أسباب المدينة واتساع السلطة ، حتى اصطنعوا المحامل أو القباب أو المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ، ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين أيديهم . وأقدم من فعل ذلك الأشعث ابن قيس سيد أهل اليمن ، فكان يركب والناس يمشون بين يديه (٢) ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح ، وأول من فعل ذلك الهادي العباسي ، فكان اذا ركب مشى الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسي الموتورة (٣) فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدما صفارا يسمونهم النمل يتقدمونه وبأيديهم قسي البندق يرمون بها من يعارضه من الناس (٤) ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والامراء ، وأول وزير مشى أرباب الدولة بين يديه رجالة الحسن بن علي وزير المسترشد (٥) وكانوا الى ذلك الحين يركبون بالحلية الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديباج ، ثم ركبوا في حلية الذهب ، وأول من ركب بها المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فجرى الناس على ذلك

أما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جرى العادة في سائر أسباب المدينة ، وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ، ولعلمهم نقلوا هذه العادة من المغرب لانها كانت جارية هناك قبل الاسلام ، فكان الناس يظلون حكاهم بريش الطواويس (٦) فاتخذها الفاطميون من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجواهر وحولها الاعلام تختلف ألوانها باختلاف الاحوال وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتز على رءوسهم ، وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قرب الملك بحيث يظلمه من الشمس ، ويتخذونه من الديباج أو الحرير المذهب (٧)

على أن تلك المواكب تختلف فخامة وشكلا باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول ، أهمها موكب الخروج الى الحج أو الى بلد آخر . ومواكب الاعياد وهي

(١) ابن الاثير ٣٢ ج ٧

(٢) لطائف المعارف ١٢

(٣) المسعودي ٣٦٥ ج ٢

(٤) الاغانى ٩٤ ج ٢٠

(٥) الفخرى ٢٧٢

(٦) الاغانى ٥٩ ج ٦

(٧) ترتيب الدول ١٠٣

تمتاز بمن يقف للخليفة في خروجه من صفوف الجنود . وأول من صفت له الجنود يزيد بن الوليد الاموى ، فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح (١)

وللخلفاء مواكب كثيرة لو أردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ، ولكننا نقول بالاجمال انهم كانوا يخرجون على الخيول أو في القباب ، وحولهم الاعوان ركوبا والشرطة مشاة ، وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب أو يحملون المقارع أو الطبرزينات المحلاة بالذهب ، ويقف الناس أو الحند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما ، ويختلف طول هذا الموكب باختلاف ما يريدونه من اظهار الابهة . وقد بلغ طوله في خروج المتوكل على الله أربعة أميال ترجل فيها الناس بين يديه (٢) وإذا كان المسير الى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق (٣) يستظل الخليفة بها أو يقيم فيها

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الازهر بالمظلة المذهبة وبين أيديهم نحو ٥٠٠ ماش ، وعلى الخليفة الطيلسان والسيف ويده قضيب الخلافة ، حتى يأتى الجامع ويصلى ، ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة . وإذا خرجوا للمبايعة أو الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهري (٤) وثوب يقال له البدنة كله ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله ، وبين يدي الخليفة الجنائب عليها السروج الذهب المرصع بالجواهر والسروج العنبر والقباب الديباج بالحلى ، والعسكر على أزيائه من الاتراك والديلم والعزيرية والاشيدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبة ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزراقة ، وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجواهر ويده قضيب الخلافة ، ويمشى أمامه أصحاب الأبواق الذهب فأبواق الفضة فالنحاس ، وأصحاب الطبول الكبار التى مكان خشبها فضة ، والاولوية تخفق فوق ذلك الموكب

احتفالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات فى التمدن الاسلامى بعضها دينى كالموالد والاعياد والكسوة ، وبعضها وطنى كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج . على ان الاحتفالات الدينية انما اتخذوا أسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين ، كما

(١) ابن الاثير ١٤٧ ج ٥

(٢) ابن الاثير ٣٦ ج ٧ والافغانى ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢

(٣) فوات الوفيات ٤ ج ١

(٤) المقرئى ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢

مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة أو السلطان أو الامير في عيد أو غير عيد ، وهو من مقتضيات الابهة والمدنية . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية ، فكان لمعديكرب عبيد من الاحباش يمشون بين يديه بالحراة (١) فلما جاء الاسلام تزهد أصحابه من التقوى ، فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس . وكان أبو بكر في أول خلافته يقيم في السنح بضاحية المدينة ويفدو كل يوم على رجليه الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يغدو الى السوق فيبيع ويتاع ، وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها منفردا . وكان عمر يخرج في الاسواق ماشيا ويسوءه أن يركب عماله وأمرأه ركوب الفرس والروم . وقد على الشام أربع مرات جاءها في المرة الاولى على فرس ، وفي الثانية على بعير ، وفي الثالثة على بغل ، وفي الرابعة على حمار . وبعث في احدى خطراته الى أمرأه أن يوافوه في الجابية ، فكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحريز ، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها (٢) فقس على ذلك سائر الراشدين

مواكب الخلفاء في ابان التمدن

على ان اتخاذ الآلة والاعوان في المواكب انما بدأ به العمال في الامصار ، لقبهم من حضارة الفرس والروم ، فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة . وأسبقهم الى ذلك معاوية ، فأقام حراسا يرفعون الحراة بين يديه ، أو يقفون بالسيوف عند المقصورة التي يصلى فيها خوفا من الاغتيال (٣) واقتدى به عماله ، وبعضهم سبقه الى مثله ، فاتخذ زياد ابن أبيه رجلا يمشون بين يديه بالاعمدة (٤) أو بالحربة . وأصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة ، ثم صار المسير بالحربة خاصا بولى العهد أو بكبار العمال ، يحملها رجل راكب على جواد يتقدم الخليفة أو الامير ، فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون (٥)

(١) المسعودى ١٩٧ ج ١

(٢) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والمقد الفريد ٢٣٦ ج ٢

(٣) الفخرى ٩٧

(٤) لطائف المعارف ١٢ والمقد الفريد ٤ ج ٣

(٥) البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٩ ج ٦ والمقرئوى ٣٠٧ ج ١

اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال بأعيادهم من الوثنيين . ولا يزال الاحتفال بالاعیاد الإسلامية شائعا الى الآن مع تغيير اقتضاه الفرق بين التمدنين . وأكثر الدول الإسلامية عناية بهذه الاعیاد الفاطميون . منها : يوم عاشوراء ، والمولد النبوی ، ومولد علی وفاطمة والحسن والحسين ، والخليفة الحاضر ، وليلة اول رجب ، وعید النحر ، وعید الفطر ، وفتح الخلیج ، ويوم النيروز ، وغيرها مما فصله المقریزی في خطته (١) . ولهم في كل من هذه الاعیاد رسوم وقواعد يبدلون فيها الاموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلى وغيرها مما يطول شرحه

وممن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب اربل ، وكان احتفاله بالمولد النبوی بالفا حد النهاية في الابهة ، والمشهور انه اول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم (٢) وكذلك السلطان أبو حمو موسى صاحب تلمسان (٣) - هذا غير احتفالاتهم الاجتماعية كالاعراس والمآتم والختان ونحوها ، والسياسية كاستقبال الوفود والمبايعة والتتويج والخلع ، فنذكر أمثلة منها فيما يلي :

احتفالات الاعراس ونحوها

فلاحتفال بالاعراس تغلب على أحوال شتى ترجع الى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن ، مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة . ونأتى بمثال من أبلغ ما يعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال ، فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الاسلام :

الاول : زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون ، احتفلوا به في « فم الصلح » احتفالا لم يسبق له مثيل ، نشر الحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقايع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة ، فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ملكا آخر أو فرسا أو جارية أو مملوكا . ثم نشر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر ، غير ما أنفقه على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقا لا يحصى حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره . ذكروا انه خدم في

(١) المقریزی ٤٩٠ ج ١

(٢) ابن خلكان ٤٣٦ ج ١

(٣) نفع الطيب ٦٠٤ ج ٤

ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ ملاح ونفذ الخطب يوما فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموسا في الزيت . ولما كانت ليلة البناء وجلت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهن زبيدة وحمدونة بنت الرشيد فما مست احدهن من الدر شيئا . فقال المأمون : « شرفن أبا محمد وأكرمنه » فمدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة ، فبقى سائر الدر يلوح على ذلك الحصر الذهب ويتلألا فقال المأمون : « قاتل الله الحسن بن هانئ » ، كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صفري وكبرى من فقاقتها حصباء در على أرض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دخانها فعملت له مثل من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار . وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح ، فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . وجاء المأمون الى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب (١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق

والاحتفال الثاني أقامه المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا ، ومما جرى فيه انه جلس بعد فراغ القواد والاكابر من الاكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجواهر ، وعليها أمثلة من العنبر والتد والمسك المعجون على جميع الصور ، وجعلت بساطا ممدودا . وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب ، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة . وجاء الفراشون بزناييل قدغشيت بالادم مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني ، وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتنفل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات مما حملت يده ، وكلما خف موضع صب عليه من الزناييل حتى يرد الى حالته . ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا : « ان أمير المؤمنين يقول لكم : ليأخذ من شاء ما شاء ! » فمد الناس أيديهم الى المال فأخذوه ، وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به فيسلمه الى غلمانه ويرجع الى مكانه . ولما تقوض المجلس خلع على الناس ألف خلعة ، وحملوا على ألف مركب بالذهب والفضة وأعتق ألف نسمة (٢)

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدى بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت اليه

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٢ ج ١

(٢) لطائف المعارف ٧٤

بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها الى دار الخلافة (١) ، وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الاول من هذا الكتاب

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الابهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين ، وأول من خلع عليه جعفر البرمكى فى اليوم الذى تولى الرشيد الخلافة فيه ، وكان فى جملة ما خلعه عليه ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير ، وأمر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه وأعطاهم خاتم الملك ليختتم به على ما يريد (٢) وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزرائهم وعمالهم خلعا تختلف شكلا وقدرًا باختلاف الاحوال ، ومعها فى كل حال ثوب يرسله الخالع ويلبسه المخلوع عليه يقال له الخلعة . فالخليفة العاضد الفاطمى لما ولى السلطان صلاح الدين الايوبى الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر ، وخلع عليه خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تنيسى بطرف ذهب وثوب ديبقى بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب ، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة (٣) بثمانية آلاف دينار عليها سرج ذهب وسرسار ذهب مجوهر ، وفى رأسها مائتا حبة جوهر وفى قوائمها أربعة عقود جوهر وفى رأسها قصبه بذهب وفيها شدة بياض بأعلام بيض . ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخرى ومنشور الوزارة مكتوب فى ثوب أطلس أبيض (٤)

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسى على السلطان الملك الظاهر بيبرس يومئذ خلعة ألبسه اياها باحتفال ، هى عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق فى علقه من ذهب وقيد فى رجله من ذهب (٤) . وقس على ذلك

استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيمًا يظهر به عز الاسلام ، ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم أو الهند أو الافرنج . والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الاحوال ، نذكر من أمثله احتفال المقتدر العباسى برسل جاءوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم فى « دار الشجرة » التى تقدم ذكرها وعبى لهم الجيوش ، وصفت الدار بالاسلحة وأنواع الزينة ، وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠ رجل بين

(١) ابن الاثير ٦٥ ج ١٠

(٢) المقرئى ٩٩ ج ٢

(٣) بكر الحاء وسكون الجيم ، هى الفرس . انظر : ملحق القواميس لدوزى ، مادة حجرة

(٤) السيوطى ٢٥ ج ٢

(٤) السيوطى ٥٨ ج ٢

راكب وواقف . ووقف الغلمان الحجرية (*) بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين الفا . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف ، منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و٣٠٠٠ خادم أسود. ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب ، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة . وزينت دار الخلافة، وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ ستر ، وكانت جملة البسط ٢٢٠٠٠ بساط . واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع . وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصنا من الذهب والفضة ، فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها . فشهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه (١)

الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع وأهله في خمول ، فبفتوهم وفتحوا بلادهم في بضع عشرة سنة على أسلوب لم يسبق له مثيل . فلما أفاقوا أرادوا ردهم فعجزوا عنه ، وما لبثوا أن شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة ، فهابوهم وأخذوا يتقربون اليهم بالوفود والهدايا الى المدينة فدمشق ، ثم أصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من اطراف العالم من الهند والصين شرقا الى أعالي آسيا وأواسط أوروبا شمالا الى أقصى أفريقيا غربا والبحر الهندي جنوبا . وصارت البصرة مركز التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من أقاصي البحور

الاسلام في تاريخ الصين

المشهور أن الاسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير أصحابه ، ولم يدون أخباره غير أهله ، حتى الروم مع ما كان من مدنيته يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئا عن الاسلام أو المسلمين (***) . ولكن الباحثين عثروا في الكتب

(*) الحجرية بضم الحاء وسكون الجيم نسبة الى حجرة ، ويريد بهم الغلمان الذين تربوا داخل القصر (في الحجرات)

(١) أبو الفدا ٧٣ ج ٢ وابن السامى ٧٥

(**) كان هذا هو المظنون حتى أواخر القرن الماضي ، ثم ظهر بعد ذلك ان المدونات اللاتينية والنصرانية في الشرق والغرب حافلة بالاشارات الى ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم وانتشار الاسلام ، بل فيها مدونات أرخت للاسلام تاريخا منتظما ، وفيها ما تعرض للاسلام وحاول اعطاء فكرة عنه ، وهذه الكتابات كلها تحمل طابع التحامل والتعصب الشديد ، عن جهل بالاسلام حيناً وميلاً الى العصبية الدينية حيناً آخر ، وعلى سبيل المثال فقط نذكر مايلي من الاصول والابحاث مما كتبه أهل العصور الوسطى من النصارى عن الاسلام :

الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه ، فقيام أبى مسلم الخراسانى ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك . فقرأوا أسماء محمد وقريش ومعاوية وأبى العباس وأبى جعفر وغيرهما من رجال الاسلام مكتوبة بالأحرف الصينية . ومما جاء هناك أن أبى جعفر أرسل سنة ٧٥٦ م وفدا الى امبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من « هوى هو » من مغول الشمال فاخصم الوفدان فيمن يتقدم بالدخول على الامبراطور ، فانصف الحاجب بينهما وأدخل كل وفد من باب - ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر في اثناء سيرة الامبراطور سوتسونغ . قالوا : « ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي أيامه (سنة ٧٨٥ م - ٨٠٤) جرد العرب أصحاب الجبة السوداء على توفان (تيبه) ثم صار أهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة . وفي (٧٩٨ م) جاء ثلاثة سفراء من العرب الى بلاط الامبراطور الخ « (١) ووقفوا في تاريخ الصين أيضا على نصوص تشير الى ما كان من العلاقات التجارية بين الصينيين والعرب من أواسط القرن العاشر للميلاد أو الثالث للهجرة ، فذكروا سفنا تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيرا ما كانوا يقدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم ويسألهم عن بلادهم وملكهم وسائر أحوالهم . ووقفوا على نصوص أخرى تدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام مما يطول بيانه . ومع اختصار هذه الاخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهي عظيمة الأهمية، لانها منقولة عن مصدر صينى مستقل (*)

- E.W. Brooks, The chronological canon of James of Edessa. ZDMG, vol 53 (1899)
 Ibidem, A Syriac Chronicle of the year 846. ZDMG, vol. 53 (1897)
 H. Buk, Zur ältesten christlichen Chronographie des Islam, in Byzantinische Zeitschrift. Vol. 14 (1905)
 Georg Jakob, Berichte von Gesandten an germanische Fürstenhöfe aus dem 9. und 10. Jahrhundert. Berlin und Leipzig 1927.
 H. Zotenberg, Mémoire sur la chronique byzantine de Jean, évêque de Nikion. dans J.A. (7ème série) X (1877) p 451 sqq; XII (1878), p. 245 sqq. XIII (1879). p. 291 sqq.
 Monumenta Germanicae historica, Auctorum antiquissimorum, tomus XI, Chronica minora saec. IV, V, VI, VII, Vol. II, éd. Th. Mommsen. Berolini 1893.
 Neciphori (Archiepiscopi Constantinopolitani) Opuscula historica. éd. C. de Boor. Bib.-Teubneriana. Lipsiae 1880.
 Theodor Noeldeke. Zur Geschichte der Araber im ersten Jahrhundert der Hijra aus syrischen Quellen ZDMG. XXIX (1875).
 L. Schwenkow, Kritische Betrachtungen der lateinisch geschriebenen Quellen zur Eroberung Spaniens durch die Araber. Goettingen 1894.

وانظر بصفة خاصة

- Cesar Dubler, Sobre la Cronica arabigo-bizantina de 741 y la influencia bizantina en la Peninsula Ibérica. Al-Andalus, Vol. XI, fasc. 2, 1846.
 E. Batschneider. The knowledge Possessed by the Ancient Chinese of the (1) Arabs & Arabian Colonies 7.

(*) انظر عن هذا الموضوع : العلاقات بين العرب والصين ، بقلم بدر الدين حى الصينى ، القاهرة ١٩٥٠

أما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيرا من أخبار نزولهم شواطئ الصين والهند ودخولهم على ملوكهما ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية . ولكن أكثر الناس كانوا لا يكترون بتلك الروايات لاعتقادهم أنها محشوة بالمبالغات والخرافات ، كأنهم قاسوها بما يقرأونه من الاقاصيص الخرافية في ألف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرهما . على أن هذه الاقاصيص منقولة في الاصل عن غير العربية ، وأكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم - وأما ما يكتبونه من عند أنفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق ، ولا سيما كتب التاريخ ونحوها اذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا

على اننا لا نلوم المنكرين ، لانهم انما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط همهم وضعف عزائمهم ، فأكبروا أن يكون لهم مثل تلك الهمم السماء في عهد ذلك التمدن، فكذبوا ما قرأوه في كتبهم من هذا القبيل . أما وقد رأينا ما يؤيده في كتب أهل الصين على غير تواطؤ أو نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه

وأقدم ما وصل إلينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب شواطئ تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التي أجرتها العرب والعجم من شواطئ خليج فارس الى بلاد الهند والصين ، تأليف سليمان التاجر وأبي زيد حسن من أبناء القرن الثالث للهجرة . وقد طبع هذا الكتاب ببافيس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرنسية للمستشرق الشهير رينو . ثم « مروج الذهب » للمسعودي ، وهو مشهور ومتداول ، غير أمهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبنية على رحلات حقيقية أشهرها ما كتبه البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم ، وليس هنا مكان الاضافة في ذلك (*)

(*) معظم من تكلم عن الصين من كتاب العرب وجغرافيتهم يتحدثون أيضا عن بقية ماعرفوه من بلاد آسيا ، وكتابتهم على درجة عظيمة من الاصالة والصراحة لان الكثير منها مبنية على مشاهدة وتجربة مباشرتين ، مثل كتابات سليمان التاجر السيرافي وأبي دلف الينبعي ورشيد الدين فضل الله وسيدى الحلبي، وقد نشر معظم هذه النصوص المستشرق الفرنسي Reinoud في كتابه Relation des Voyages وكذلك ابن بطوطة في رحلته المعروفة وهي منشورة ، وبعض من كتب عن الصين وآسيا من العرب اتى بأخبار مبنية على مشاهدة جزئية وأكمل كلامه بقول وروايات مثل أبي زيد الحسن السيرافي والمسعودي وابن خرداذبة ، وبعضهم الآخر اعتمد على النقل مثل ابن الفقيه وابن حوقل واليعقوبي والادريسي وياقوت . ومن أهم هذه الاصول رحلة سليمان التاجر السيرافي ، فقد كتب في عام ٨٥١ بعد أن زار الصين أكثر من مرة، وهو الوحيد الذي وصف لنا الطريق البري من العراق الى الصين ويبدو انه كان شديد الإعجاب بالصين وأهلها ، فقد قال مثلا : « والصين كلها عمارة ، أهلها أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في اللبس والدواب ، وهم في هيئتهم في مواكبتهم شبيهون بالعرب ، بلبسوا الاقضية والناطق » وقال في موضع آخر : « بلاد الصين أنزه وأحسن وأصح وأقل أمراضا وطيب هواء . لا يكاد يرى بها أعمى ولا أهور ، ولا من به عاهة ، وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة وعطاؤهم كمطاء العرب »

ومن أهم الكتب التي ألفت حديثا عن الاسلام في الصين

ويقال بالاجمال ان في كتب التاريخ نصوصا كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين ، وان المهاداة كانت متواصلة بينهما . فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من أواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا أو كتب المخابرة (١) ولا بد أيضا من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين

الاسلام وملوك اوربا

على ان علاقات ملوك المسلمين مع ملوك اوربا - وأعظمهم يومئذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان - كانت أوثق من سواها . أما الروم ، وهم ملوك القسطنطينية ، فكانت المخابرات متواصلة بينهم وبين المسلمين من أيام بنى أمية أما لصلح أو مهادنة أو مفاداة أو مفاداة (٢) . والحرب كانت سجالا بينهما على الحدود أو في البحار . وقد حاصر الامويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلادا أخرى من اوربا وأوقعوا الرعب في دول الافرنج . وكذلك بنو العباس (٣) فان الرشيد أخذ الجزية من ايرينى صاحبة القسطنطينية (*)

وأما حوادث المهاداة فهديت الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا أشهر من أن تذكر (***) . على أن هدايا ملوك الروم الى دار الخلافة كانت متواصلة ،

(١) العقد الفريد ١٤٩ ج ١ والسعودى ٢٤٨ ج ٢ وترتيب الدول ٩٦

(٢) المبرد ٢٩٦ و ٢٢٤

(٣) ابن الاثير ٧٤ ج ٦

(*) في تحقيق هذه العلاقات يستطيع القارئ الرجوع الى المراجع التى ذكرناها في تعليقنا رقم ١ ص ١٥١

(**) سبق أن ذكرنا في تعليقاتنا على الجزء الاول من هذا الكتاب ان قصة هدية الرشيد الى شارلمان قصة وضعها بعض تجار المغرب الذين ارادوا الحصول على بعض الامتيازات التجارية في بلاد الدولة الكارولنجية ، فزعموا أنهم رسل من الرشيد الى شارلمان ، وحملوا اليه هدايا في جملتها فيل يسمى أبا العباس ، وليس من المعقول ان يطلق الرشيد اسم جده على فيل . أما القول بأن الرشيد أرسل الى شارلمان مفاتيح بيت المقدس فقد اخترعه الرهبان ليدعوا به حقوقا لشارلمان والبابوية على الاراضى المقدسة . وهم لم يكتفوا باختراع القصة ، بل صنعوا المفاتيح أيضا ، وقد ناقش الموضوع الدكتور عبد العزيز الدورى في كتابه « العصر العباسى الاول » وختم حديثه بقوله : « أما رنسيما ، فبرى في نظرية حماية شارلمان على فلسطين أسطورة اخترعها المؤرخ الاسطورى الراهب سنت كول الذى كتب حوالى خمسين سنة بعد وفاة شارلمان ، اذ جمع المعلومات عن الهدايا التى ارسلها الخليفة والبطريق مع معلومات اینهارد المضطربة ليكون قصة مضمونها أن الرشيد تنازل لشارلمان عن سيادة فلسطين وأرسل اليه واراداتها وهكذا يظهرهن نظرية الحماية واساسها الاسطورى . والذى اراه من هذه المعلومات المحدودة (ولم أظفر فى المصادر اللاتينية الثلاثة بالنص) احتمال وجود نوع من الصلات ولكنها صلوات تجارية لاسياسية ، وان المسؤل عنها هم التجار اليهود العالميون الذين كانوا حلقة وصل بين الغرب والشرق ، ولعلمهم من اليهود الرادانية الذين كانوا يحسنون عدة لغات ويتاجرون بين فرنسا والافطار الاسلامية والصين كما بين ابن خرداذبة ، خاصة وان من اساليب التجار آنئذ ان يدعوا بأنهم سفراء لتسهيل مصالحهم »

وقد ناقشنا الموضوع كله فى فقرة « العباسيون والكارولنجيون » من بحثنا « المسلمون فى حوض البحر الابيض المتوسط الى الحروب الصليبية » فى المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٤ عدد ٢١ مايو ١٩٥١ ص ١٥٧ وما يليها

وأكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب . منها هدية بعث بها قيصر الروم (ربما ميخائيل الثاني) الى المأمون وفيها تحف سنيسة من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور (١)

وأهدت ثريا بنت الاوبارى (كذا) ملكة الافرنج الى المكتفى بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً و ٥٠ رمحاً و ٢٠ ثوباً منسوجاً بالذهب و ٢٠ خادماً صقلياً و ٢٠ جارية و ١٠ كلاب كبار لا تغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها (٢) (**)

وكان الخلفاء أيضاً يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة أو مخابرة ، وممن سار في ذلك القاضي الأشعري المعروف بأبن الباقلائي أنفذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم (باسيل الثاني) في جواب رسالة فأظهر في بلاط القيصر أنفة زادت مقام المسلمين عندهم (٣)

الاندلسيون وملوك الافرنج

على ان العلاقات كانت أكثر وثوقاً بين ملوك أوروبا وملوك الاسلام في الاندلس، لان قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الأمويين في قرطبة ليستنصروهم على العباسيين أعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبد الرحمن الاوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب اليه يرغبه في ملك المشرق من أجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتصم ، وقد ذكرهما في كتابه له وعبر عنهما بأبن مراجل وأبن ماردة ، تحقيراً لهما بالانتساب الى أمهات من الجوارى . فكافأه عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الفزال شاعره وأحد كبار دولته فأحكم الصلة بينهما (٤) فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يطأه أحد من أسلافه ، تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فأوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والعمل على كسب مرضاته ، ووصل الى بابه الملوك من الاسبان المتأخمين لبلاده بجهات

(١) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١

(٢) المستطرف ٤٦ ج ٢

(*) يبدو ان هذا الخبر لا أساس له من الصحة ، ومصدوره على أى حال هو الابشيهي في كتابه «المستطرف من كل فن مستظرف» وهو ليس مؤرخاً ولا محلثقة . وقد حققنا الموضوع فلم نجد له أثراً في المطولات العربية والبيزنطية ، فعام ٢٩٣ يقابل ٩٠٩ ميلادية ، وكان امبراطور الدولة البيزنطية اذ ذاك ليون الرابع (٨٨٦ - ٩١٢) من ملوك الاسرة المقدونية ، وكانت الحرب هواناً بين الروم والمسلمين ، مما ينفي احتمال التهادى . وليس بين ملكات الروم من تسمى ثريا بنت الاوبارى ، وربما كانت سيدة من اصحاب الاقطاعات الواسعة في آسيا الصغرى ، فأرادت ان تتقرب الى المسلمين حتى لا يغزوا أرضها

(٣) ابن الاثير ٦ ج ٩

(٤) نفع الطيب ١٦٣ ج ١

قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الشمالية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه (١)

وتوالت الهدايا على عبد الرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان . فملكا برشلونة وطركونة هادياه يلتمسان تجديد الصلح (٢) وملك الصقالبة وهو يومئذ « ذوفوة » (كذا) أوفد اليه رسولا مع رسل آخرين من ملك الالمان (ربما أوتو الاعظم) وملك الفرنجة وراء الرون وهو يومئذ « أوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه «كلدة» (ربما كونراد) واحتفل الناصر لقدومهم احتفالا شائقا . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم . وبالجملة ان الخليفة الناصر كان سلطانه ضخما عزيزا ، لم يبق ملك من ملوك أوروبا الا خطب مودته ، وفي جملتهم قياصرة الروم وملوك الافرنج والاسبان والجرمان . وفي نفع الطيب للمقرى تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم (٣) تعظيما لدولة المسلمين . ولما أراد بناء « الزهراء » أهدها أولئك الملوك من أصناف الحجارة والرخام على اختلاف ألوانه وأشكاله شيئا كثيرا (٤) وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخيم

وقس على ما تقدم علاقات ملوك أوروبا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم ، فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ، ولا سيما في زمن الفاطميين بعد أن ضخمت دولتهم ، منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧ هـ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارا من الذهب الاحمر ، كل قنطار في عشرة آلاف دينار، الجملة ٣٠٠.٠٠٠ دينار (٥) وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح ، ولا يزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة (٦)

(١) نفع الطيب ١٦٧ ج ١
 (٢) نفع الطيب ١٨١ ج ١
 (٣) نفع الطيب ١٧٢ ج ١
 (٤) نفع الطيب ٢٧٠ ج ١
 (٥) المستطرف ٤٦ ج ٢
 (٦) المقريرى ١٠٧ ج ٢

العباب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهون في ساعات الفراغ بالعباب يروضون بها عقولهم وأبدانهم . ولكل أمة العباب تلائم عاداتها وتشاكل أخلاق أهلها ، ولكن الملوك يتشابهون في أكثرها لتشابه مرادهم منها . والعباب الخلفاء كثيرة ، بعضها كان معروفا في الجاهلية كالصيد والسباق ، وبعضها اقتبسوه من الأماجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمى بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . وأسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الالعب العباسيون في أيام الرشيد، فانه أول من لعب بالصولجان والكرة ، وأول من رمى بالنشاب في البرجاس، وأول من لعب الشطرنج والنرد وقرب اللاعبين وأجرى عليهم الارزاق(١)واليك وصف أهم العباب في أبان تمدنهم :

١ - الصيد والقنص

كان الصيد معروفا في الجاهلية ، ولكنه كان قاصرا على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ ، فلما تمدن العرب بعد الاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص ، فاتخذوا الجوارح من الطير وهى البساز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور ، وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش . وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية ، وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود ، وله كلف بالصيد فاتخذة للهو وليس للرياضة . وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب والاجلة المنسوجة بالذهب ، ويهب لكل كلب عبدا يخدمه (٢) . واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بنى أمية على تفاوت في ذلك

حتى اذا أفضى الامر الى بنى العباس ورسخت أقدامهم في الدولة ، اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود ، وغالوا في انتقائها وبدلوا الاموال في اقتنائها وتربيتها ، وأقاموا عليها أناسا ينظرون في شؤونها وفيهم البيازرة والحجالون والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب ، واطلقوا لهم الارزاق الجلييلة واقطعوهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم . وتسابق

(١) المسعودى ٣٦٥ ج ٢

(٢) الفخرى ٤٩

الشعراء الى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها (١) وكتبوا في فتون الصيد وأساليبه كتباً عديدة ، ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطارد (٢)

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير (٣) فضلاً عن الغزلان والطيور وحمير الوحش ونحوها . وأول من أحب الصيد منهم المهدي فالرشيد ، وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير (٤) وابنه الامين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب اللباييد (٥) وكان المعتصم ألهمهم به ، فبنى في أرض دجيل قرب بغداد حائطاً طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده ، وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفر نحوهم فيضربون حولها حلقة ، ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تثب بين الاعشاب والادغال حتى يضايقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة ، فلا يبقى لها مجال للنجاة فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته ، ويتأنقون في القتل والصيد وينفرجون فيقتلون ما يقتنون ويطلقون الباقي (٥) وقس على ذلك سائر الخلفاء من بنى العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والأتابكة والايوية والمماليك . فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس ، حتى بنى من حوافر الحمير الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة (٦) وكان السلطان مسعود السلجوقي يباليغ في ترفيه الكلاب حتى ألبسها الجلال الاطلس الموشاة وسورها بالاساور الذهب . واصطنع السلطان أبو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بناحية بنزرت في بقعة يبسيط من الارض ، وأحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراعى فيه حمير الوحش ، فاذا ركب للصيد تخطى السياج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج (٧) وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه (٨)

٢ - الخلبة أو السباق

لم تبق أمة من الامم القديمة أو الحديثة الا لهجت بالسباق ، ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم

-
- (١) ترتيب الدول ١٣٦ وديوان أبي نواس والافغانى ١١٦ ج ٩
(٢) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ و ٤٢٣ ج ١
(٣) المراد الخنازير البرية ، وهي أضخم بكثير من الخنازير المستأنسة ، ومعروفة بشراستها وخطورتها على من يتعرض لصيدها
(٤) الافغانى ٩٧ ج ٩
(٥) السعودى ٢١٣ ج ٢
(٥) الفخرى ٤٧
(٦) ابن خلكان ١٢٤ ج ٢
(٧) ابن خلدون ٢٨١ ج ٦
(٨) كتاب الاعتبار ١٥٠

ويتفاخرون بذلك ، وكثيرا ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق . وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة وهى ميدان السباق عشرة عشرة ، وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها فى السبق بعضها على بعض (١)

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا فى اتخاذ الميادين ، واستكثروا من الخيول وتفننوا فى تضميرها . وكان معاوية حلبة يخرجون اليها فى أيام معينة للسباق ، فمن حاز قصب السبق أجازوه - وقصب السبق قصبة يغرسونها فى آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعها فهو الفائز . ومن غريب ما ذكره أن يزيد ابن معاوية كان له قرد يكنى أبا قيس ، يحضره مجلس منادته ويطرح له متكأ ، وكان نبيها خبيثا يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذلك بسرج ولجام ، وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجاء أبو قيس فى بعض الأيام سابقا وتناول القصبة ودخل الحجره قبل الخيل ، وعليه قباء من الحرير الاحمر والاصفر ، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق ، وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر المنقوش (٢)

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة فى الحلبة ، يستجيد الخيل للسباق ويبدل فى اقتنائها الاموال ، فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه أحد من العرب الى ذلك . وكان له فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر فى ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرما بخيل السباق ، فجمع منها ألف فرس أسبقها فرس اسمه « السندى » كان يسابق به فى أيام هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه أو جاء مصليا (أى جاء الثانى) . وكان ميدان السباق يومئذ فى الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة (٣) ولمحمد بن يزيد بن عبد الله بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها ، هى أحسن ما نظم فى هذا الموضوع (٤)

أما العباسيون فلم يكونوا أقل رغبة فى السباق ، وكانت لهم ميادين كبيرة فى الرقة والشماسية ، وللرشيد مواقف شهيرة فى الحلبة ، نظم فيها الشعراء القصائد فى مدح السوابق (٥) وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة فى سائر دول الاسلام ، ومن أشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر (٦) وميادين الحكم فى الاندلس

(١) المسعودى ٢٨٠ ج ٢

(٢) المسعودى ٦٨ ج ٢

(٣) المسعودى ١٢٩ و ١٣٥ ج ٢

(٤) المسعودى ٢٨١ ج ٢

(٥) العقد الفريد ٤٧ ج ١ والمسعودى ١٩٩ ج ٢

(٦) المقرئى ١١١ ج ٢

٣ - الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو أمية يعرفونها ، وأول من لعبها بنو العباس وأسبقهم إليها الرشيد . وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في أرض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقافها بعصا عقاء يسمونها الصولجان أو الجوكان ، ويرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم ، وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى انه قسم أصحابه يوما للعب بها ، فجعل الافشين في جهة وهو في جهة ، فقال الافشين : « يعفنى أمير المؤمنين من هذا » فقال : « ولم ؟ » قال : « لانى ما أرى أن أكون على أمير المؤمنين في جد ولا هزل » فاستحسن ذلك منه وجعله في حزه (١)

٤ - البندق

البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها ، وهي فارسية بلفظها واستعمالها ، ويسمونها أيضا الجلاهقات جمع جلاشق . فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الاقواس كما يرمون النبال . واقتبس العرب هذه اللعبة في أواخر أيام عثمان بن عفان ، وعدوا ظهورها في المدينة منكرًا (٢) ثم ألفوها حتى شكلوا فرقا من الجنود ترمى بها . وقد رأيت أن الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النمل تسير بين يديه ترمى البندق على من يقف في طريق الموكب . وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه (٣) ويعدون ذلك من قبيل الفتوة ويغلب في رماة البندق أن يشتغلوا بتطهير الحمام . ولهم زى خاص يمتاز سراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة . وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها في أواخر الدولة . حتى اذا أفضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمى البندق شأنًا ، لانه كان ولعا به وباللعب بالحمام المناسب (أى المنسوب ذى الاصل المعروف) وكان يلبس سراويل الفتوة . وقد بلغ من رغبته في ذلك أن جعل رمى البندق فنا لا يتعاطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها ، على أن يكون بينهم روابط ونيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء . وكتب سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته أن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا سراويلها ، وأن ينتسبوا اليه برمى البندق ويجعلوه قوتهم فيه ، فأجابوه الى ذلك فمن أراد

(١) ترتيب الدول ١٣٠

(٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٣

(٣) الاغانى ٩٣ ج ٢٠

الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بن نفسه . . فبطلت الفتوة في البلاد جميعها الا من لبس سراويلها منه ، ومنع الرمي بالبندق الا من ينتسب اليه . فأجابه الناس في العراق وغيره الا انسانا اسمه ابن السفت من بغداد هرب الى الشام ، فأرسل الخليفة اليه يرغبه بئذ المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي اليه فلم يفعل فلما بعثهم على ذلك فقال : « يكفي فخرا انه ليس في الدنيا أحد لا يرمى للخليفة الا أنا » (١)

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الاسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة اقواس البندق (٢) ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأنايب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أنابيب البنادق . . فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنايب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة اليه . ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس ، وهو غرض في الهواء أو على رأس رمح أو نحوه يطلبون اصابته بالنشاب ، وهي لعبة فارسية أول من لعبها من الخلفاء الرشيد

ومما يدخل في الألعاب والملاهي لعبة الشطرنج ، وهي هندية الأصل أخذها العرب عن طريق الفرس ، وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضا ، وهو أول من لعب النرد كما تقدم ، ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم

٥ - ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الأسود والفيلة والتمور لاثبات الهيبة في قلوب الرعية ، وأول من اهتم بذلك بنو العباس ، فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها ، وكان للرشيد اقفاص فيها الاسود والتمور وغيرها (٣) وغالى الذين جاءوا بعده في اقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها - ذكروا أنه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلا ، وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف ، واذا ركب ركبوا في خدمته واذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاء يزيد بن مرثد يوما الى أم جعفر ليودعها قبل سفره فأثوا اليه بالقرد وأمره أن يقبل يده ، فشق عليه ذلك وجرده السيف وقطعه نصفين وانصرف ، فبعث اليه الرشيد وعاتبه فقال : « يا أمير المؤمنين أبعث أن أخدم الخلفاء أخدم القروء ؟ لا والله أبدا » فعفا عنه (٤) وما زال شأن الخلفاء وأهلهم على ذلك حتى تولى المهتدي ، وكان يتشبه

(١) ابن الاثير ٢٠٢ ج ١٢ وابو الفدا ١١٩ و ١٤٢ ج ٣ وابن خلدون ٥٣٥ ج ٢

(٢) المقرئ ٣١ ج ٢

(٣) العقد الفريد ١٥٠ ج ١

(٤) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمة ادورد برون الى الانجليزية صفحة ٤٥

بعمربن عبد العزيز في التقوى والزهد، فأمر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرد الكلاب ، ولكن ذلك المنع لم يدم طويلا . فلما مات المهتدى عادوا الى المغلاة في اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره أحضرت الأسود والفيلة والنمور في السلاسل ، وجعلت في حواشي مجلسه تهويلا بذلك على الناس وترويعا لهم (١)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والأندلس وغيرهما ، فقد كان خمارويه بن أحمد بن طولون دار خاصة بالسباع ، عمل فيها بيوتا بأزاج كل بيت يسع سبعا ولبؤته ، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات ، ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها ، وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته ، أو وضع وظيفة اللحم لفدائه ، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة ، فيرد الباب وينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ، ويضع الوظيفة من اللحم في مكان معد لذلك بعد ما يخلص مافيه من الغدد ويقطعه له ، ويغسل الحوض ويمأله ماء ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه . وقد عرف السبع ذلك فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد فيأكل ماهيىء له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم أوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضا ، فتقيم يوما كاملا الى العشي فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره

وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له زريق ، وقد انس بخمارويه وصار مطلقا في الدار لا يؤذى أحدا ، ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه ، فيرمى اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدى ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به . وكانت له لبوة لم تستأنس كما انس هو ، فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه . فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه ، فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه مادام نائما ، وان نام على الأرض بقى قريبا منه وتفظن لمن يدخل ويقصد

خمارويه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد الفه
ودرب عليه ، وكان في عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر أحد أن يدنو من
خمارويه مادام نائما لمراعاة زريق له وحراسته اياه (١)

وتطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات ، فالوزير جعفر
ابن خنزابه أحد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر الى الحشرات من
الأفاعى والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين ومايجرى هذا المجرى ، وكان في
داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلال وألها قيم وفراش
وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها، وكان كل حاو بمصر يصيد له مايقدر عليه
من الحيات ويتناهون في ذوات العجب من أجناسها وفي الكبير والغريب منها
وهو يثيبهم على ذلك أجل ثواب ويبدل لهم المال الجزيل . وكان له وقت يجلس
فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما في تلك السلال
ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك
ويستحسنه (٢)

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة ايضا كالغزلان والقمارى
وأشباههما ، يجعلونها في حظائر وأقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها (٣)
واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع
عند غيره وذكروا بينها العنقاء (٤) قالوا : « وهو طائر جاءه من صعيد مصر في
طول البلاشون وأعظم جسما منه ، له غيب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه
عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة » (٤)

واتخذ الخليفة الناصر الأموى في مدينة الزهراء بالاندلس محلات للوحوش
والسباع واسعة الارحاء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشسباك
كالاقفاص الكبيرة (٥)

وهناك ألعاب آخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للأمين مقرطة صيدت له
وهى صغيرة فقرطها بحلقتين من ذهب فيهما حبتا در ، وكلعب الحمام وتطيره ،
واللعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة ، وغير ذلك مما لا محل لذكره

(١) المقرئى ٢١٧ ج ١
(٢) فوات الوفيات ١٠٥ ج ١
(٣) المسعودى ٢٦٠ ج ٢ وابن الاثير ٦٦ ج ٨
(٤) ابن خلكان ٢٦٧ ج ١
(٥) نفح الطيب ٢٧٤ ج ١

الكتب التي وردت في هوامش الكتاب (* ١)

وهي المؤلفات التي وردت أسماؤها في هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء ، مع أسماء مؤلفيها وسنى طبعتها وأماكنه ، وهي غير ما رجعنا إليه في التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والفرنسية

اسم المؤلف	اسم المؤلف	اسم الكتاب
ليبيك سنة ١٨٧٨ م	للبيروني	الآثار الباقية عن القرون الخالية
مصر ١٣١٧ هـ	لابن الطقطقي	الآداب السلطانية (الفخرى)
الهند ١٢٩٦ هـ	لصديق الفنجوي	أبجد العلوم ، ٣ أجزاء
	انظر : الكامل	ابن الأثير ، تاريخ
	» : كتاب الأذكياء	» الجوزي ،
	» : المسالك والممالك	» حوقل ، جغرافية
	» : »	» خرداذبة ،
	» : العبر والمبتدا والخبر	» خلدون ، تاريخ
	» : وفيات الأعيان	» خلكان ، معجم
	» : مختصر أخبار الخلفاء	» الساعي ، تاريخ
	» : تاريخ دمشق	» عساكر ،
	» : كتاب البلدان	» الفقيه ، جغرافية
	» : السيرة النبوية	» هشام ، تاريخ
	» : مختصر الدول	أبو الفرج المظني ، تاريخ
	» : النجوم الزاهرة	» المحاسن ، تاريخ
	» : أعلام الناس	الأتليدي ، معجم
ليدن ١٨٧٦ م	للمقدسي	أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
مصر ١٢٩٨ هـ	للماوردى	الأحكام السلطانية
بغداد ١٢٨٢ هـ	لأحمد شليبي بن يوسف الدمشقي القرماني	أخبار الدول وآثار الأول
بهاشم الكشكول (* ٢)	للماوردى	أدب الدنيا والدين
مصر سنة ١٣١٢ هـ (* ٣)	للسلاوي	الاستقصا في المغرب الأقصى ٤ أجزاء

- (* ١) تركنا طبعا الكتب كما هي ، لأنها هي التي رجع إليها المؤلف ، وقد أشرنا إلى الطبعا الجديدة في تمليقاتنا على النص ، ونذكر هنا ما فاتنا ذكره هناك
- (* ٢) طبع طبعة جديدة محققة سنة ١٩٢٥ بالقاهرة ، ثم أعيد طبعه بمد ذلك مرارا نظرا لانه كان من الكتب المقررة للمطالعة المدرسية في مصر
- (* ٣) طبع طبعة جديدة بإشراف ولدي المؤلف أحمد الناصري السلاوي في فاس في تسعة اجزاء ، ابتداء من سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٧

مكان طبعه وسنته	اسم مؤلفه	اسم الكتاب
مصر سنة ١٢٨٦ هـ	لابن الأثير انظر : المسالك والممالك	أسد الغابة في أخبار الصحابة ٥ أجزاء الاصطخرى ، جغرافية
مصر ١٣١٨ هـ	الاتليدى	أعلام الناس
بولاق ١٢٨٥ هـ (١*)	لأبي الفرج الأصفهاني	الاغاني ٢٠ جزءاً
مصر ١٢٨٦ هـ	لعبد اللطيف البغدادي	الانادة والاعتبار
مصر ١٢٨٧ هـ	يوسف البلوي انظر : صحيح البخارى	ألف باء ، جزآن البخارى ، صحيح
بولاق ١٣٠٩ هـ	لأحمد بك كمال انظر : فتوح البلدان (٢*)	بنية الطالبين في علوم وعوائد المصريين البلادى ، تاريخ
بغداد ١٨٩٨ م	للألوسى	بلوغ الأرب في أحوال العرب ٣ أجزاء
مصر ١٣١٣ هـ	للجاحظ انظر : الآثار الباقية	البيان والتبيين جزآن البيرونى ، تاريخ
الاستانة ١٢٨٦ هـ	للملك المؤيد	تاريخ أبي الفداء ٤ أجزاء
ليندن ١٨٨٥ م (خط) (٣*)	للطبرى	« الأمم والملوك ١١ جزءاً دمشق
بيروت ١٩٠٤ م (٤*)	لابن عساكر لصليبا بن يوحنا	« المشاركة « الوزراء
مصر ١٩٠٤ م (خط) (٥*)	لمحمد ظافر لابن القفطى	تهذيب المسامير تراجم الحكماء
بولاق ١٢٩٥ هـ	للحسن بن عبد الله	ترتيب الدول
مصر ١٣٠٨ هـ	لداود الأنطاكي	تزيين الأسواق
جوتنجن ١٨٣٢ م	لشنوى انظر : عجائب الآثار	تهذيب الأسماء الجبرتي ، تاريخ
مصر ١٢٩٩ هـ	للسيوطى	حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن

(١*) بدأت دار الكتب المصرية في طبعه ابتداء من سنة ١٩٠٦ وأصدرت عدداً من الاجزاء ولكنه لم يتم الى الان . وقد صنع المستشرق جويدى فهرساً مفصلاً لطبعة الساسى التى تمت على أساس طبعة بولاق ، وقد ترجم هذا الفهرس الى العربية ونشره في القاهرة الاستاذ محمد مسعود ، ولا غنى عن هذا الفهرس في مراجعة الاغانى . وقد شرعت احبى دور النشر في بيروت في طبع الاغانى على أساس طبعة دار الكتب

(٢*) أعيد طبعه بعد ذلك في القاهرة بإشراف الاستاذ بهجت الاثرى

(٣*) طبع التاريخ الكبير المعروف بتاريخ دمشق لابن عساكر في دمشق ، في خمسة اجزاء . دمشق ١٣٢٩ - ١٣٣٣ ، ثم شرع الدكتور صلاح المنجد في نشره نشرة علمية محققة وأصدر منه الجزء الاول وذيله ثم الجزء الثانى

(٤*) أعيد نشره نشرة علمية محققة بإشراف الاستاذ عبد الستار فراج في القاهرة سنة ١٩٥٨

(٥*) نشره Lippert في لايبسك ١٩٠٣ واسم الكتاب الكامل أخبار العلماء بأخبار الحكماء

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان طبعه وسنته
لشمس الدين النواجي	حلية الكهيت	مصر ١٢٩٩ هـ
لدميرى	حياة الحيوان الكبرى (جزآن)	مصر سنة ١٣٠٩ هـ
لأبي يوسف	الخراج - كتاب	بولاق ١٣٠٢ هـ (*١)
لقدامة بن جعفر	»	ليدن ١٣٠٦ هـ
لعلي باشا مبارك	المخطوط التوفيقية ٢٠ جزءاً	بولاق ١٣٠٦ هـ
للمقرئى	خطط مصر (جزآن)	بولاق ١٢٧٠ هـ (*٢)
للايدار بكري	الخمس (جزآن)	مصر ١٨٢٣ م (*٣)
انظر : حياة الحيوان	الدميرى ، كتاب	مصر ١٨٩٨ م
للحسن بن هانى	ديوان أبي نواس	مصر ١٢٨٧ هـ
لابن بطوطة	رحلة ابن بطوطة جزآن	ليدن ١٨٥٢ م (*٤)
لابن جبير	رحلة ابن جبير	الاستانة ١٢٩٧ هـ
لأبي بكر الخوارزمي	رسائل الخوارزمي	علي هامش مقدمة ابن خلدون
للطرطوشى	سراج الملوك	مصر سنة ١٣١١ هـ (*٥)
لسليمان وأبي زيد	سلسلة التواريخ	باريس ١٨١١ هـ (*٦)
لعلي بن برهان الدين الملقب	السيرة الحلية ٣ أجزاء	مصر ١٣٠٢ هـ
نور الدين الحلبي القاهري	سير الملوك	بيروت ١٨٨٥ م (*٧)
لعبد الرحمن الاربلى	السيرة النبوية ٣ أجزاء	بولاق ١٢٩٥ هـ
لابن هشام	السيوطى ، تاريخ	رومية ١٨٧٥ م
انظر : حسن المحاضرة	شعراء السريان	ليدن ١٩٠٢ م (*٨)
للقرداحي	الشعر والشعراء	
لابن قتيبة		

- (*١) أعاد نشره محققا الاستاذ محمد شاکر ، بالطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٦
- (*٢) اسم الكتاب : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، وقد نشر الاستاذ جاستون قبيت جانبا من الجزء الاول من طبعة بولاق في اربعة اجزاء ضمن منشورات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، القاهرة ١٩١١ - ١٩٢٤
- (*٣) الخميس في احوال أنفس نفيس للفاضى حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري ، المنوفى في مكة في حدود ٩٦٦ هـ . وهو كتاب في السيرة النبوية
- (*٤) أعاد نشره محققنا الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٧
- (*٥) طبع طبعة خاصة غير محققة في القاهرة ، بدون تاريخ ، وقد ترجم الى الاسبانية ونشرت الترجمة في مدريد سنة ١٩٣٨ في مجلدين
- (*٦) الف هذا الكتاب سليمان الناجر وأبو زيد الحسن السمراني من اهل القرن الثالث الهجرى ، وقد اخذ عنوانه من فاتحته : « هذا كتاب فيه سلسلة التواريخ والبلاد والبحور وانواع الاسماك وفيه علم الفلك وعجائب الدنيا وقياس البلدان والعمود منها ... الخ » . قام على نشره Langlès وعلق عليه رينو في باريس ١٨١١ - ١٨٤٥
- (*٧) ويسمى نهاية الارب في اخبار الفرس والعرب وهو كتاب في تاريخ الفرس والعرب واحوالهما من بدء الخليقة الى فتح العرب فارس
- (*٨) أعاد نشره نشرة صحيحة محققة الشيخ محمد محمود شاکر ، في جزئين ، القاهرة ١٩٤٢

مكان طبعه وسنته	اسم مؤلفه	اسم الكتاب
على هامش ابن خلكان	لطاشكبرى زاده	الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية
مصر ١٣٠٤ هـ	انظر : الملل والنحل	المهرستاني ، كتاب
مصر ١٨٨٢ م	للإمام البخارى	صحيح البخارى ٤ أجزاء
مصر ١٢٩٤ هـ	لابن أبى أصيبعة	طبقات الأطباء - جزآن
(خط) (١*)	لعبد الرحمن الانبارى	» الأدباء
	لابن سعد	» ابن سعد
بولاق سنة ١٢٨٤ هـ	انظر : النجوم الزاهرة	تاريخ تيمرى بردى
على هامش ابن الأثير (٢*)	لابن خلدون	العبر والمبتدا والخبر ٧ مجلدات
على هامش الدميرى	للجبرتى	مجائب الآثار ٣ أجزاء
مصر ١٣٠٥ هـ (٣*)	للقرزوبى	» المخلوقات
مصر ١٢٨٣ هـ	لابن عبد ربه	العقد الفريد ٣ أجزاء
ليدن ١٨٦٦ م (٤*)	للملك السعيد	» »
	للبلاذرى	فتوح البلدان
مصر ١٩٠٣ م	انظر : الآداب السلطانية	الفضرى في الآداب السلطانية ، تاريخ
(خط)	للتنوخى	الفرج بعد الشدة جزآن
ليبسك ١٨٧٢ م	لابن وحشية	الفلاحة النبطية
مصر ١٢٨٢ هـ (٥*)	لابن النديم	الفهرست
مصر ١٨٩٠ م	لابن شاكر السكتي	فوات الوفيات جزآن
رومية ١٥٩٣ م (٦*)	ليفيلب جلاد	قاموس الادارة والقضاء ٧ أجزاء
بيروت ١٨٩٣ م	لابن سينا	القانون
	للدكتور فاندريك	القبه الزرقاه
	انظر : الحراج	قدامة ، كتاب
	انظر : أخبار الدول	القرمانى ، تاريخ
	انظر : مجائب المخلوقات	القرزوبى ، كتاب

- (١*) الطبقات الكبرى لابی عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى كاتب الواقدى ، نشر جزءا كبيرا منه المستشرق ادوارد سخاو بمعونة يوسف هورنثن ویرلیوس لیبیرت وسترشين وبروكلمان ، صدر منه ١٣ جزءا (١٣٢٢ - ١٣٣٩ هـ) ثم طبع منه جزآن فى القاهرة سنة ١٩٣٠
- (٢*) طبع فى بولاق طبعة جيدة فى اربعة مجلدات ، ثم أعيد طبعه على اساس طبعة بولاق فى اربعة مجلدات ايضا
- (٣*) نشر نشرة علمية محققة باشراف أحمد أمين وآخرين فى سبعة مجلدات ، القاهرة ١٩٤٠ وما بعدها
- (٤*) طبع فى القاهرة طبعة غير محققة سنة ١٩٣٢ ثم أعاد نشره محققا الدكتور صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٨
- (٥*) أعيد نشره فى القاهرة بتحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٤
- (٦*) نشر فى القاهرة فى بولاق فى اربعة مجلدات

مكان طبعه وسنته	اسم مؤلفه	اسم الكتاب
مصر ١٨٩٣ م		القوانين العقارية للحكومة المصرية
مصر ١٣٠٢ هـ (*١)	لابن الأثير	السكامل ١٢ جزءاً
مصر ١٢٨٦ هـ (*٢)	لمبرد	السكامل
مصر ١٣٠٦ هـ	لابن الجوزى (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسين)	كتاب الأذكياء
ليدن ١٨٨٤ م	لابن منقذ	كتاب الاعتبار
مصر ١٣٢٤ هـ (*٣)	للجاحظ	كتاب البخلاء
ليدن ١٨٨٥ م	لابن الفقيه الممذاني	كتاب البلدان
» » »	للعقوبى	» »
مصر سنة ١٣٢٤ هـ	للجاحظ	كتاب الحيوان ٣ أجزاء
الاستانة ١٣١١ هـ (*٤)	لسكاتب جلبي	كشف الظنون جزآن
مصر ١٣٠٥ هـ	للعاملى	الكشكول
ليدن ١٨٦٧ م	للعالي	لطائف المعارف
الموصل ١٨٧٩ م	لمطران يوسف داود	اللمعة الشهبية فى اللغة السريانية
	انظر : الأحكام السطانية	الموردى ، كتاب
بيروت ١٣١٢ هـ	لميدانى	بجمع الأمثال جزآن
بولاق ١٣٠٩ هـ	لابن الساعى (محمد بن أنجب البغدادى)	مختصر أخبار الخلفاء
بيروت ١٨٩٠ م	لأبي الفرج بن هرون الملطى المعروف بابن العبرى	» » الدول
مصر ١٣٠٤ هـ (*٥)	للمسعودى	مروج الذهب جزآن
بولاق ١٢٨٢ هـ (*٦)	للسيوطى	الزهر جزآن
ليدن ١٨٧٣ م (*٧)	لابن حوقل	المسالك والممالك
م ١٨٨٠	لابن خرداذبة	» »

- (*١) نشره نشرة محققة فى أوبسالا بالسويد كارل يوهان تورنبرج ونشره فى لايدن فى ١٤ مجلدا من ١٨٧٤ الى ١٨٧٦
وقد أعيد نشره فى القاهرة بالمطبعة المنيرية نشرة غير محققة فى عشرة مجلدات ، القاهرة ١٩٤٢
- (*٢) نشرة المستشرق وليام رايط فى لايدن
- (*٣) نشره جزئيا المستشرق فان فلوتن فى لايدن ، ثم نشره نشرة علمية محققة الاستاذ الدكتور طه الحاجرى ، القاهرة ١٩٤٧
- (*٤) أعيد طبعه محققا فى الاستانة سنة ١٩٣٦
- (*٥) طبع فى باريس باشراف باربييه دى ميغار ١٨٦١ - ١٨٧٧ فى تسعة مجلدات مع ترجمة فرنسية
- (*٦) أعيد طبع الزهر فى علوم اللغة لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى ونشر محققا فى القاهرة فى جزئين سنة ١٩٥٠
- (*٧) الاسم الصحيح لكتاب ابن حوقل هو « صورة الارض » وقد أعيد طبعه فى لايدن باشراف المستشرق باركر فى جزئين بهذا الاسم سنة ١٩٤٠

اسم المؤلف	اسم المؤلف	مكان طبعه وسنته
المسالك والممالك	للإصطخري	ليدن ١٨٧٠ م
المستطرف جزآن	للأبشيحي	مصر ١٣١١ هـ
المسعودي ، كتاب	انظر : مروج الذهب	
مشكاة المصابيح	لولي الدين العمري	دهلي ١٣١٠ هـ
المعارف	لابن قتيبة	مصر ١٣٠٠ هـ
معجم البلدان ستة أجزاء	لياقوت الحموي	ليبسك ١٨٧٠ م (*١)
مفتاح السعادة	لطاشكبري زاده	(خط)
القدس ، جغرافية	انظر : أحسن التقاسيم	
المقري ، تاريخ	» : نفع الطيب	
المقريزي ، تاريخ	» : خطط مصر	
الملل والنحل جزآن	لشهرستاني	لندن ١٨٤٢ م (*٢)
الموطأ	للإمام مالك	(خط) (*٣)
الميداني ، كتاب	انظر : بجمع الأمثال	
ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ للحكومة المصرية		بولاق سنة ١٩٠٣ م
النجوم الزاهرة جزآن	لأبي المحاسن	ليدن ١٨٥١ م (*٤)
نفع الطيب ٤ أجزاء	للمقري	بولاق ١٢٧٩ هـ (*٥)
نهاية الأرب في قبائل العرب	لأقلقشندي	(خط)
الهداية	برهان الدين الفرغاني	لكنهو ١٣١٤ هـ
الهمداني ، جغرافية	انظر : كتاب البلدان	
وفيات الأعيان ٣ أجزاء	لابن خلكان	مصر ١٣١٠ هـ (*٦)
اليقوبني ، جغرافية	انظر : كتاب البلدان	

- (*١) طبع كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي طبعة محققة بمعرفة السيد أمين الخانجي في القاهرة سنة ١٩٠٦
- (*٢) أعيد نشر كتاب الملل والنحل لشهرستاني في القاهرة بتحقيق الشيخ محمد فتح الله بدران بالقاهرة ١٩٥٦ في مجلدين
- (*٣) طبع الموطأ للإمام مالك بن أنس مرارا متعددة في مصر والمغرب بروايات شتى
- (*٤) بالإضافة إلى هذين المجلدين اللذين طبعا في لايدن من كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، طبع المستشرق بوپير Popper تسعة مجلدات في كاليفورنيا بالولايات المتحدة . ثم أعادت دار الكتب المصرية نشر الكتاب نشرة محققة وظهر في ١٠ أجزاء من ١٩٢٩ إلى ١٩٤٩
- (*٥) طبع نصف كتاب نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب لأحمد بن محمد بن أبي العيش المعروف بالمقري في لايدن فيما بين سنتي ١٨٥٥ و ١٨٦٦ في مجلدين بتحقيق المستشرقين دوزي وكريل ودوجاروايت . وهذا القسم المطبوع في لايدن يشمل المقدمة العامة المشهورة في التعريف بالأندلس . وقد توقفت هذه اللجنة من المستشرقين عن طبع القسم الثاني الخاص بلسان الدين بن الخطيب . ثم طبع الكتاب كله طبعة غير محققة بإشراف الشيخ محيي الدين عبد الحميد في القاهرة سنة ١٩٤٩ في عشر مجلدات
- (*٦) نشر الشيخ محيي الدين عبد الحميد وفيات الأعيان نشرة لأبأس بها في ست مجلدات في القاهرة سنة ١٩٥٢ ثم الحقها بمجلدين يضمان قوائم الوفيات لابن شاذان الكتيبي

مفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
نظام الاجتماع	
نظام الاجتماع فى المملكة الاسلامية	١٢
طبقات الناس قبل الاسلام	
طبقات الناس فى الشام والعراق	١٢
نظام الاجتماع فى الشام والعراق	١٦
طبقات الناس فى مصر	١٧
طبقات الناس فى أفريقية	١٨
طبقات الناس فى بلاد فارس	٢٠
طبقات الناس عند العرب الجاهلية	٢٢
نظام الاجتماع فى عصر الراشدين	٢٣
نظام الاجتماع فى عصر الأمويين	٢٤
نظام الاجتماع فى العصر العباسى	
طبقات الخاصة	٢٦
أتباع الخاصة	٢٧
الخدم	٢٨
الأرقاء	٢٩
الخصيان	٣٣
الجوارى	٣٥
طبقات العامة	
الطبقة الاولى	٣٨
أهل الفنون الجميلة	٣٨
المغنون	٣٩
العلماء والفقهاء والادباء	٤٤
التجار	٤٥

الموضوع	الصفحة
الصناع	٤٩
الطبقة الثانية من العامة	
المزارعون أهل القرى	٥١
العامة سكان المدن	٥١
أخلاق العامة	٥٦
الآداب الاجتماعية	
آداب العرب في الجاهلية	٦٠
مناقب العرب الجاهلية	٦٠
المرأة في الجاهلية	٦٣
آداب العرب في صدر الاسلام	
الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين	٦٧
الآداب الاجتماعية في عصر الأمويين	٦٩
الآداب الاجتماعية في العصر العباسي	
المرأة في العصر العباسي	٧٧
الارتزاق بالسخاء	٧٩
المعاملة في المعاملة	٨٤
العائلة في التمدن الاسلامي	٨٦
المعيشة العائلية	
الطعام	٩١
اللباس	٩٢
المأوى	٩٥
حضارة الدولة الاسلامية	
عمارة المدن والقصور	١٠٠
القطر المصري	١٠٠
الانديلس	١٠٥
القصور والمباني	١٠٧
مباني الأمويين في الشام	١٠٨

الصفحة	الموضوع
١٠٨	مباني العباسيين بالعراق
١١١	مباني الامويين بالاندلس
١١٥	مباني مصر

الثروة والرخاء ونتائجهما

١١٨	ثروة الخلفاء وأهلبيهم
١١٩	ثروة رجال الدولة وغيرهم
١٢٠	نتائج الثروة
١٢١	التأنيق في الطعام
١٢٣	البذخ في الالبسة
١٢٥	الاثاث والرياش والمجوهرات
١٣٤	التسرى
١٣٦	السخاء
١٤٥	التهتك

أبهة الدولة

١٥٠	مجالس الخلفاء
١٥١	شكل المجلس وقرشه
١٥٢	مجالسة الخلفاء
١٥٨	مجالس الادب والشعر
١٦١	مجالس المناظرة والعلم
١٦٣	مجالس الغناء والانس

مواكب الخلفاء

١٦٥	مواكب الخلفاء في ابان التمدن
١٦٧	احتفالاتهم
١٧١	الخلفاء والدول المعاصرة

العاب الخلفاء وملاهيهم

١٧٧	الصيد والقنص
١٧٨	الحلبة أو السباق
١٨٠	الكرة والصولجان
١٨٠	البندق
١٨١	ارتباط السباع

Bibliotheca Alexandrina



0232290

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة